SCANNED BY
JAMAL HATMAL

المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر

أحياء في البيت

رواية

مؤنس الرزاز

أحياء في البحر الميت

جميع الحقوق محفوظة

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر

بناية برج الكارلتون - سافية الجزيرة - ت ٢٠٠٠/١ - ٨٠٢٩
برقيا: موكيالي بيروت - ص.ب ٥١٦٠/١١ بيروت

الطبعة الأولى ١٩٨٢

مؤنس الرزاز

أحياء في البحر الميت

رواية

مقدمة

بقلم مثقال طحيمر الزعل

هذه الأوراق التي قر قراري على أن أدفع بها إلى المطبعة هي أوراق كتبها صديقي عناد الشاهد وهو يعبر في حالات من التحولات والتنافر والانقلابات النفسية والروحية والمادية. لا تنتهي ولن تنتهي إلا بموته. فهذه الأوراق ـ حسب اجتهادي الشخصي ـ تتشكل رواية ولا تتشكل، تتقمص سيرة ذاتية وضد السيرة الذاتية. فاللغة فيها تتضارب، وايقاع نبضها يتنافر، والوجوه تتحد لتنفصل وتتحلل لتعود فتتحد ثم تتشظى. وهذا يعود في رأيي الشخصي إلى عدة أسباب. أولها فوضى عناد نفسه. فقد كان يصف أمامه على الطاولة أوراقاً بيضاء ثلاثاً. واحدة تجاور الأخرى.. فيكتب بضعة أسطر من مشروع روايته التي كان يسميها «عرب» تارة ويسميها «اعراب» طوراً آخر. تيمناً بـ دبلـنرز جـويس. ثم ينقلب على نحو مفاجىء إلى الورقة الثانية المحاذية، فيكتب فيها ضرباً من السيرة الذاتية، ثم ينفتل بغتة إلى الورقة البيضاء الثالثة فيسجل كلمات الآخرين. و«الآخرين» كلمة فضفاضة تشمل أقوال صديقه أبو الموت وأنا والمشير ـ وهو ليس المشير الذي قد تتوهمه أذهان القراء ـ وعبد الحميد ـ وهو ليس الذي نعرفه في التاريخ والواقع ـ وأفلاطون وهاملت وعنترة وديمتري كرامازوف وسعيد حزوم. حتى الآن يبدو هذا الكلام مع قليل من الملح والبهارات مهضوماً مقبولاً لكن الكارثة الأمية هي أن عناد صاحبي كان يخلط بين هذه الأوراق مرة

والغلط بين كلماتها مرات. وهذا التصرف الذي قد يبدو غريباً مثيراً للفضول في الوهلة الأولى لا يستعصي على المنطق والسببية والجدل. فصاحبي عناد كان حساساً حتى المرض وكان متطرفاً متقلباً مثل طقس ثار على قوانين الطبيعة إذا مسه طائف من الجنون أو الطيش. كان صاحبي عناد يكتب في حالات اليقظة المستنفرة والاعصاب المتوثبة والحواس المستحوذة والذهن المتوقد. ويفرط في تناول المنبهات كي يبلغ أقصى درجات اليقظة والتركيز. ثم ينقلب فجأة إلى ذئب مستوحش فيخلع ثوب الحكيم المقاتل ويذهب بعيداً في عوالم الغفلة والوهم الممتدة ما بين النوم واليقظة حيث الرؤى المدهشة والشطح الهستيري المهلوس. فيرى ما لا نرى، ويسمع ما لا نسمع، ويمشي على البحار وهو على اليابسة.. ويسرف في تعاطي المخدرات.. ولا ينصرف عنها إلا حين يهده النوم.. وعندذاك ـ وهذا ما يثير فضولي ويستعصي على منطقي الجدلي وتحليلي العلماني ـ يحكي في نومه ويثرثر ويبربر، وقد احتاط لكل هذا الهذيان بآلة تسجيل تسجل هذيانه بينما هو نائم غافل. وكان يفز أحياناً من الفراش كمعتوه ولهان فيسجل خاطرة أو رؤيا أو ملاحظة على الجدار المجاور لسريره ثم يعود إلى نومه راضياً مطمئناً، فيلج عوالم المنام بكوابيسها وأحلامها العجائبية. وكان إذا استيقظ ينقل كل ما رأى وتذكر أنه رآه في عالم المنام على الورق. ويفرغ شريط المسجلة على الورق أيضاً.. والأنكى من ذلك كله هو أن صاحبي عناد الشاهد كان أشبه بالبدو الرحل، لا يكاد يلم بعاصمة إلا ويغادرها تحت ليلة يفتقد فيها البدر. فكان يكتب في عمان وبيروت والقاهرة ودمشق وبغداد وأريحا واليمن السعيد. وفي الصحراء وعلى البحر وفي السماء. على ظهر سفينة الصحراء أو سفينة اليم أو طائر الفضاء.

من هنا جاءت هذه الأوراق متداخلة مختلطة فزمن الوهم يلج زمن اليقظة، وزمن اليقظة جلاب لزمن المنام وزمن المنام يتسرب في شرايين الدم المضرج بالمتاهات والصور. فاذا بالمنفلوطي تيسير سبول وإذا بتيسير مایاكوفسكي وإذا بمایاكوفسكي ورقة بن نوفل وإذا بورقة ينشطر إلى عناد نفسه والحجاج بن يوسف معاً.

هذه الأوراق المختلطة التي أصر عناد قبل عودته إلى «القواعد» على وصفها: «رواية» وعنونتها بـ «أعراب» والتي أرى أنا أنها تصور حركة الحياة. لا الحياة نفسها، وتتوج الزمان ملكاً عليها دون شخصياتها، هي في أسوأ الأحوال عمل أدبي، قد يراه المرء رواية مفتوحة، وقد يراه آخر ضد ـ رواية ويراه ثالث هلوسة وتجديداً ويراه رابع مجرد أوراق لا تصلح إلا لتستعمل في المرحاض بعد أن ينتهي ذو الحاجة من قضاء حاجته. خاصة إذا كانت من الوزن الثقيل. عناد الشاهد ترك لي هذه

الأوراق. . وغاب. أين؟ لا أدري. ففي مقام اليقظة قال إنه سيعود إلى لبنان وينحدر إلى الرشيدية. وفي حال الوهم واضطراب الحواس قال إنه سيمضي إلى الصحراء، ليضل بين شعابها المترامية الممتدة إلى ما وراء مطارح البصر. فيتشرد في تضاريسها الموحشة. وإنه سيألف الوحش وإن الوحش سيأنس به. وروي عنه أنه قال:

ـ وفي عمق الرمال سأنهض بمملكة مليكتها سمكة قرش. تكون ضواري الصحراء أهلاً لها وحاشية.

وفي منامه كان يهذي فيقول كأنما يخاطب شبحاً لا يراه إلاّه:

ـ نعم. . سأحترف اليأس، واقتل كفي والرائد والنقيب ومغتصب مريم. ولن أنتحر. ربما، أو. . ولكن. . لعل. آه. لماذا وكيف. ثم لماذا؟

في هذا «العمل» تختلط الرواية بالسيرة بالواقعية بالهذيان بنقل كلمات الآخرين. بانفجار عاصف لكل ممكن يتأبى التحول إلى فعل.

ملاحظة: قد لا يكون ترتيب أرقام الصفحات منطقياً، إذ أنني وجدت هذه الأوراق مبعثرة تحت وفوق، شمالاً ويميناً. حتى انني لم أميز بين أوراق الرواية والسيرة وأوراق مفكرته التي يسجل عليها أقوال الآخرين. وأقواله. لكنني اجتهدت وعملت ليلاً ونهاراً كي أجد لها ترتيباً أقرب ما يكون إلى المعقول (!).

وعلي أن أشير أخيراً إلى ملاحظة في غاية الأهمية وهي أن أشخاص هذه الرواية وأنا في مقدمتهم مزورون، أسقط عليهم الشاهد في أغلب الأحيان ما خرج في لحظات الهلوسة من عقله الباطن.

قال المتصوف: «الماء من لون الاناء». وقلت: «الاناء مكان، الماء زمان».

أين زمن بيروت الهادر الدافق المقاتل من زمن مسقط رأسك الهامد القتيل هذا؟

يدفق الزمن، يتخذ إيقاعاً خاصاً، يتلون بلون المكان، يتباطأ هنا، يتأنى هناك، يهدر هنالك. ترحل: تستقل طائرة، قطاراً، سفينة، سيارة. تضرب في الأرض وتنتقل. فينقطع الزمن بغتة ما إن تمس قدمك أرضاً جديدة. ثم ما يلبث أن يدفق من جديد.

لكل مكان زمنه الخاص، تجاربه الفريدة، تقوم ضمن خلية معقدة ولود تتدحرج إلى أمام. تستقل طائرة. . هارباً لاجئاً أو منفياً. تغمض عينيك القلقتين

وتنام بتقطع الزمن. تهبط في مدينة أخرى.. عاصمة مختلفة. فإذا بك وجهاً لوجه أمام زمن اخر. ليس من اليسير أن تعتاده. تروعك هذه الحقيقة. ترنو إلى الساعة: المسافة بين بيروت وعمان في السماء خمسون دقيقة تقريباً. زمن قصير محايد يقطع بين زمنين متطرفين. رغم أن زمن ساعة اليد والجدار واحد مستمر.. كاذب مزور. وتتخبط بين زمنين و. آه.

حين تحترف الرحيل، تختبر هذا الاحساس المفجع بتقطع الزمن وتقلبه: اتصاله وانفصاله. تتجزأ.. وليس من موحد سوى الذاكرة المضطربة.

لكن شيئاً مختلفاً يحدث في أعماقك: زمنك الداخلي يتكسر على نبض وعيك.

* * *

وتقول: ليس للأمواج بداية أو نهاية. إنها في دفق مستمر. ليس لرذاذها المنعش حد. فهي في انتشار لا ينتهي.

هذي هي الهجرة الأفقية. اتصال وانفصال بين الحدود والحدود.. أما الهجرة العمودية الجوانية لا الجوية، فهي رحيل في الداخل. ناظمها منطق لم يبلغه إدراكك قط..

* * *

مسقط رأسي

أستيقظ. أفتح عيني. يرتطم الرحيل العمودي بالرحيل الأفقي، على انقاضهما ينتثر وعيي. يدور بصري في السقف ينزلق على الجدران يتلمس هوية المكان. لكن حواسي المشوشة تعجز عن تحديد موقعي. أمكنة عالم المنام وأزمنة الكوابيس والأحلام تقتحم عالم اليقظة، تنهب الحدود الدقيقة وتخلط الماضي بالحاضر. تمزج بين مدن عرفت ومدن لم تطأها قدمي. ذاكرتي مخضوضة. وبقايا هلوسة تتخطف مخيلتي كجنية خارقة وتحلق بها عبر عوالم خرافية.

تتداخل عوالم المنام بعوالم الهلوسة بعالم اليقظة. وينبت مليون منطق غريب عصي ويتكاثرون. هممت برفع رأسي. ألفيته ثقيلاً مثل كابوس، صاخباً مثل سوق خضرة.

أجهد في تحديد مكاني. ذاكرتي تزود عيني بالصور، الأماكن تنهال أمام بصري: غرف فنادق رطبة. غرف بيوت فخمة. زنازن. مراحيض.. لا. لا أقلب غرفاً أخرى: مواخير. حانات. عربات قطارات. ملاجىء. غرف مصحات عقلية، أقبية تحت الأرض. غرف نومي في بيروت. غرف نومي في عاصمة الحلم. غرفة نومي في مسقط. يقع بصري على ساعة الجدار المستديرة المعطبة. أدركت لتوي أنني في مسقط رأسي. وسرعان ما لاح لي الضجر مخلوقاً مشوهاً.

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

غير أنني حمدت الله. كان يمكن أن أعثر على نفسي منبطحاً وسط شارع مزدحم وقد تحلق الناس حولي. حدث لي ذلك مرات. متى؟ أمد يدي ببلادة وأتناول علبة السجائر عن المنضدة المجاورة للفراش دون أن أحرك رأسي. أحاول استيعاب ما حدث وما يحدث وما سيحدث. عبثاً.

أشعل سيجارة، أحدق إلى السقف، أنفث دخان سيجارتي مأخوذاً ويذهب بالي المرضوض لاسترجاع الأماكن التي اندمجت ببعضها ما بين كوابيس المنام وهلوسة الوهم، والأزمنة التي اختلطت إيقاعاتها وتداخلت لحظاتها واندمجت مناطقها بلا منطق يستوعب، والوجوه التي تقمصت أصوات آخرين. بلا جدوى. يذهب بالي فتتخطفه، كلمات وأصوات تلح على أذني غير أني لا أجد لها مصدراً. وأكاد أرى وجوهاً تطرق عيني وذاكرتي ولكني لا أتبين ملامحها.

النوم سلطان. سلطان جبار طاغ، يحلل الأماكن والأزمنة والوجوه والأصوات ويعيد تركيبها كيف ما شاء. «الماء من لون الاناء» والماء زمن والاناء مكان، فماذا لو تكسر الاناء. أي زمن يتسرب وينزف؟. انتفضت وساءلت نفسي: من الذي قال ذلك وأين؟ ولو انكسر الاناء.. أي زمن يُبقت؟ ولمت رأسي بأناة وحذر. فاذا صخب عنيف يدق في دماغي دقاً. استندت على الفراش بمرفقي، فاذا بي أسبح في مستنقع من العرق.

تعنُّ لي مغادرة عوالم المخدرات والمنامات المدمرة لأنهض إلى عالم اليقظة الصرف، لكن العلائق حميمة متداخلة تتشبث، والمنطق مشظى، وبناء عليه ـ بناء على ماذا؟ ـ نهض أمامي الضجر وحشاً خرافياً. ترى أين رأيته من قبل؟ في عوالم الهلوسة أم عوالم المنام؟

أخذت رأسي المحموم بين يدي وتطاولت. الجدار الكابي والرطوبة. علبة السجائر. حذائي المقلوب على وجهه. ذبابة تحوم. ساعة الجدار المعطبة. والعرق الجهنمي، وجسدي: بحيرة عرق لزج يسبح فيه ذباب الملل ويطن. رنوت إلى الفضاء عبر النافذة. الوقت: إما الضحى أو المساء. فضاء رمادي كئيب خانق مضرج بالرصاص. لا فارق في هذه المدينة التي سقط فيها رأسي بين الضحى والمساء. وبيروت تنبثق فجأة من رطوبة الجدار، امرأة كاملة الأضداد معذبة. تعديني بقلقها، تعلمني إخراج الكلمات البذيئة إلى العلن. القول جهراً في المقاهي. اطلاق اللسان في المقامات العليا بلا حسيب ولا رقيب. ولا خوف. حين عدت ومشيت في المقبرة

الكبيرة وشتمت، همس مثقال في أذني مستنكراً:

ـ هش.. اتحسب نفسك في بيروت؟

وما كنت أحسب. كنت أرحل أفقياً حاملاً معي زمن بيروت المضطرب القلق. والبواب قال «هش» والبقال قال «هش» أما سائق التكسي فقال «هس» وكلهم يقول: اصمت أنت الآن «هنا» لا «هناك» ومع الأيام و«الهش» أدركت أنني غادرت بيروت. فصححت ساعتي الداخلية، والتزمت الصمت. والضجر. أية بحار وسماوات تفصل بين زمني ومنطقي «هناك» و«هنا»؟

عليك أن تتكيف مع المكان الجديد. قيل لي. وقلت انتقلت إلى اناء آخر، والزمن فيه ماء يتلون بلونه. وكان لونه رمادياً محايداً وكان الماء من لونه فلم أبصره. قلت لا لون للماء، اذن الماء ناضب، النتيجة: المكان بلا لون. فاذا كان الماء من لون الاناء وإذا كان الماء هنا لا يدفق. فإن الاناء غير موجود. لكن الاناء موجود فأنا أمشي فيه، وأسبح على رماله الملتهبة. بناء على هذه المقدمات قادني منطق غريب مبهم إلى النتائج التالية: اما أن يكون الاناء مكسوراً، أو أنه عمودي وبالتالي الماء آسن راكد. أي أنه غير مقلوب مثل بيروت وهكذا فان الماء فيه لا علاقة لها بماء هرقليطس. وهذا يعني أن بيروت نهر لا ينزل المرء فيه مرتين فثمة مياه جديدة تتدفق فيه باستمرار ـ اناء ذو فوهتين ـ بينما الاناء هنا مسدود من كل الجهات إلا الفوهة وبالتالي الماء هنا سراب والإناء.

حاصله، حاصله.. لن اذهب بعيداً في التجريد فقد آليت على نفسي كتابة أوراق واقعية. أتخلص من براثن التجريد وأعود إلى مادية الواقعية. ولكن أي واقعية تصف واقعاً محكوماً بقوانين الهلوسة وقواعد الكوابيس؟ المهم.. المهم: أشجار السرو تبدو من النافذة يابسة مغبرة. تعب الراحة يتعبني. الجدار أمامي داكن. بدا محدوداً بشكل مميز، ذكرني بجدران ڤان كوخ. السقف يهبط على صدري. الأرض تحتي ترتفع. الجدران الأربعة تحاصرني وتتقدم نحوي بحذر وحقد: مؤامرة لسحقي كذبابة. اختنق. الغرفة تطبق علي. اتضرج بالعرق. ذبابة تحوم وتطن ثم تحط على أنفي، لا أطردها. العرق يتصبب من جبيني ويندلع في عيني، لا أجففه. يوم آخر لا يحمل جديداً، يتقمص الأمس وأول من أمس و.و.و. الزمان هنا نرجسي والمكان مرايا، اللحظة تكرر نفسها طوال أسبوع، شهر، سنة. كأنني أسكن بطن سفينة الصحراء، أجتر الوهلة بلا توقف. نسخة جديدة عن الأمس تبدأ في المساء أو الظهر

أو الضحى. يوم مديد مثل قبر عميق يفتح فاه ينتظر جثتي. وأنا ميت لكني لا أهبط إلى القبر. الذبابة تئن ولم تأتِ كفى اليوم. والضجر يكمن لي وراء الوهلة المقبلة يتواطأ والحر ضدي. الصمت شامل. الحركة في القرية الكبرى منقطعة. اشجاريابسة تنتظر الريح بثبات. الريح لا تأتي. وكفى لم تأت.

وولجت إلى مدينة الحلم. سألت شاباً يندفع بحماسة وطيش إن كانت المدينة مدينة الفجر المتصل. فأومأ وهب يطارد كأنه الريح الجامحة. وشبت النشوة في صدري. قلت ها هي مدينة حلمي. حيث حماسة الشباب لا رصانة الشيوخ. حيث بُشرت بعصر بطولة تبدد عصور الكهولة. غادرت قفار السدى ومتاهات الاسئلة حيث عمري يضرب في الهباء، ودلفت إلى مدينة الحلم ونشوة النصر ملمس على اصابعي وشفتي ووثبت في الفرح. أهل المدينة الفضلى في مقتبل العمر. ونبض الصبا يشع من المسام والعيون والوجوه والكلمات. الناس يتدافعون في الشوارع وعيناي تتأملان المدينة والدموع تجول فيهما. أوقف المارة أسألهم عن عناوين ضاعت، لكنهم مندفعون اندفاعة الشباب. لا يقفون ولا يلتقطون الأنفاس. وفجأة لمحت مريم تتكوم على رصيف مقفر. هتفت أسألها ما الذي جاء بها لكن صوتي اختفى في الزحام. ورفعت رأسها وقالت لماذا سلمت ابن خالي إلى جماعتك يا شاهد؟ لم أسمع صوتها، لكن عينيها بليغتان. ما قلت أن الرائد استدعاني وأنبأني أنه مضطر إلى زجها في عتمة الزنازن إن لم يستسلم محجوب. وقلت إني دفعت الثمن ندماً باهظاً ولا أزال. وقلت إنني أقرأ المادية الجدلية. فقال لا داعي للاعتذار. عيناها تشعان بضحكة رقيقة وشفتاها ترتعشان في الهول. ثم قامت وانحنت ورمت بنفسها في بحار من الظلمات فرميت بنفسي وراءها. بين موجة تطارد أخرى انثنى جسدها ثم بزغ وجهها في حضن شمس غاربة. صاحت أنت تسبح مع التيار. فرفعت قصائد مایاكوفسكي كأنما في واقعة صفين. كررت:

ـ لا داعي للاعتذار، ما فات مات.

ومال الموج فوقها. لم تنحن. وانحنيت. تطايرت شظاياي مع الرذاذ وانتثرت في الفضاء ثم تداعيت على الشاطىء. مريم تسبح ضد التيار. والبحر صاخب عات وهي لا تنحني لعصف الموج وأنا أنسل إلى الساقية. هتفت لها ملوحاً ذراعي إلا أن صوتي ارتطم بالهباء. دعوتها إلى الساقية. تطاول رأسها على صهوة موجة وقالت إن الساقية ساكنة. وسألت كيف تسكن في البسكينة. والصخب يسكنك؟ وكنت مجرداً من الجواب، عارٍ بلا ردود. وارتفعت موجة عملاقة ابتلعت مريم في عتمتها. غادرت

الساقية الساكنة وقذفت نفسي في هذا الشاسع وهبطت فاذا بي أمام مدينة في الأعماق. وفتحت عيني فاذا بيروت وإذا مثقال قد جاءها من بلدي. عانقته وأبديت له دهشتي وقلت إنني لا بد أحلم. فلم يفهم. وقال أرني بيروت. وكان بدوياً وبيروت ليست سلة تين. وهيأ نفسه حين أنبأته بأني سأصطحبه إلى بيروت الحقيقية. بريق عينيه راح إلى كازينو لبنان وجيوب سرواله وسترته مقفرة. وتضرج بالعطر يتهيأ لبيروت الحقيقية وسأل عن الغانيات. أخذته من يده ونزلنا في الوحل وانبثقنا في برج البراجنة حيث ينهض المقاتلون في الليل وقلت هذي بيروت الحقيقية. وجهه يصاغ في الخيبة.. لكنه سرعان ما ينسجم. وقال ما هكذا سمعت عن بيروت. فقلت اسمع اذن منذ الآن. ولم يسمعني خذلني صوتي كما جسدي مع كفى. سألت كفى ما الفارق بين فراش بيروت وفراش مسقط رأسك. كلاهما «سليب كومفورت». لماذا ينصرك جسدك في بيروت ويخذلك هنا. وتقلبت على حطامي وانتشرت أصابعها في شعري المنثور فوق أنقاض ذاكرتي واطلال مخيلتي. وقلت الإناء تغير. فتغير الماء. لكن أذنها معرضة لا تسمع ولسانها يلعق أذني الصماء. الماء هناك يدفق. إنك لا تنزلين شوارع بيروت مرتين فهناك حركة جديدة تجري فيها باستمرار.. تنبع تدفق وتصب. أنهار النهار تنهار. وهنا حيث البحر ميت أنهار أنا والبحر ميت والمياه راكدة والإناء مقفر.. لا نبع ولا مصب فكيف اذن؟

وقلت انني دلفت إلى المدينة الفضلى ثم تهت ثم عدت. فنهض الرائد أمام عيني على نحو مفاجىء. وخطف الفرح قلبي. فعانقته بحرارة. دفعني بامتعاض وقال إن الشيوخ في مدينة الحلم مكانهم المشانق. ربت على كتفه متضاحكاً وأنبأته أنه شخص طريف. ولما رمقني بنظرة معتمة. قلت دهشاً: ألم تعرفني؟ أنا الشاهد رفيقك وصديقك و. لست شيخاً. أومأ إلى مرافقه الخاص. فانقض العملاق علي وصحت:

ـ سوء تفاهم. سوء تفاهم. ألم تتذكرني يا رائد يا عالم ياهوه.

وراح النقيب يقهقه. ثم ضرب كفه بكف الرائد. جحظت عيناي تكذب بصري وقلت لا بد أنني في حلم ولست في علم. وصحت بلا صوت:

ـ لكن النقيب ضابط مباحث في الدولة الشقيقة المعادية.

هز الرائد كتفيه وقلب شفته واهتز كرش النقيب ضحكاً. وقال الرائد بفتور:

ـ أترى أنك لا تزال بنظرتك الحولاء تبصر أولويات الثورة ولا ترى أولويات الدولة. النقيب بات صاحبي وهذه العلاقة من أولويات الدولة. اذهب واعتذر له أعفو عنك.

استنكرت، صحت، ضربت الهواء بقبضتي. قلت إنني قرأت التراجيديا الاغريقية من ألفها إلى يائها. لكنني لم أجد مصيراً مفجعاً مثل مصيري. أعتذر إلى من زجني في السجن عصوراً وعصوراً بسبب إيماني بك لتغفر لي أنت؟ أومأ الرائد برأسه وقرع كأسه بكأس النقيب ثم وقعا اتفاقية أمن مشترك. تقضي بملاحقة الخوارج. وكنت أنا الخوارج.

مثقال قرأ روزا لاكسمبورغ ثلاث مرات. قلت متهكماً:

ـ لأنها امرأة.

أي حلم مرعب. وبناء على هذه المقدمات استنتجت أن حلمي كابوس ثقيل.

انزلق من الفراش مضرجاً بالعرق. أسعى إلى المطبخ. أحك رأسي، أفتح الثلاجة، أنسى لماذا أتيت المطبخ وفتحت الثلاجة. أطوف بغرف البيت والصالة والحمام حاملاً الكابوس الثقيل على رموش عيني. أفتح صنبور المياه، أحدق إلى الماء المنسكب كخيط غليظ. ولا أغتسل. لا، ولا أجفف العرق، ولا أطرد الذبابة. أعود أدراجي إلى المطبخ. أولاد الحارة يلعبون تحت نافذة المطبخ. أصواتهم تدق في رأسي دقاً. الحر خانق. أشرب الماء من فم الزجاجة. لفم الزجاجة رائحة مقززة. لو كانت مريم هنا لضحكت وأشارت علي بغسل فم الزجاجة بالكولينوس. ويسطع وجه مريم بغتة أمام عيني، كان غامضاً غير بَيّن. أدركت من فوري أنني رأيتها في المنام. وجهدت كالعادة في استحضار فتات الحلم. وإعادة صياغته، ولكن بلا جدوى. سعيت إلى غرفة نومي بخطوات ثقيلة بليدة. فتحت الدولاب واستخرجت زجاجة عطرها المفضل. مسحتها كما علاء الدين ومصباحه وأغمضت عيني وأنا اتنشق. لكنها عصت ذاكرتي. لماذا تقبل في المنام وتتأبى في الصحو؟ في عالم المنام تتخطفنا وجوه نحب أو نبغض وتقتحم علينا عيوننا دون إرادة منا. نفرح ثم نتحسر أمام الوجوه التي نحب ونرمي رؤية الوجوه التي نبغض بالكابوس. عالم المنام: حياة أخرى.

سألت رغبة في السؤال: لماذا استيقظت؟ ماذا أفعل بنفسي الآن؟ هل أعود إلى المنام علّ أحداثاً جديدة ممتعة تقع في عالمه؟ يقع بصري منهكاً على ساعة الجدار المدورة المعطبة. متى أنا من الوقت؟ يعن لي الاتصال بكفى فاستطلع عن الساعة واليوم

والشهر، لأسألها متى نحن من السنة. جسدي يكاد يتساقط تحت ضغط الراحة والمخدرات. العرق يجلل وجهي ولا أجففه والذبابة تحوم وتطن ثم تحط على أنفي ولا أطردها. وأتنشق عطر مريم مرة أخرى. فاذا بوجه الغزاوي يطل واضحاً. ولكن ما العلاقة وأين المنطق. وكانت علاقة إعادة بناء الحلم ومنطق عوالم المنام. نعم رأيته يلعب بالماء. لا، كان يلعب بدمه. ثم ينفتل ويلعب بالنار وأنا مذهول ومثقال يحرث البحر وأنا أبلطه. وأفكر أن حرث البحر فعل اختيار حر، أما تبليطه فردة فعل يائسة إذ قال لي الرائد إن أعجبتك الأمور هنا، فأهلاً وسهلاً، وإلا فاذهب وبلط البحر. ورحت أبلط وأبلط وأشرب وأشرب حتى بت أنا البحر قال مثقال متضاحكاً:

ـ أنت البحر الميت.

وراح يحرثني. دهمتني نوبة غضب عارمة. إذ لم أر سبباً للضحك. «تضحك بلا أسنان» كانت جدتي تقول لي. وكانت هي بلا أسنان. ولم أفهم ولما أزل. لكن غضبي العاصف احتقن في أعماقي ولم يصخب فالبحر الميت ميت.. لا يعلو صدره وينخفض، لا يتنفس، لا ينفخ. وانفجرت كمداً بصمت. لم يحدث هذا بالضبط ولكني أعيد بناء الحلم إعادة مزيفة. أسد ثغرات ذاكرتي باسمنت المخيلة. مثقال يلح على إقامة نقابة لعمال المصنع المجاور للبلدة. أطلقت ضحكة هستيرية صاخبة. نقابة لا نصاف البدو، إنصاف الفلاحين الذين يعملون في مصنع؟ والمصنع مقفل بسبب الثأر. قتل عامل بدوي عاملاً بدوياً آخر وقامت الدنيا وأقفل المصنع. المصنع تحول ساحة حروب للثأر. لماذا لا تنشىء مجلساً عشائرياً؟ واطلقت ضحكة تجلجل في الفضاء. يرد مثقال بانقباض:

ـ هكذا يسخر مني النقيب.

كنت أنهض في الفضاء حاملاً وجه النقيب الذي لم يستجوبني في البداية حسب اجتهاد مثقال «لأنه يستضرتك» وضحك مثقال. أفهمني أن الأمر مضحك وأنه لا يفهم لماذا أصر على ادعاء إنتماء كاذب إلى تنظيم غير موجود. تحب جلد الذات؟ سأل. تدفع ثمناً مجانياً باهظاً!

الضجر والفراغ ومسقط رأسي وأنا. ومريم تعاتبني في بيروت:

ـ دائماً. مشغول، مشغول. عندي اجتماع في صبرا. سأمر بمكتبة الجامعة للعودة إلى أحد أعداد مجلة «شعر». و..

وكنت أطارد ومثقال في شوارع بيروت اللاهثة بين «الوست هول» في الجامعة الأمريكية ومكتب الاعلام الجماهيري في صبرا. ونلهث. مثقال توقف عن التدخين في بيروت. مثقال دهشة تمشي على قدمين في بيروت. مثقال يتحسس الكتب بشوق عارم كأنه يتحسس جسد امرأة أحبها حتى الجنون وطارد وراءها منذ مولده بلا جدوى. ثم عثر عليها فجأة. بيروت رئتان واكسجين وكنا نعاني من ضيق مزمن في التنفس. يهتف مثقال بجذل صبياني: انظر.. كتاب عن ماركسية القرن العشرين. انظر.. الأعمال الكاملة لـ. انظر مجلدات الـ. وراح يلتهم الصفحات، كأنما يرغب في التعويض هذا اليوم بالذات عن عشرين سنة ذهبت في سدى بحر ميت وهباء صحراء لا ينبت فيها عشب ولا حلم. وكان يتعاطى الحشيشة ويقتل الوقت والوقت يقتله في البلدة الصحراوية المترامية وراء خطوط الزمن.. الساطعة في غبار السراب.

وحين حبست دخان السفر الجهنمي في صدري وخطفتني نشوة مبهمة ورحت أنطق بما قرأت مرة وغمغمت: تتواثب أمامي الأزمنة والعصافير[1] ورأيت اللحظات صيصان تكرج حولي، أمامي ورائي بين يدي ثم تحولت إلى آلاف الحبوب تتدحرج وتتدحرج وأنا أغرق في خضمها.

على كورنيش المنارة نتمشى أنا ومريم البيروتي. بيروت تلهث. والشوارع تنبع وتدفق ثم تصب وتدفق. دعوتها لمصاحبتي إلى مسقط رأسي. حولت وجهها الجميل كخطيئة مقدسة. يومض دمع في عينيها ويختفي. أعرف أني عاجز عن مس جسدها المواري حقوله تحت القميص فالرائد حول حقول الزنبق والبرتقال فيه إلى حقل ألغام واسع. وأنا صاحب الرائد. وأنا الذي سلم ابن خالها محجوب عبد الساتر إلى الرائد. وهي تركت جسدها في زنزانة في الوطن المحتل وزنزانة في مدينة الحلم. وتتأبى الحديث عن هول الزنزانتين. الذي فات مات. يعجبها أن تقول. لكنه ما مات ولا فات ولو فات ومات لتحدثت وشالت جبال الندم عن يدي. تركت جسدها في الزنزانتين كما لو قميص مدجج بالسفلس.

أخذت الريح شعرها فرقص كألسنة نار تعربد في غابة سوداء موحشة. قالت تتضاحك:

ـ وماذا لو سقط قلبك في مسقط رأسك فخلعت علي الوحشة. وانسللت؟

---

(١) سليم بركات (المجموعات الخمس)

يطلع وجه محجوب عبد الساتر من كل وجه مضرجاً بدمائه. قلت جاداً ملحاً:

- نتظاهر هناك. نرمي رجال الشرطة بالحجارة.

أشاحت. قالت إنها لا تجيد إلا القتال. لم تخلق للاضرابات والمظاهرات وتوزيع المناشير والاجتماعات السرية في الأقبية. لا تطيق السجون. وانتهبت الفرصة. سألتها للمرة الألف:

- قاسيت كثيراً في عسقلان؟

أظلم وجهها ولم تنبس. قالت بعد صمت تنثني عن السؤال:

- أحب بيروت.

وتنشقت الهواء الطروب ملء رئتيها. نرفزت يائساً:

- السجن أفضل من الموت.

غمغمت باقتضاب وهي تملأ رئتيها مرة أخرى:

- أفضل الموت السريع على البطيء المتواصل.

الشمس تدوس البحر. واستني بنظرة موحشة. كانت نائية كالأفق. عصية كالمستحيل، كانجاز الحلم كاملاً بلا نقص ولا تشويه ولا تدمير.

كذبت. في مسقط رأسي لم أتظاهر ولم أعقد اجتماعات سرية. لكنني تظاهرت بأنني حي. ومارست عادات سرية جهنمية.

في مدينة الحلم بدأت اعتاد على محجوب عبد الساتر. فزعت مريم تستجير بي. قالت جماعتك والرائد على رأسهم يبحثون عن محجوب.. أهدروا دمه. وافقت على توريته في بيتي بهزة تلقائية من رأسي. وكنا حذرين. أنا لفمه وهو لفمي. أرمقه ببصري وأتأمله كأنما أتطلع إلى كائن عجيب، يرفع رأسه فأردّ بصري عنه مسرعاً. وأفكر: هؤلاء هم الشعوبيون الانفصاليون الـ..

وهو يسارقني النظر مسارقة ويفكر: هؤلاء هم الفاشست. يرى في وجهي - اعترف لي مداعباً فيما بعد - وجه موسيليني. وبدأنا نلعب الورق. ونختلف ونتنازع:

- دورك في غسل الصحون اليوم.

ـ دورك أنت. أنا أكنس الغرف.

صرفت الخادمة. قد تكون من المباحث.

ـ كيف تتهجم على أفكارنا وأنت لم تقرأ كلمة واحدة منها؟

ـ ليس لديكم فكر حتى أقرأه. أما نحن فتراث فكري عالمي لم تتطلع على صفحة منه. تقرأ الصحف الصفراء وتنقل كلامها كالببغاء.

ـ أنا ببغاء؟ والله لأسلمنك إلى الرائد.

وحدثني مرة عن زوجته وابنه. وكنا نحتسي النبيذ والليل موحش. عرفت أن اسم ابنه عمر. قلت اسم والدي عمر. وأحببته حين لمحت دمعاً في عينيه. رأيت الانسان فيه.

وقال الرائد إن لم يسلم محجوب نفسه اعتقلت مريم للمرة الثانية. نفخ مغيظاً ثم أضاف كالمعتذر:

ـ سأضطر إلى زجها في السجن اضطراراً.

وسلمته. فسجن ثم غاب. . وأنا طردت بعد اعتقال وجيز. رحب النقيب فيَّ «في مسقط رأسك ووطنك معززاً مكرماً». وكنت أعتقد أنه يرجمني بالشماتة. وشكرته.

أتضرج بالعرق. والذبابة تئن، والضجر، أحدق إلى الهاتف بدا لي نائياً بعيداً. يربض هناك كسلحفاة خبيثة مكتفية بذاتها. مددت يداً واهنة غريبة عني. لكن الهاتف ينأى وينظر ببلادة. إذا أردت الوصول إليه ينبغي على ساقي اليمنى أن تنزلق من تحتي إلى الأرض فتجاور اليسرى. ثم على يدي أن تستند على مسند الكنبة بقوة فينهض جسدي الواهن المفكك ثم تزحف قدماي حاملة ساقيَّ المخلخلتين فأدنو من السلحفاة الثقيلة وأمد ذراعي أفرد أصابعي المرتعشة وأتناول السماعة ويمتد إصبع محدودب آخر ليدير القرص، بينما يقف رأسي مترنحاً على عنقي المخنوق بين كتفين متداعيين يحملهما صدر نهشه النيكوتين من داخل وكل هذه الأعضاء المهلهلة المتساقطة تحملها ساقان متخاذلتان. سأكون مثل مزهرية صغيرة زرعت فيها شجرة صنوبر فانقلبت هي وحملها الثقيل. وأدركت أن بلوغ الهاتف يحتاج إلى سلسلة حركات

يحكمها مركز عصبي واحد قوي.. وقواي مشردة مشتتة كلاجئين يفزعون في الربع الخالي إلى بحار حلوة الماء.

أسبح في العرق.. وبعد زحف لا نهائي، بلغت الهاتف. ترامى صوت كفى واهناً نائياً. سألتها عن الساعة واليوم. قالت إنها نصف نائمة ولا تعرف. سألتني إن كنت تعاطيت المخدرات أمس. رفعت حاجبي دون أن أنبس. ولم تسمع صمتي ثم سقطت السماعة من يدي. عدت إلى الكنبة لاهثاً، أدرت المروحة الكهربائية فازت وأنّت ثم دارت وتطاير غبارها. انحط جسدي على الكنبة. كعادتي مضيت إلى الماضي.. عيناي تنبشان الذاكرة. إذا غاب الفعل حضر التأمل. قلت لنفسي. أهذا ما فعله بروست في بحثه عن الزمن الضائع؟.. لا

اتخذنا مجلسينا في «دبيبو». الروشة تمتطي صهوة البحر وتطارد نحو الأفق. شعر مريم يهب في الهواء ويداعب الريح. ويذهب إلى ذراعيها ثم إلى كتفها ويعود. حكيت لها عن مسقط رأسي. عن مثقال. أضاءت أساريرها حين علقت:

ـ أنت تعيش الماضي.

قلت سارحاً:

ـ سألني مثقال مرة، وكنا نقتعد باحة دارهم المتربة، إن كان ثمة أمل في الأفق. فأجبته أن الأفق خط وهمي كلما دنوت منه ابتعد عنك.

أشرق وجهها حين ابتسمت. سألت:

ـ والآن؟

ـ سنرسم أفقنا الذي يعانقنا كلما اقتربنا.

توهج وجهها وهي تقول مبتسمة:

ـ انت تعيش المستقبل.

ـ وانت؟

كركرت ضحكتها وتدحرجت على صدرها:

ـ الحاضر.

شعشعة الشمس تدخل عيني فأكشر وأشيح. قالت انها زارت العقبة. أحب

البحر والنار ولا أحب الجماد. البتراء لم تستثرني رغم الآثار.. لا أحب البكاء على الاطلال.

ولم أسألها عن جرش. سألتها عيناي. سألت:

ـ الأحراش أم الاطلال؟

الريح تنط كصبية صغيرة، تداعب خصلاتها تأخذها هنا وهناك. الشمس تلوذ بعينيها. لكنها لا تكشر. تغمض عينيها تخبىء الشمس.

الشوارع تتدفق، البحر لا يتوقف ليلتقط أنفاسه. تهتاج الأمواج حين تعانقها نظرة مريم، تفزع طائشة لتنبهها. لكنها تجلس حدي كالجلال، منزهة عن غرائز البحر الجامحة. وبيروت صبية طائشة يرقص شعرها على إيقاع انتشار الرذاذ.

● ينهمر شعر سوزي على صدري، تنشب أظافرها في ظهري، يستشيط دمي وأنقلب وتنقلب. واللهاث. وحكت عن الرائد. قالت إنه مقزز. ومرة رأيتها في المنام ومرة استنبتتها المخدرات من رطوبة الجدار. لجأت إلي مسرعة كأنما تفزع إلى ملجأ تلوذ به من غارة ضارية. دفنت رأسها في صدري وراحت تنشج. مسدت على شعرها بيدي. قالت بصوت متهدج:

ـ ما عدت أطيق صاحبك الرائد هذا.

قلت مواسياً:

ـ إنه زوجك. أكثر مما هو صاحبي.

قالت وهي تشيح بوجهها تمسح دموعها:

ـ يتوسلني أن أتحدث إليه بالفرنسية وهو يمارس الحب معي.. فما أكاد أتفوه بكلمتين، حتى يبلغ ذروة نشوته. مجنون متخلف.. يمضغ الطعام مرسلاً أصواتاً مقززة مرتفعة.

التفتت إلي فلمحت امتقاع وجهي. سألت مترددة:

ـ أتخافه؟

اعترتني نفضة فارتعشت أصابعي. دارت عيناي حذرة في جدران البيت، تحت المقاعد، فوق المناضد. أخشى أن يكون الرائد قد زرع آلات تصوير وأجهزة إنصات

سرية في جدران البيت. سألت سوزي بصوت مضطرب:

ـ عم تبحث؟

ـ عن أجهزة إنصات أو تصوير سرية.

منقبضاً كنت.

نقر المطر على النافذة.

ـ محال. أنت من جماعته.

ـ إنه يتجسس على نفسه. مهووس. الم يكتشف المواطن الأول ذاته أن الرائد قد زرع بيته زرعاً بمثل هذه الأجهزة؟

وقفت مشدوهة، ثم زمت شفتيها وسألت:

ـ ألا تزال تمسك في نفسك عتباً علي لأنني خطفت الرائد من بين يدي أم مصطفى كما تزعم؟

وبحثت في سلة المهملات وتحت الفراش.. عبثاً.

تناولت الأقراص الجهنمية المخدرة. منفضة السجائر نائية بعيدة. أصوات وشوشة.. يتهامسون ويطلقون ألسنتهم فيَّ. أين يختفون؟ تلفت..

إنه النذل الذي خان العهد وسلم محجوب الذي خرجت مريم تلتمس له الأمن، فأجاره زيفاً حين أدركته الشدة. ونصب له الكمائن.

لا. لا.

إنه الرجل العاجز في الفراش. بل هو رفيق الغزاوي في القتال ومثقال في الدهشة.

إنه العاطل عن العمل.

إنه الذي تخونه كفى مع النقيب الذي يستجوبه.

إنه الذي يدعي عضوية كاذبة في الحركة.

إنه المفصول من الحركة.

إنه الذي يركض وراء الناس ليلاً كالمجنون منفوش الشعر ملهوجاً ويصرخ: لم

أقتل فرج الله.

إنه السكير مدمن المخدرات الصعلوك الذي يعيش من تركة أمه في المدينة التي سقط فيها رأسه.

إنه المناضل السابق في مسقط رأسه. إنه عاشق بيروت. إنه قاتل مريم وقتيلها. إنه الذي ضاجع سوزي انتقاماً من رفيقه الرائد.

اعترفت مريم أن الغزاوي تقدم بطلب يدها. ضحكت بعصبية مدارياً اضطرابي المفاجىء. قلت أتكلف المداعبة:

ـ وماذا أعطيته. وجهاً مشيحاً؟

شالت برأسها سلباً وغمغمت بلهجة جادة:

ـ اتفقنا على الزواج. بعد أن بحت له بتفاصيل علاقتنا.

ذهلت. كيف وافق؟

نقف خلف متراس. في الشياح أو الرشيدية أو الشونة.. لا فارق. لا نقف وراء متراس في الرشيدية. البحر أمامنا والعدو أمامنا. والليل. ذكرني أن أشتري مصفاة للسجائر. أتسمع صوت الموج؟ يسأل الغزاوي. ينفجر أبو الموت ضاحكاً. ثم يهتز جسده وهو يكركر. تشتري بز سيجارة لتصون حياتك؟ يسأل أبو الموت ويمسح على شاربه. أصغي إلى هدير الموج ولا أراه. الموج يعتمر طاقية الإخفاء. هناك في البحر الميت. لا تسمع الموج ولا تراه. لماذا تريد أن تشتري بز سيجارة؟ يسأل أبو الموت. لأخفف نسبة النيكوتين. أنا لا أسمع صوت الموج في البحر الميت. لا موج في البحر الميت. النيكوتين يسبب الموت البطيء والبحر الميت أيضاً. الموج هذا نبض قلب البحر المتوسط. البحر الميت. ميت، لا نبض في قلبه. يمد أبو الموت رأسه ويصوب بصره ويصعده في العتمة. يكركر ضاحكاً مرة أخرى ثم يطلق ضحكته المميزة. ضحكة حشاش سابق.

اسمع الموج جيداً. حول قال. وقال تخشى النيكوتين ولا تخشى القصف؟ حريص على حياتك.. أتخاف الموت؟ سأل. لا أراه. الموج. تارغارد.. يسمون بز السيجارة. مصفاة. لا أحب البحر الميت. البحر الأبيض المتطرف ينبض. يلهث قال الغزاوي. يتنفس قال أبو الموت. كائن حي قلت. القذائف تنهال على صور.

وأنت تفكر بمصفاة السجائر. القذائف تدنو منا. بز سيجارة. ها! أنا أيضاً أريد قال أبو الموت. أبو الموت وتخاف الموت. لماذا لا تسمي نفسك أبو الحياة؟ تقاتل من أجلها! بز السيجارة يخفف من احتمال الموت بالسرطان. البحر الميت ميت، قلت. ما كان يستخدم بز السيجارة. فمات. قال الغزاوي ان القذائف تتساقط قرب قاعدة قريبة. سوف تتساقط علينا بعد قليل، تنبأت. لماذا لا تشتري تارغارد أنت أيضاً. النيكوتين يسبب السرطان. بز السيجارة أفضل أم نهد امرأة فتي سأل أبو الموت بفضول. الموج يجن.. يطيش، تتدارك خفقاته. القذائف تنهال علينا. بدأ القصف يطالنا. أهي الزوارق أم الطائرات أم المدفعية؟ الثلاثة معاً.. جاء الجواب. انبطحنا. ينبغي أن تشتري مصفاة للسجائر قلت لنفسي. لعلي أضطر إلى الركض يوماً ما. بز السيجارة يحد من تعب القلب. قلب البحر والأرض يخفق خفقاً عنيفاً. لا قلب للبحر الميت. ثلاثة قذائف إلى اليمين قال أبو الموت. شتم أبو الموت الموت. أبو الموت على أمه قال. كركر الغزاوي ضاحكاً. ربما من الخوف. الرمل على خدي. إزاء الموت يعترف المرء أحياناً باسرار لم يحلم بكشفها أبداً. ويندم بعد أن يعبره الموت وينثني عنه. يتجنب الذين اعترف أمامهم ويحقد عليهم. احترس.. قلت لنفسي وأنا أسمع الموت وأراه. البحر الميت أطرش. قالت أمي ان السابح في البحر الميت لا يغرق. سبحت فيه، أمي لا تكذب.. لكنني غرقت. انتشلوني وأنا في الرمق الأخير. أشاهد البحر. قال الغزاوي. القذائف ترفع عنه الإزار الأسود المترامي وراء مطارح البصر. نسمع ونشاهد. ثلاثة قذائف متوالية إلى اليسار. نفكر بتخفيف النيكوتين بينما تنهال علينا القذائف. جحيم من الانفجارات. قد ينفجر القلب إن لم تستخدم بز سيجارة. سينفجر شيء آخر إن لم استخدم بز امرأة قال أبو الموت. كركر الغزاوي ضاحكاً في عبه. لم أضحك. كنت خائفاً من القذائف. انفجارات قريبة. رمال وأتربة ورذاذ وشظايا زجاج تنتثر على رؤوسنا المدفونة في الرمال. لو تستخدم الفانتوم كواتم صوت. الصوت هو الذي يخيف. سأشتري بز سيجارة.

رفعت رأسي بحذر. حين ميزت قدمي أبي الموت الحافيتين قرب رأسي أدركت أنني كنت اتنشق طوال الوقت رائحة جوربيه.

● أصر على جولة أخرى. نلهث ونغرق في العرق. ينزلق جسد كفى على جسدي. العجز يتآكلني. ينهش الرغبة فيَّ. الكوابيس تظهر ثم تختفي كالومض. تعتصرني. قلت لها إنني رأيتها في المنام وهي تضاجع النقيب. سألتني إن كنت أعرف لماذا سمي البحر الأسود أسود. شلت برأسي سلباً. من بين خصلات شعرها المعتمة

ينبثق وجه النقيب وهو يحقق معي.

ـ لأنه تدثر بثياب الحداد حين مات البحر الميت.

لم أضحك. أحاول بعث قواي بلا جدوى. يداهمني إحساس بالحقد على جسدي. يأتي صوت كفى رفيقاً:

ـ دعنا نؤجل هذا إلى الغد.. لعل الحذر يغادر حواسك تماماً.

يحتقن وجهي. أرفع حاجبي سلباً وألح على جسدي. لكنه يستعصي. وتراءى لي وجه النقيب شامتاً وهو يصغي لوشاية كفى بعجزي. نار بركانية تصلي أعماقي.. أكاد أشعر بألسنة اللهب تمتد من مسامي. أنزف عرقاً وألح على جسدي بقسوة. لكنه يخذلني.

جاء صوتها يكرس عجزي:

ـ الخمرة والأقراص الجهنمية تسلبك قواك.

صوتها ينم عن عتاب.

قالت إن دماء البحر الميت نزفت في البحر الأحمر. لهذا أسموه أحمر.

● يوم عابس.

● ولاحظت كفى أنني لا أعيش حياتي. أنصرف عن الحاضر ولا أحياه. أنت لا تعيش حياتك الآن في سبيل أن تتذكر الماضي. وشددت على أن الشخص الذي ينصرف إلى استحضار الماضي عبر الذاكرة يعجز عن الاحساس بالحاضر. يكف عن عيش الحاضر كي يتذكر.

لم أفهم. كركر نهداها وهي تنقلب نافخة وتمسح جبينها بظاهر يدها.

ولم تنس أن تلفت انتباهي إلى أن السياسة مصدر عجزي. ووصفتها على أنها بلا دين. وحذرتني من نتائج تعاطي الأقراص الجهنمية قائلة إن هلوستي أثناء تعاطي المخدرات قد بدأت تقتحم عالم اليقظة حين أصحو فأتوهم أنها جزء من عالم الواقع. وأعربت عن اعتقادها بأن هذه الظاهرة الجديدة الخطيرة تنذر بمستقبل مشؤوم.

بدت لي وهي تتحدث كأنها مذيعة أخبار الساعة الثامنة.

● لا تخلط بين المسكنات والمنبهات قال الطبيب الحكيم. لكنني أخلط.

● أطلقنا النار على البحر والسماء. أين هي الزوارق؟ رفعت رأسي. لم أشعل سيجارة، والبحر يلهث. يومض ويتوارى. وأنا أرغب في سيجارة. لكنني لا أشعلها. سأبتاع مصفاة للسجائر. البحر يدعونا. تهتز الأرض تحتنا. والبحر والسماء. كأنما تتوحد كلها في كائن واحد جبار يترنح ويعربد. الخطر يستنفر أعصابي. حواسي مشحوذة رهيفة كرادار. قذائفنا وقذائفهم تعري البحر، تسلط ضوءاً باهراً على أسراره. ترفع عنه حجاب النيكوتين الأسود. ضربت أعقاب القذائف الأرض فرقصت ثم طار أبو الموت عن صدرها.

● في عيد ميلادي أهدتني مريم مصفاة للسجائر. أنبأتها فرحاً بأن مثقال عزم على متابعة دراسته في بيروت.

● بيروت

وراء المتراس بدا مثقال بجسمه الضامر كغصن شجرة يابسة محدودبة. لعن المتراس، قال إنه يخاف العتمة أكثر من الرصاص. أنبأني وهو يتجشأ أنه يخاف العتمة مذ كان طفلاً صغيراً. وانتقد المتراس قال إنه ليس مرتفعاً بما فيه الكفاية. ثلاث طبقات من الأكياس فقط. ماذا.. أيحسبوننا أقزاماً؟

في ضوء القمر بدا وجهه شاحباً. أهو الليل أم العتمة؟ قلت أقلب عيني فيما حولي واجماً حذراً باحثاً عن مكان أبول فيه:

ـ انظر هناك. المطاحن. وهناك كنيسة مار مخايل.. ومن. قاطعني وقد اعترت جسده رعدة غيظ حادة. أم تراها رعدة خوف:

ـ ماذا.. أتظنني سائح، أعرف المنطقة كما أعرف جسد حبيبتي.

انفجرت ضاحكاً. ضحكت بعصبية هستيرية. لكن ضحكي لم يطغ على صوت الانفجارات. قلت هامساً:

ـ إذن فأنت تجهل المنطقة تماماً.

نفخ مغيظاً ولم ينبس. تطاول ومد بصره فاصطدم بجدار العتمة. قال بصوت خفيض:

ـ ولم الهمس؟
ـ أنت تهمس أيضاً.

كركر ضاحكاً وقال ناقلاً بندقيته الرشاشة إلى يده الأخرى:

ـ كلانا هبيلة.. القصف لابو موزة. ونهمس قال.. قال نتوشوش كأننا نخاف أن يسمعونا.

دوّى انفجار قذيفة. انحنينا. قال صابر هامساً:

ـ قريبة.

وشوشت:

ـ لا هذه انطلقت من عندنا.

همس معانداً:

ـ لا من عندهم.

قلت بنزق:

ـ أنت لا تفهم بالعسكريات.
ـ ما شاء الله عليك. أما أنت فسيادة الجنرال كاوكي.

لا أدري لماذا اختار كاوكي بالذات. قلت لنفسي إذا مرت هذه الليلة دون أن تذهب برأسينا معها. سأروي لحفيدي بمباهاة أنني شاركت في الحرب.

رفع مثقال رأسه وحدق الى السماء وهمس:

ـ اطفىء القمر يا الله.. نحن في حرب.

قلت له مكركراً:

ـ ألم تقل لي انك تخاف العتمة؟

رمقني بريبة ثم قال:

ـ نعم. ولكنني أخاف الموت أيضاً. اتعتقد أنك قادر على قتل انسان؟ أنا سأطلق مغمض العينين، لا أريد رؤية وجهه.

قلت متلفتاً بعصبية ضارباً قدمي في الأرض:

ـ أريد أن أبول.

جحظت عيناه وحدجني بنظرة من صدمه خبر مشؤوم:

ـ أهذا وقته؟؟ بول هنا..

اضطربت كالذي يحاول أن يمسك بشيء أفلت منه. قلت هامساً:

ـ والعناصر؟ واحد جاي واحد رايح. والشباب الواقفين حدنا.

ضج بالضحك ثم قطب فجأة وقال بنزق:

ـ اذهب وبول وراء ذلك البيت المعتم.

فتلت شاربي بعصبية وقلت:

ـ ماذا لو كان سكانه مستيقظين.

شد مثقال شعره وهم بتمزيق قميصه غيظاً لكنه أمسك. قال:

ـ ولك تواجه الموت.. تريد أن تحارب وتخجل من التبول في الشارع؟

انفجاران.

ـ سقطتا هنا.

ـ لا هناك..

ـ لا تفهم في الحرب.

ـ أنا لا أفهم يا كاوكي.. طيب.. البندقية تطلق على السريع أم على البطيء ان انزلنا هذه القطعة على الآخر..

ـ على الآخر؟. سريع.

ـ لا بطيء..

ـ لا سريع.

لاحت في عينيه نظرة حرد. قال:

ـ كان الأجدر بنا أن نجدد معلوماتنا. آخر مرة تدربنا فيها. قبل. قبل. قبل تسع سنوات.

قلت بلهجة من يرثي نفسه:

ـ خمسة عشر يوماً فقط.

سقطت قذيفة. جمدنا في أماكننا. اعتصرنا صمت رهيب. توالت القذائف. من هنا ومن هناك. أخذنا الأرض. همس مثقال مكركراً من الخوف:

ـ روح بول وراء ذلك السور.

لم أنبس. أذهلني انثناء الخوف عني. زعلت لانني لم أصب بالذعر. تفكرت في ذلك وتساءلت عن العلل فلم أتبينها.

همست:

ـ لو بولت هناك لقتلتني قذيفة.

جاء صوته متهافتاً:

ـ هنا وهناك واحد.

ـ الحجر في مكانه قنطار.

ـ اذن بول على عقبيك. الم تبل في بنطالك بعد؟

انقطعت القذائف فجأة. أشباح تركض هنا وهناك ترتطم وتتلاطم بالناس والجدران والجرحى والجثث. قلت:

ـ لا أخشى إلا إصابة يدي اليمنى. . أفضل الموت السريع. .

أخذ غيظ مثقال يفور، أجهده أن يكتمه فصرخ بنزق:

ـ ولماذا يدك بالذات. . واليمنى بالتحديد؟

ـ إذا أعطبت يدي اليمنى توقفت عن الكتابة. والكتابة حياتي. . يعني عملياً الموت. يعني لن انجز رواية «اعراب».

نكس رأسه وقال كأنما يعترف بخجل مقرون بالخبث:

ـ أما أنا فأخاف على الذي بين ساقي. .

ضحكت في عبي مكركراً وقلت:

ـ ولكنك لا تستخدمه أصلاً.

قال بامتعاض:

ـ ولماذا لا تخشى عطب عينيك.. كيف ستقرأ إذا..

أشباح تركض ونحن مسمرون وراء المتراس. يصيحون ونحن نتوشوش. توقف القصف تماماً. ليلة هادئة نسبياً.

فجأة انبثق أمامنا الغزاوي وكأنه نبت من الظلام ونهض من الأرض. أقبلت عليه باسطاً وجهي فاذا بوجهه مظلم. قال مغضباً:

ـ ماذا تفعلان هنا. مجانين. لا تعرفان المنطقة. لا نريد مقاتلين هواة هنا.. هذا خط أمامي.

غاضت البسمة عن شفتي. أخذني الغيظ، وعنَّ لي أن أصرخ في وجهه. لكن مثقال ابتسم ببلاهة وقال بصوت عبث به الطرب ورنت فيه المباهاة:

ـ ندافع عن حقنا في تنشق الأوكسيجين. نحارب يعني ماذا نفعل؟ ثم إن عناد زايد علي وجرني جراً إلى هنا.

ضيق الغزاوي ما بين حاجبيه وتمتم باستهانة:

ـ تقاتل يا اسبيناز؟؟

صححته:

ـ سبينوزا..

ربت الغزاوي على كتف مثقال. فرف جفنا مثقال غبطة وتيهاً وإذا بالغزاوي يقول هازلاً متهكماً:

ـ عودا يا شاطرين إلى حي الجامعة وطالعا الفلسفة والشعر.

ارتعد مثقال وأمسك الغزاوي من ذراعه واستدناه بشدة. قال بصوت ثابت:

ـ لا تزايد والله..

قهقه الغزاوي وصفق بيديه ثم سأل مقاطعاً مثقال:

ـ لماذا لم تطلقا النار منذ وقوفكما هنا وراء هذا المتراس.

نظر كل منا إلى صاحبه نظرة طويلة متسائلة مستريبة. قال مثقال يصطنع الوقار:

ـ نحن لسنا من الذين يطلقون النار على الليل.. نطلق النار قال.. على أي هدف نطلق النار؟

التفت الغزاوي إلي وسألني مباشرة:

ـ اتطلق النار لتقتل لو اشتبهت بوجود شخص في الجهة المقابلة أو لو رأيته بأم عينيك؟

تململت وجلجت. أخذني شيء من الذهول والحيرة. قال مثقال بصوت حاسم:

ـ نعم. نطلق النار ونقتل.

شاع في نفسي شك وقلق مُلّحان. تركت ظهري يتراجع حتى استراح على المتراس.

توهجت عينا الغزاوي.. لمحت تلك القوة الغامضة تشع منهما لكأنها تأمر الوجه المقابل أمراً. قال باستهانة:

ـ والله لو رأيتها مقاتلاً من الطرف الآخر لاطلقتها النار مغمضي العينين حتى لا تروه يخر مضرجاً.

ضرب مثقال قدمه بالأرض وزمجر:

ـ مش صحيح.

فجأة مد الغزاوي يده بحركة قوية خاطفة وانتزع بندقية مثقال الرشاشة صوبها نحو الجهة الأخرى وضغط على الزناد. فاذا بالبندقية بكماء لا تطلق ولا تئز.

افترت شفتا الغزاوي عن ابتسامة ساخرة. بينما جمد مثقال في مكانه ذاهلاً لا يتحرك وقد تهدم وجهه. بدا كبناية نهشتها القذائف. قال الغزاوي كالشامت:

ـ ليس في بيت النار رصاصة. أم أنك ستقول لي إنك ستسحب الأقسام وتطلق بعد ان يحتزوا رأسك.

واريت أنا بندقيتي خلف ظهري. نظر ناحيتي فأخذت عيناه اضطرابي. امتقع

وجهي ولم أنبس. لجلج مثقال مستيئساً:

ـ لا أرى ضرورة ملحة في تلقيم بيت النار رصاصة. نحن لسنا وراء متراس أمامي.

تولاني الارتباك واضطربت نفسي حين قال الغزاوي بجدية:

ـ جئتما لتستشهدا مجاناً وتربكانا.. عودا الى الشقة، هذه ساحة طعان لا تحتمل هواة وشعراء وفلاسفة.

غمغمت برماً:

ـ العسكر لا يطيقون الشعراء والفلاسفة. ثمة شعراء كانوا من أصلب المقاتلين.

قال الغزاوي بنزق:

ـ لكنهم كانوا لا يترددون في وضع رصاصة في بيت النار. هيا يا شيخ عودا. عودا من حيث أتيتما.

أثبت مثقال قدميه في الأرض معانداً، فهو لا يزول ولا يتزحزح. كذلك فعلت أنا. فجأة انهمرت القذائف كالمطر وأز رصاص غزير واشتعل الليل. شبح يركض منحنياً متلاطماً بالجدران ينتفض فجأة ينتصب شاهقاً ويخر، تطاول آخر من وراء متراس قريب ثم صاح فمات لساعته. وأرعد الهول. هذا يكر وذا يفر والقذائف تصعد وتكب. العتمة مطية تطارد صوت الموت.. والفرسان يترجلون. يتساقطون. في لحظة واحدة انبلج ألف فجر يضرم وهجه الناري في ثوب الكون الأسود المظلم. تنفجر قذيفة قريبة فاذا نهار دموي يعترض الليل حتى يأتي على الظلام كله. نور باهر ساطع يكاد يحرق عيني يسلخ الفجر من الغسق. والدوي الصاخب العنيف يأخذ أذني. شظايا تهوي على أشباح فتحتز رؤوسهم. شبح حدي يخر على وجهه. دوي يمزق سكون الكون وما زال الكون يضطرب اضطرابه العنيف هذا حتى فنيت عن نفسي وما حولي غافلاً عن كل أمري. جن الليل طاش عقله، ولول كعجوز شمطاء ترملت لتوها فذهبت الفاجعة بعقلها. رفعت يدي سددت بهما اذني بحركة غريزية غافلاً عن مواراة يدي اليمنى وصونها من العطب. تقهقر الهول متثاقلاً ثم كمعزوفة موسيقية بلغت ذروتها راحت زمجرته تخفت رويداً رويداً فاذا هي زعيق وانين فصوت متقطع ثم هامس مبحوح. أخيراً شهقات متقطعة بالرصاص. ردني صوت الغزاوي إلى يقظة مروعة، وكأنما يوقظني من تلك الحالة التي لم تكن غيباً ولا

يقظة. رفعت رأسي. نظرت ناحية فأخذت عيني مثقال وهو مسمر وراء متراس آخر قريب ثابت منتصب يطلق النار وشتائم مقهورة بغزارة.

اندفع الغزاوي نحوه منحنياً متيامناً متياسراً كالسكران، وبقيت أنا في مكاني صامتاً ماخوذاً الهث ولا آتي بحركة. مذهولاً راقبت الغزاوي الذي دنا من مثقال بحذر ثم طوق جسده المتشنج المنكمش بذراعيه القويتين. هتف الغزاوي:

ـ مثقال. مثقال.

جسد مثقال شجرة يابسة. كان يضغط على الزناد رغم نفاد ذخيرته. التفت بوجهه، تقلصت عضلاته وتشنجت. نظر بعينين كاسرتين سطع منهما بريق دموي. قال له الغزاوي متبسماً مهدئاً:

ـ نفدت ذخيرتك.

ذهل مثقال. سحب المخزن بعصبية. كان مقفراً. تأبط الغزاوي ذراعه. قال:

ـ انحن.

لبى الأمر كالسائر في منامه. ركضا. تهالك كلاهما على الأرض حدي. مثقال مشدوه غافل وأنا مأخوذ ثابت الحدقتين معلق الأنفاس. أومأ الغزاوي بيده إلي مشيراً إلى الأرض. التفت فراعني انني شبه مقتعد على جثة رجل كان قد طلب مني سيجارة قبل نصف ساعة. انتفضت، جثوت على ركبتي، خبطت معدتي وتواثبت احشائي.. فتقيأت. كان صدره مضرجاً بدمائه وأمعاؤه حده كأنها أفاع تزحف. أما وجهه فبدا جميلاً أنيقاً كأنه كان يستعد لحضور حفلة في الكارلتون. شفتاه منفرجتان مائلتان كأنه يسخر مني.. منا. من الحياة.

آه كم أبغض الحرب.

كانت مخازني الأربعة مليئة بالرصاص.. وفوهة بندقيتي نظيفة لا رائحة للبارود فيها.

الرصاص متقطع. وجه مثقال صلب متماسك. كم أغبط جرأته. في عينيه شعاع باهر غريب. فجأة ارتعش رعشة عنيفة جرت مسرعة في جسمه كأنها رعشة الكهرباء. زحف مبتعداً ثم انتحى ناحية في الظلام واقتعد الأرض وحيداً.

ما عرفت اني أصبت في ساقي إلا حين قال الغزاوي بصوته الخشن:

- هيا.

لم أتبين مراده تناهضت فسقطت على وجهي. رأيت الدم ينزف من ساقي. تساندت على ذراعه. وقلت أملأ رئتي بالهواء لأول مرة منذ دهور:

- الحمدلله.

الرصاصة أخطأت يدي اليمنى. الغزاوي ومثقال أطلقا الرصاص ولم يخدشا. وأنا الذي ظلت مخازن رصاصي على حالها. تقصدني رصاصة فتحوم كدبور وتلدغني.

لو بقينا وراء متاريس الماري لاند نبصبص عبر نوافذ العمارات على الصبايا. لعنة الله عليك يا مثقال. قال مثقال إنه لم يخف لما قامت الدنيا ولكنه خاف بعد أن قعدت.

* * *

● بين مسقط رأسي ومدينة الحلم:

في طريقه إلى المطار تبعته سيارة للمباحث. كانوا يراقبونه. يحصون عليه أنفاسه والتفاتاته. يراقبون، لا ينشدون القبض عليه. فتشه رجال المباحث في المطار. نبشوا حقيبته. استخرجوا أحشاءها. يعلمون تماماً أن لا شيء خطير فيها. ملابس داخلية وسروال. وثلاثة سترات أنيقة. أحد الشباب قال له إن الأناقة هناك جزء من النظام. والنظام نظامنا. فالتزمت. غير أنني أجهل عقد ربطة العنق. يعلمون أن حقيبتي بريئة. مجرد إذلال. تركوا ملابسي الداخلية مبعثرة على الأرض أمام عشرات العيون. غمغموا ثم أشاحوا. قبل أن أستقل الطائرة جاءني رجل من المباحث ونبش جيوبي أمام المسافرين. مجرد إذلال.

طارت الطائرة. غادر فلك مدينته ومداراتها، تفلت من جاذبية أرضها التي لا تدور. دخل في سماء محايدة. انقطع الزمان. يغفو. هبطت الطائرة على مدرج مطار مدينة الحلم. فتح عينه. رعشة فرح هائل هزته. استقبله الشباب استقبالاً رف له قلبه. أحاطوا به. في مقدمة المستقبلين وقف الرائد فارداً ذراعيه القويتين فاتحاً صدره

العريض ليضمه. تحلق حوله رجال الأمن. قصدوا صالة الشرف. رمق رجال الأمن بنظرة مرتبكة لمحها الرائد فتبسم وهمس:

- إنهم هنا لحمايتك. حرصاً على حياتك.

اتخذوا أماكنهم في صالة الشرف. واحتسوا البيبسي كولا. ثم نهضوا. مشى على أرض مدينة الحلم. لكن زمن مدينته لم يتبخر بعد. قدماه في الحلم ونبض قلبه يدق بانسجام مع دقات ساعة مدينته. قال الرائد:

- صحح ساعتك. ثمة فارق بالتوقيت.

مأخوذاً مشى يحيط به رجال ذوو شوارب غليظة. بعضهم يرتدي الكاكي. كان يبغض الكاكي.

همس الرائد متبسماً يقرأ أفكاره:

- تحتاج إلى فترة كي تعتاد أجواء النضال الايجابي.

وما كدنا نغادر باب صالة الشرف حتى أدى لنا أحد الجنود تحية عسكرية ضارباً بسطاره بالأرض في قوة وعنف. وثب قلبي وأجفل لوهلة ثم استعاد سكينته حين تذكر أنه في مدينة الحلم.

عنَّ لي أن أجثو وأقبل الأرض التي ينجز عليها حلمي. لكنني أمسكت. تنشقت رزانة وصرامة في الجو من حولي لا تسمح بمثل هذه الحركة.

ولجت زمناً آخر.. إنه زمن المد.

● مقدمة مؤخرة

أقرأ في كتاب: «إن أول صوت يسمعه كونتن بطل رواية «الصخب والعنف» لفولكنر عندما يفيق في الصباح هو دقدقة الساعة. فبدون الوعي لا إحساس بالوقت، الذي نغفل عنه حين ننام» ويقول صاحب فولكنر «إن الوقت عبء ثقيل نرخيه عن ظهرنا أول الليل، ونستأنف حمله من جديد عند الفجر، حين نستيقظ فنجد انفسنا، رغم الخط الطويل الذي قطعناه، عند نقطة الانطلاق التي كنا فيها في المساء، عندما

أطبقنا جفوننا، واستسلمنا لسلطان الكرى».

لكنني أغمض عيني إعياء. والوعي ليس شرطاً للاحساس بالوقت. لم أقل ذلك. لكنني فكرت. ثم قلت لنفسي معترضاً على ما قرأت: لعالم اليقظة منطق وقواعد وقوانين.. منطق صوري ميتافيزيقي. وجدلي، وغيره وغيره أكثر من منطق ولا أفهم منطق المنطق، ولكن هناك أكثر من منطق.

ولكن ماذا عن عالم النوم. أي منطق يتحكم فيه؟ أية قوانين وقواعد؟ اللاشعور؟

وماذا عن عالم الوهم والخدر المنتشي والهلوسة؟ أي منطق يكرس نفسه ناظماً لقوانينه؟

لا لم أقل ذلك.. لكنني فكرت. بل تذكرت. وقلت فيما قلت إن الوعي ليس شرطاً للاحساس بالوقت. لـلاشعور وقت أيضاً. لكنه زمن خاص متميز. منطقه عجيب عصي. للكوابيس للأحلام للمنامات أزمنة وأمكنة فريدة مدهشة، للهلوسة للمخدرات التي تصادر المنطق والعلائق والمعقول وتقذف بهم في هاوية الوحشة. في هذه العوالم تتقطع علاقات المنطق ويختفي التمايز وتتكسر القوالب والأنماط والقواعد. تذهب الألفة ولا تعود إلا.

أزمنة النوم واللاشعور تختلط فتتداخل أزمنة الوعي الذاتية بالأزمنة الموضوعية، تتعانق أشلاء اللحظات والدهور، سرب من الأماكن يدخل مدارات أزمنة خرافية- تمتزج- تنبثق مساحات وأوقات لا يبلغها إلا النائم والمخدر الغافل. تخفق المدن البعيدة صوب أدغال الصحارى.. تنصهر. تروح بخطوة واحدة وتجيء بقدم واحدة وتضيع الأشياء في الأشياء وتذوب العناصر وتتشكل من جديد. المنافي الموحشة كجسد امرأة يذوي وينفض عنه العشاق. تندلق في أزمنة حميمة.

تختلط كما أوراق اللعب. تمتزج كما في كوب من الكوكتيل. «كوكتيل أمكنة وأزمنة» من ذا الذي قال ذلك؟ سوزي؟ ولكن أين رأيتها.. ومتى؟ أين أنا من المكان؟ متى أنا من الزمان؟

الحر شديد. وأنا مشظى على الفراش. أجهد في مغادرة اضطراب عالم الكوابيس والهلوسة. ولكن الفاليوم والـ (ل.س.دي) وكافة الأقراص الجهنمية والمخدرة تدفق في دمي. لم تتبخر بعد منذ. منذ متى تناولت؟

أنهار كالأنهار. ولكن لا أتدفق.

تتساقط القذائف، ينهال المطر، ينهمر شعر مريم. آه رأيت مريم وحادثتها. ولكن أين ومتى؟ في عالم المنام أم الخدر أم أحلام اليقظة؟

صوت من الأعماق يقول: انبتناك فلا تذو.

ولكنني أذوي. مريم تتقمص بيروت. وتتناثر إلى أشلاء.. وبالي إلى شظايا. الحواس منهوبة مشوشة مضمخة بالضباب. ويكر سراب على الذاكرة فيتخطفها ويعيث فيها نسيان.

إنني بين الصحو الغفلة. ما قلت ولكني فكرت. لا لم. ولكن. متى سلخت الليل من النهار وابتكرت منهما لحظة أبدية فقبضت على البداية والنهاية؟ لا على بداية النهاية. إذ لا نهاية. مثقال يحلم بجامعة لومومبا. وباقامة نقابة في المصنع تتخطى حقول الألغام العشائرية. وأبو الموت على علاقة أبوة بالموت. منذ متى وأنا راحل في الذهول؟

ما رفعت رأسي ولكني قلبت عيني في الغرفة كرجال المباحث أبحث عن أثر يأخذني إلى اليقظة. تراءت لي ثلاث زجاجات ويسكي تنبطح على الأرض خاوية وتفغر أفواهها. لا بد أنني أسرفت. وقال صاحب فولكنر «اننا نستيقظ فنجد أنفسنا.. عند نقطة الانطلاق التي كنا فيها. عندما أطبقنا جفوننا واستسلمنا لسلطان الكرى» لا لا معقول، غير واقعي. إذ انني بعد أن استسلمت لسلطان الكرى لم أتخلص من عبء الزمن الثقيل. استبدلته بأثقل. ولم تكن الساعات التي قضيتها بين إغماضة العين وفتحها دقيقة قصيرة. ما كان بوسعي أن أضرب في عمان وبيروت ودمشق والقاهرة وصنعاء وبغداد والجزائر وعدن ونيويورك ومانيلا وموسكو والتقي بعشرات بل بملايين الوجوه. في دقيقة واحدة.

وأمد بصري منهكاً ثم أصعده، أشمشم بحثاً عن رائحة. لست من رجال التحري. لكنني أشمشم لأتحرى أين كنت وماذا كنت ومن. أخذ أنفي رائحة حشيشة، تتضوع من شاربي. أقراص مخدرة مبعثرة على الأرض وأقراص مسكنة منتشرة على الوسادة.. وأقراص منبهة. جوني ووكر منبطح على الأرض. منفصم إلى ثلاثة توائم.

صور تنبثق فجأة. بقايا أشباح كانت كاملة. صدى أصوات كانت أصوات لا

صدى. سوزي مضيفة. تطير بين لندن ونيويورك. تتناول الغداء أولاً في الدولشستر.. ثم تتناول فطورها في مانهاتن. سألتني:

ـ لماذا غيرت اسمي في روايتك. أفضل اسمي الأول. ولماذا زيفت الزمان والمكان؟

جاءت إلى هنا. إلى هذه الحجرة بالذات. انبثقت من ذلك الجدار. واغتصبتني. جاءت بعد سنوات تعقبها سنوات. استحضرتها الأقراص الجهنمية حيث تنصهر الذاكرة بالمخيلة ويتضرجان باللاشعور. ينحدران إلى الأعماق المعتمة السحيقة المخيفة. الكؤوس أمامي هنا تدور ورأسي يدور وسحاب الحشيشة يدور والكرة الأرضية تدور حول نفسها ثم حول الشمس.. وأدور حول نفسي في حلقة مفرغة ثم حول السراب والوهم.

تراءى لي والد مثقال يضمه إلى صدره بعد أن احتسى لتراً من العرق. بكى بحرقة وتهدج:

ـ أنت تحرث البحر يا مثقال. تحرث البحر.

وإذا بالبحر سهوباً ومروجاً، وإذا بالسنديان والصندل والسرو والتفاح، وأشجار عجيبة تطلع من بين الأمواج، وأشجار تطلع من بين الأشجار. ونباتات خرافية تطل وتومىء: صنوبرة تنهض بين السنديان وتميل. وكان الهواء ينط كصبية تلعب بالحبل. من قمة إلى أخرى. ويتزحلق كولد عفريت إلى الوادي ويشد شعر البنات وكانت البنات مريم.. ويؤرجح جدائلهن المنحدرة كذيول الخيل ويتأرجح، تمرق عند الأفق خطفاً. فيتصهون. أشجار تطلع من البحر ومثقال يحرث وأشجار الملح تنهض ثم تميل أشجاراً من السكر والشهد والبحر الميت يستفيق. يرتد إلى هول اليقظة وكانت له ملامحي وعيناي المشدوهتان. منذ متى وأنا ميت. صاح وصحت. صحنا. ونبت وجه النقيب وكان فارساً وجواده كفى. وقال الفرس من القارس وأنت خيال خيّال لست خليقاً إلا بالمشي وامتطاء الأرض. لكن كفى انتحبت ثم كفكفت دموعها ونفت نفسها. قالت إنها حالة في ذهني. قالت لست امرأة ولست جواداً ولست. أنا فكرة في الذهن، حالة في العصب. قلت كفى. وما صدقت عيني ولكنها أصرت.

رفعت رأسي كأن جبلاً من الصخر يجتاحه زلزال همجي ويضطرم فيه بركان عربيد. راح بصري محدودباً واهناً إلى النافذة وكرجل من المباحث عاين بصري الزجاج.. فإذا به مكسور وإذا برشقات من دم جاف تنتثر عليه. أي هول.

وانتفضت. هل قتلت أحداً في غيبوبتي أم ناديت الانتحار؟ على المنضدة أوراق وقلم. تناهضت معتمداً على ذراعي ثم رفعت جذعي فسقطت عن الفراش. ضرب وجهي الأرض بقوة حذاء جندي يؤدي التحية العسكرية. ولمحت نجوم الظهر. جوني ووكر إلى جانبي عربيد أخرس كان ثم زال. ورحت معه لكني عدت وحيداً.

ما الذي جاء بالنقيب وألبسه وجه الرائد؟ سألت الرائد منذ متى وأنت هنا تجلس إلى جواري ولماذا تحمل هوية النقيب وأنت ضده؟ ألم تحاول الانتحار؟ كيف خرجت من مصح الأمراض العقلية؟ ولكن هل قتلت بيديك هاتين فرج الله ومحجوب؟ قال إن سوزي هجرته. صمت فحكى وجهه الخرب العجوز. تجاوزني الزمن وبقيت حياً ميتاً لكني رفضت عرضاً من مباحث دولة غنية. وكنت والغزاوي وأبو الموت نلعب بالموت كنا في الرشيدية.. واشتبكنا مع العدو. واندفعت بالسلاح الأبيض فاذا بي في الرملة البيضاء. إلى جانبي ضابط كوماندوس اسرائيلي وإلى يميني سوزي. أطلقت ضحكة شامتة ساخرة وسألت ضابط الكوماندوس مستهزئاً:

ـأتظن يا حضرة الضابط أنكم أكثر حضارة منا؟

كان شاهراً سلاحه. تطلع بعينين دارت فيهما نظرة حائرة مستطلعة. اضفت أستزيد شماتة ومباهاة:

ـ لا لستم أكثر حضارة منا. هل تعرف أفخر أنواع الخمر؟

فغر الضابط فاه ببلاهة. قلت ملتفتاً إلى سوزي:

ـ قولي له حتى يعرف أننا نعلم ما لا يعلم.

قالت. فتضاعف شعوري بالزهو. ثم سألته مباهياً بحضارة سوزي:

ـ هل تعرف أي نوع من الطعام يؤكل مع هذه الخمرة التي نطقت سوزي باسمها الآن؟

شال برأسه سلباً. فقالت سوزي (آر..س..و.. ح. ف). وأطلقت ضحكة المنتصر. ونكس الضابط سلاحه منكسراً في الذل. فهو لا يعرف. وسوزي تعرف. سوزي تعرف عن الحضارة وهو لا

اسمع الألوان وأبصر الصوت و المكان. الاناء يتكسر شظايا والزمان الماء

يتبخر. مصلوب بين لحظتين. غمامتين. انتثر كالضوء بين المدن. تجتزىء الشوارع ذاكرتي.. والقارات تتوزع عمري كأيدي فقراء تنهش أرغفة. تقتحم الفرن تنهبه. أنا الفرن. عمري. لكن الأيدي ليست أيدي الفقراء. اتشتت كاللاجئين. أتجزأ كالوطن الكبير، اتفتت عنقوداً من الرمال تعصف فيه الريح. أتململ كومة نمل تدب يميناً تضطرب شمالاً فوق اليأس وتحت التفاؤل. أهرب من الحدود إلى الحدود. ولا أتخطى. لكن لا حدود. لا تحت لا فوق لا يمين لا شمال. إذ لا مكان. ومنذ متى؟ لا جواب.. إذ لا زمان. إذن من أين يأتي هذا الهمس؟ حفيف أصوات تتآمر علي. تتواطأ ضدي. وإلا. لماذا الهمس؟ لكني بسيط.. والبسيط لا يقبل القسمة. مع ذلك أتشظى.

نبت الغزاوي من الجدار. في الجدار كومة جماجم، تل جماجم، جبل جماجم. وسوزي ترنو إلى نفس الجدار فلا ترى إلا أزهاراً تطلع من بين الأزهار.. وتتكاثر.

الغزاوي قال:

ـ بين الرصاصة والرصاصة زنزانتين.

رمقته بنظرة مستطلعة صاغتها الدهشة سألته:

ـ ألست في لبنان.. ما الذي جاء بك إلى هنا؟

سألني عن معنى «هنا» فلم أفهم ولم يفهم. وقال أبو الموت ما مات. وقلت إنني اتعرض لمؤامرة صهيونية ـ ماسونية يتزعمها أقرب المقربين إلي.. أشك بمثقال وبنفسي وبك قلت.

ونبتت مريم.. سألتها متى جاءت. قالت إنها كانت تقف إلى جانبي طوال الوقت. لم تنبت.. كانت هناك. أعني في عيني إذ اني أنظر إلى الداخل. قالت اسمي مريم بيروتي. ضحكت. قلت أنت بيروتي أنا. قالت إنها ولدت مدينة وأنها لا زالت تدفع وتدفع من سنوات عمرها المحدود. وإنها غارقة في الديون. أنا من أصحاب الأعمار المحدودة. قالت. وقال الغزاوي كذلك.. واستن مثقال بسيرته ويمم أبو الموت منهجهم. برقت عيناها. كانت شلال دم نبت أمامي كالأقحوان. تساءلت:

ـ من منكم يملك عمراً فائضاً؟

فأشحت. حولت وجهي وتصاممت. بين الزفير واللهاث لحظة اعتقال ولحظة انفصال. دهمني الرعب. من يقرضها من عمره. اقترحت حلاً. قلت عندنا فائض

من الزمن وعندكم في بيروت وصور والنبطية شحة فخذوا. قال لي صاحب البنك:

- عمرك مرهون.

حياتي عسيرة. رحت أشرح وأرثي نفسي. وكانت الزنازن والخنادق تتعطش للعملة الصعبة. وعمري صعب. ثم انني ابن آدم عربي معرض لغارة.. حتى ولو كنت في الربع الخالي أرعى الإبل وأبول على عقبي طوال النهار. أدس يدي في جيب الماضي: سنواتي صادرتها الزنازن والأقبية. والمستقبل.. أمد يدي فاذا يباب. والزنزانة محطة ترتاحين فيها بين خندقين. عمري يلج ثلاجة. هذا الذي لم يكن ثم كان. هو أدغال الاسئلة وقفار الجواب.

الأزمنة تخترق صفوف بعضها. أحذف المساء فيرتطم النهار بالليل ويفنيان. وأنهار في أنهار تنهار في النهار. ولا أتدفق. إنه مثقال يشدني من ذراعي. أنام على بساط الريح ولكن ضحكت. قلت وفمي يملؤه الضحك هل أنت مثقال أم أنني أظن أنك مثقال. ثم جرني. فسألته هل تجرني حقاً أم أنني أخمن أنك تجرني. وكنت أضحك طوال الوقت. أضحك ضحكاً متصلاً وعنّ لي أن أحلّق في الفضاء فوقفت على الشرفة غير أن ما يبدو مثل مثقال أمسك بي، وطوح.. فاذا بي أطير على الأرض.

أدركت أنني على الأرض منبطح بين الغياب والحضور. إلى جانب السرير ورقة تنطوي على الأرض. زحفت أصابعي إليها:

جئت فألفيتك تتهالك على الخمرة وتعكف على المخدرات. انتبه لنفسك سأعود مرة أخرى. (مثقال). زحفت ثم حاولت أن انتاهض مرة أخرى. أين هي الحدود الفاصلة بين محلول المخيلة الجهنمية ومركب الذاكرة المدمرة؟ كنت أقتل الوقت فأغتال وعيي. هذه الكلمات التي تظهر وتستر هذه الوجوه التي ترسل رنينها ثم تصمت. أين رأيتها متى سمعتها؟ في عالم اليقظة أم الغفلة أم في حلم كابوسي؟ والكلمات التي تبادلناها. خيال مهلوس أم صحو تلته غفلة؟ الشك يبسط ظله ويلبس الأشياء. أتناهض متسانداً على الأرض ثم السرير. قميصي على الأرض تحت النافذة المحطمة مخضب بالدم. ماذا فعلت يا ترى خلال رحلتي الجهنمية هذه إلى العوالم الخرافية؟ من كنت؟ لعلي قتلت، لعلي تزوجت، لعلي شتمت أعز الناس إلى قلبي. في غمرة هذيان الوهم. سأتصل بمثقال وأسأله عني. ما أقسى أن تسأل الآخر عن نفسك. كنت غائب العقل تائه الذهن.. وما كنت أنا أبداً. زحفت إلى الحمام. في طريقي شاهدت المقاعد والمناضد منقلبة مائلة منحنية محطمة.

تناهضت تساندني حافة المغسلة. راعني الوجه المتكسر في المرآة. بقايا وجه. عينان دمويتان متورمتان. كدمات وجروح في الجبين والخد الأيسر. ذقن خشنة. منذ متى وأنا غافل عن كل أمري؟ أسبوع؟ شهر؟ وأنا أطير إلى عوالم لا تنظر وارتفع إلى غمام لا يبلغ. ماذا فعلت طوال غيبوبتي؟ منذ ألف وألف لم أحلق. لم أسمع نشرة أخبار. لم أرفع يدي عن المخدرات. لم أسأل عن الوقت. ولعلي سألت ونسيت أني سألت. وهذه الكدمات. من أين جاءت. أتساقطت فتورم وجهي أم انني خرجت إلى الشارع عازب العقل تائهاً فتورطت في فضيحة دفعت الناس إلى الاعتداء علي؟ أي جحيم هذا؟ أن تفعل وتقول وعقلك يغفو في الخدر. ثم ترتد إلى اليقظة فإذا بك في حضرة النسيان. عيناي غائرتان متوقدتان.. وذاكرتي معطلة. نهبها ضباب تسلل إلى الذاكرة وتخطفها. صخب عنيف يدق في رأسي. وجهي هرم محطوم. رأسي سوق خضرة مزدحم. الباعة يزعقون والزبائن يصرخون.. وأنا لا أفهم ولا أصرخ. ولا المدينة تصرخ. الميت لا يصرخ. هل خرجت من الدار خلال نوبة الغياب الهستيري هذه؟ أي إحراج؟ استدرت. أوشكت على السقوط، استندت على حافة المغسلة. قلبت عيني فيما حولي واجماً. جسدي يخذلني يميل نحو الانهيار. بخطى ثقيلة متداعية سعيت إلى غرفتي متسانداً إلى الجدران. كل شيء يتداعى. الوجوه والكلمات والأماكن والأزمنة. اقلّب عيني البوليسيتين فيما حولي أبحث عن آثار تدلني على ما كنته خلال رحلة الغيبوبة. رحت أشمشم الأشياء وأتلمسها. عند سريري جمدت ذاهلاً في مكاني. تنشقت رائحة سوزي على وسادتي. بزغ وجهها واضحاً في بالي.. أمام عيني، زلزل قلبي. أتراها زارتني حقيقة؟ أم أني التقيتها عبر عوالم الهلوسة.. وماذا عن هذه الرائحة؟ بغتة سمعت صدى كلمات تتردد في ذاكرتي المشوشة صوت سوزي يرجع في بالي:

ـ كوكتيل أزمنة وأمكنة.

وكفى تقول أنا حالة في ذهنك، إحساس في أعماقك. وأدركت أن لا كفى. بقع من الخمر على غطاء السرير. ولهولي وقع بصري على بنطال مكوم في ركن الخزانة ملطخ بالوحل والغبار عند المؤخرة تدور دائرة من الطين. إذن غادرت الدار. عرتني رعشة مشت في جسدي رعباً. لعلي حاولت اغتصاب سيدة محترمة. وأنا غافل لا أدري ماذا أفعل، فتدخل الناس. ربما جارتنا. دفنت وجهي بين يدي. عنَّ لي أن اتصل بمثقال أسأله، موجع أن يروي لك الآخر قصصاً عنك وأنت غافل عنها. سيردد على مسمعي ما تفوهت به من أقوال مخزية وأنا في حالة حمى السكر والمخدرات. لعلي

بكيت أمام الناس. يا للهول.

وجاء مثقال

كانت عيناك متوهجتين. تعكف على الخمرة والمخدرات ليلك ويومك. لا تنصرف عنها إلا حين يثقلك النوم، فما إن تصحو حتى تعاود تهالكك على المخدرات. استفحل اليأس فيك فذهبت إلى حسم أمرك بقدمين تمشيان نحو الانتحار وخطوات تتجه نحو بيروت الحياة. كنت تتحدث عن مؤامرة طوال الوقت. وفجأة اندفعت كثور يتوثب للنطح، انحرفت عنك مذهولاً سعيت إلى الباب. التفت فإذا بأتون جهنمي يضطرب في عينيك. رمقتني كالمودع. أدركت أنك ممزق بين خيارين: بيروت الحياة الخطرة، وهنا الموت البطيء. ركضت وراءك.

اندفعت إلى الشارع أتلاطم مع الجدران والمارة. سوف تشق رصاصاتي جدار الليل الثقيل وتستقر بين عيني كفى. المدينة راقصة تدور وتدور. انقلب شعرها الهائج الطائر الحالك على وجهها فأظلمت. الذئب المستوحش ينطلق مشرد النفس غافلاً. وكأنما امحى الكون كله من حولي فلم يبق سوى شعاع باهر يمدني بنوبة حقد همجي يستولي على كياني كله ويخضني خضاً عنيفاً.

سألتك. قلت إن النقيب يضحك منك. إنه كان يعرف طوال الوقت أنك لا منتم. وكنت مجنوناً تدحرج عقله نحو صفاء اليأس الصرف. قلت إن النقيب يضاجع كفى نكاية فيك وشماتة وسخرية من عجزك ليكتمل دمارك. كنت تهذي. وفي عينيك جنون متقد.

سوف أهوي بمديتي على صدرها. ورأيت وجهها مضرجاً بدمائه فانتفضت وقبضت على المدية في جيبي بقوة. انفجرت ينابيع هائلة من الدم في كفي. نهداها، المدينة أو كفى، جمرتان هائلتان أوارهما يحرق دمي. وأنا بحر ميت يبعث ويرتد إلى يقظة مروعة. ولكنه يبعث. انسدلت خصلات شعرها الأسود على وجهها. أذكر أنه كان أبيض مشرقاً من قبل. قبل؟ متى يعني؟ وأغصان أشجار الملح والسكر تنتشر فوق صدري ومثقال يحرث ويحرث.

كنت أجتاز شارعاً فرعياً. أتمتم. أحادث نفسي. ودمي يستشيط. إذن كان يعرف طوال الوقت أنني تساقطت في السدى وأني فقدت مبرري وحذائي.. والخطوة. التفت فلاح لي من بعيد شبح رجل يعبر زقاقاً ضيقاً بخفة ثم يختفي. دهمني إحساس بفيض بأني مراقب. استنفرت أعصابي. توهجت عيناي وزاغت نظرتي.

تلفت حولي بحذر. انحدر مع الطريق ثم انفتل فجأة في زقاق جانبي، فانسكب ظلي أمامي دفعة واحدة. توفزت. ترنح ظلي ومال ثم انثنى وسقط كالقتيل. تحسست مسدسي. والمدية. واريت المسدس تحت سترتي.

● وقفت وبدا لي وكأن شيطاناً جباراً يضطرم في أعماقك.

تفحصت ظلي القتيل. تأملته بنظرة طويلة صامتة. غالبت رعدة مشت في أعضائي ثم اندفعت من جديد. الجدار الفاصل بين الزقاق والبناية التي تسكن فيها كفى. قالت إن النقيب يقيم في الطابق الثاني. نحن جيران قالت بلؤم. غمرني إحساس غامض بحضور انساني خفي يتوهج في مكان ما في هذا الشاعر المقفر. يتبعني وينهش ظهري بعينين حادتين. أكاد أتلمسهما. عينان واسعتان تحملقان بي في رحم العتمة. تتبعني بنظرات محمومة. عبرت الشارع بسرعة فباغتتني قطة سوداء تومض عيناها في الليل، ماءت ثم زاغت واختفت.

● وظلت مريم تحرس البحر وتجادل الغزاوي. إذا أنجبت لن أقعي في الشقة. ثمة دور حضانة. الغزاوي يهز رأسه سلباً أمام البحر. تقول لن أنجب اذن. يكركر ضاحكاً. والبحر ينهض ويهرول.

العتمة تتوهج أمامي دموية باهرة ووردة أقحوان زرعت في شعر الغسق الفجري. نبشت العتمة بعيني الحذرتين. سمعت لهاثي سنابك خيل تكر من شرق المدينة. فجأة سمعت وقع خطى تنبض على الرصيف المقابل. استدرت على نحو مباغت، فاذا بجسدي ينتفض نفضة الحمى. جحظت عيناي وسلطتا نظرتهما الضبابية على الشبح ثم تأججتا شواظاً ملتهباً. عينا الشبح المديد الواقف على الرصيف الآخر تومضان بلهب جهنمي أيضاً. شارع ضيق يفصل بيننا. لبثنا متقابلين مسمرين تومض عيوننا ببريق ساطع. التهمني الشبح بعينيه الخرافيتين. فجأة انبثق ضوء سيارة كانت لها عينا قطة متوحشة ليلية. الضوء باهر، يشتعل ويخبو على التوالي. تحسست مديتي ثم المسدس. الليل قطة محاصرة في ركن ضيق. تتوفز.

تقدم الشبح فحمل نور السيارة وجه النقيب إلي. فزعت إلى المدية في جيبي أتحسسها. كان يقترب وصدره يغوي مديتي. عيناه تنادي رصاصتي. امحى العالم حولنا، وحكت ملامحي. فقال بصوت طروب:

ـ آه.. استاذ عناد.. أية صدفة!

شحب وجهي. ولم أقل له إنني جئت لقتله. ولم أقل له لماذا لم تخبرني منذ البداية أنك تعلم بعدم انتمائي إلى أي شيء حتى جلدي. قلت مدارياً اضطرابي:

ـ جئت أزور كفى.. تعرفها طبعاً.. تسكن في نفس البناية.

ابتسمت عيناه هازئة وانبسط وجهه ساخراً. تساءلت: من أين له القدرة العجيبة على السيطرة على ملامحه؟ تساءل بلهجة محايدة:

ـ كفى؟؟لا.. لابد أنك اخطأت العنوان.. لا كفى هنا.

وكنت أوغل في عالم المنام أو الخدر، فاذا بي في السجن وكنت زوج مريم ومريم في بيروت.. وحامل. وكتبت من المستشفى. قالت الدكتور يقول انها ستضع بعد تسع ساعات. والرسالة مؤرخة في مطلع الشهر وبلغتني حين شاخ الشهر ووطأت قدمه القبر فكاد ينطوي. ونفضتني البهجة. التفت إلى مثقال وسألته عبر قضبان الزنزانة:

ـ ماذا تقترح اسماً لمولودي؟

في تلك اللحظة لفظت مريم أنفاسها الأخيرة مخلفة وليدي. وما كنت أدري. إذ هي هناك وأنا هنا وبين كتابة الرسالة وبلوغها إياي شهر كامل. كنت أقرأ الآن صوت مريم الذي انطلق منذ شهر. قال الطبيب في مستشفى بيروت إن المولود سيعيش لكن أمه ستموت. وماتت والرسالة في الطائرة بين بريد بيروت وبريدنا. ووصلتني وقرأت صوت مريم تقول إنها ستلد بعد تسع ساعات. وكانت ميتة. وغمرني موج بهجة الدهشة. صحت عبر القضبان:

ـ بت أباً..

لكن مريم لم تمت. ماتت في حياة المنام، في الكابوس. وبعثت في حياة الصحو.

توهجت عيناي ودار رأسي. هتفت:

ـ كيف لا كفى هنا. انت تخدعني.

تضاحك النقيب وقال:

ـ ما رأيك في أن تفتش البناية غرفة غرفة؟

ودلفنا معاً. وفتشنا. ولم تكن ثمة كفى. وقلت كفى. إذن كفى وهم. وذهل رأسي بدوار مفاجىء. رأيت وجهي بغتة بين وهلتين متصادمتين. النقيب ربت على كتفي ولم يقل إنه يعرف عدم التزامي ولم يقل إنه يعرف يأسي معرفة حميمة. لكن الصمت قال. وقال إنني عدت من بيروت خوفاً ورعباً حين دنا مني الموت أكثر مما يحتمل عصبي. قال الصمت أشياء كثيرة لا أذكرها. ولم أقتل النقيب ولم أنتحر. إذ لا كفى. لكن الرائد قتل فرج الله ومحجوب عبد الساتر. عينا الرائد تمتصان حيوية جسده. تضطربان بعنف. وجسده هالك يابس.

مثل كلب إثر مدرب رحت اشمشم الأرائك: حشيشة وعرق وخمرة وبول.

سألتني:

ـ مثقال.. هل أنت سراب أم حقيقة؟

أجبتك مستيئساً:

ـ حقيقة.

قلت لي:

ـ بيروتي هناك وراء تلك الجبال. لو أرفع الجبال كحجارة الشطرنج فاذا أنا في مقهى «الزاوية».

ورحت تتذكر كنت توشك مغادرة عالم الغفلة وولوج عالم الصحو. لكنك سرعان ما عدت تتهالك على المخدرات. اعترفت لي أن الرائد هدد بزج مريم في السجن إن لم يسلم محجوب نفسه. واعترفت أن محجوب كان مختفياً في منزلك. قلت إنك منهار. اعترفت للرائد بوجود محجوب في منزلك. كنت تنتحب ثم تضحك ثم تصمت مذهولاً وتغيب في عوالم لا أدركها. وتتركني. أحدثك عن النقابة فتحدث نفسك عن الرائد. أقول لك جامعة لومومبا فتقول بيروت. ثم أدركت أن التواصل بيننا مستحيل. ودخلت في اليأس والسخط. فثرت وصرخت في وجهك. تناولت زجاجة الويسكي وقذفت بها إلى الجدار. تكسرت. صرخت في وجهي مشيراً إلى شظايا الزجاجة المنتثرة:

ـ أنا هذا..

ودهمتك حمى مجنونة فاندفعت نحو النافذة تصرخ وتنشج:

ـ لم أقتل فرج الله ولا محجوب.. مريم.. صدقيني. أقرأ عن المادية الجدلية هذه الأيام.

وارتعدت أنا فحاصرني الذهول واختنقت في الأسى. وإذا بك تضرب زجاج النافذة وتصرخ:

ـ أريد أن أتنشق كمشة هواء.. أختنق. لا أوكسيجين إلا في بيروت.

وبربرت كلمات لم أفهمها ثم قلت إنهم يقنصون الرئتين في بحر ميت ينبع من خليج ويصب في محيط. لست سمكة أريد أن اتنفس أيها العالم القحبة.

● الجميع يتواطأ ضدي. المؤامرة عالمية. مصادرة الأوكسيجين ونشر البحر الميت. وأين تذهب مريم بيروتي بقلقها.. والقلق لا يحيا في بحر ميت. لا شيء يحيا في البحر الميت سوى الموت والصمت المطبق.. وسراب السيارات الأمريكية الفارهة، وآلات التسجيل اليابانية الفاخرة. وأفيون الوكالات. اختنق. والد مثقال الميت وسائق التكسي المرحوم وشيخ العشيرة الجثة والبقال المحتضر.. كلهم أمواج تدفعه وترده. تشده إلى أغوار الموت السحيقة.. ويقاوم. في لحظة ضعف بكى مثقال. قصد النقيب توسله أن يزج به في السجن. تضاحك النقيب. قال هذا حلم لن أنجزه لك. لا لم يقل ذلك بالتحديد. قال: هذا شرف لن أمنحك إياه. قال: لن أجعل منك بطلاً وشهيداً. اذهب وتسكع في المقاهي والشوارع بلا عمل ولا وظيفة حتى تنهش عيون أحبائك قناتك التي لا تلين يا جيفارا باشا.. ومنذ تلك اللحظة صار رأس مثقال يابساً كالصخر. يستنبت التفاؤل من مجاهل سراب واقعي، ويغتصب الصلابة من هالة الجرح. وكان له وجه الزهو يبزغ كقرص الشمس في أفق الفجر. إذ قال القوم إنه الغروب والوجه يغرق في الماء الميت. لكنه كان يطلع على جدار الأفق مشعاً فيذوب الجدار وتنفتح مساحات مترامية تهرول فيها المخيلة والأيدي والأقدام. ولم ينتشلني كنت أغرق في الظلمة.. وكنت أرمق الرائد بنظرة مستريبة حين زارني. وشيعته بنظرة مستريبة حين اختفى. ونسي ولاعته في بيتي. رمقتها بنظرة حذرة. لعلها آلة إنصات. وقذفت بها بعيداً بعيداً. وركضت وركضت أشق طريقي وسط تزاحم اللغط. وحفيف الهمس المتواطىء. فاذا بي أقف في «عين المريسة» لاهثاً. المطر ينهمر بغزارة. كان ينهمر. ظل ينهمر. دلفت إلى حانة. فاذا بجمجمة محجوب صحن سجائر. وانتحر تيسير. تحطمت قناتي وقال تيسير أنت منذ اليوم. ولم يكمل. قال أجود بالمبتدأ وما عندي خبر. ونمت غابات التساؤل ومالت صوب يباب الجواب.

ماء الحياة فيَّ نضب. غادرت الحانة هلعاً. ثملاً. اترنح. تعبرني علب الليل في الزيتونة. قال تيسير[1]:

«أنا يا صديقي
اسير مع الوهم، أدري
ايمم نحو تخوم النهاية
نبياً غريب الملامح أمضي إلى غير غاية
سأسقط لا بد، يملأ جوفي الظلام
نبياً قتيلاً وما فاه بعد بآية.

وقال:

غديرك بعد،
إذا ما التقينا بذات منام
تفيق الغداة وتنسى
لكم أنت تنسى
عليك السلام..»

وانتحر.. ولم انتحر. كيف تنبأ بأننا سنلتقي بذات منام واني سأنسى. وها نحن نلتقي بذات منام طويل مديد. وثملاً أنسى. اضطرب بين الحانات أتلاطم مع الجدران، أتساقط، أتناهض، أتيامن، أتياسر من «دخلة مطعم هاشم» في السوق إلى «الحمراء». وباغتني الغزاوي في اضطرابي. نبت من قلب العتمة كوردة المفاجأة. وتشتعل عيناه:

ـ اصعد معي في السيارة.

كنت أتشاجر مع رجل آخر، ربما ظلي. واشتم امرأة، ربما الليل. ترنحت ورميت الغزاوي بنظرة مسعورة متقدة. قبض على ذراعي. حاولت التفلت بلا جدوى. الغزاوي ناهض في السماء عريض الأفق. صاح:

ـ ما الذي تريده؟

والمطر لا يكف ولا يني..

(١) تيسير سبول: أديب اردني مبدع.. انتحر في ٧٣/١/١٥ برصاصة سددها إلى رأسه.

دفعته بقوة وانتفضت متراجعاً زاعقاً:

ـ الانتحار.

حدجني بنظرة مغيظة ومضت في رحم الليل واشتعلت في عباءة الكون السوداء. سحب الغزاوي مسدسه ثم مده نحوي وقال بحدة:

ـ هاك. مت بكبرياء. خذ مسدسي واطلق رصاصة الرحمة بين عينيك.

عرتني قشعريرة يأس زنجي. ألقيت نظرة متساقطة على المسدس. تساقطت على المسدس مع المطر. وإذا بي أنهار على نحو مباغت كالاغتيال. أدفن رأسي في صدر الغزاوي وأنشج نشيد الانشاج:

ـ دمروا الحلم يا غزاوي، انه الانفصال. عن الحياة. لا وحدة بعد اليوم. عدت أتجزأ.. وكانوا فصلوني بعدما ذاب محجوب مثل قرص من الملح في موج البحر الميت. ما عاد لي حلم ولا مبرر وفقدت معطفي في إحدى الحانات وكمال فقد مظلته وقال: يا من رأى مظلتي تضيع.

ربت الغزاوي على ظهري كأنما يداري طفلاً صغيراً. شهقت وأنبأته بأن الرائد كان نبياً صغيراً.. فاذا هو صغير ولا نبي. أخذ بمرفقي في رفق وصمت. فتح لي باب السيارة.

في شقته. دلف إلى المطبخ ليعد لي فنجان قهوة مرة يردني إلى اليقظة المروعة. لم أدر أي شيطان ركب عقلي. فإذا بي أثور إلى الحمام أفزع إلى شفرة الحلاقة وأضرب شراييني، الدم ينفجر بقوة هائلة يرش الحائط والمرآة وقميصي وبنطالي والأرض ووجهي. والعالم بكل ما فيه من نوافذ مغلقة وإقامات وليل.

صفعني بقوة. سقطت الشفرة. سارع برش المطهر على الجرح وربط الرسغ بشاش أبيض. كنت متكوماً على الأرض، أحدق إلى أنقاضي. مذهولاً كالسائح. صرخ الغزاوي ورشني رذاذ ريقه:

ـ جبان. تتوسل الانتحار؟ لماذا لم تطلق حين ناولتك مسدسي؟

لم أنبس. أتدفق كالدماء. تزحف قدماي إلى غرفة النوم. وجهي صامت مطرق. وأنا مظلم الحس. بلا ضوء. انهار جسدي على السرير كسد مأرب. والجرذان أحلام ضمنتها نورس في بداية البداية. كنت أحدق إلى السقف ببقايا عينين

واسعتين. وبصري يتكسر إلى ملايين.. غبار وركام. وأكبو في ليل لزج طويل. الغزاوي يراقبني حائراً. قلت له إنني خرجت وشعور بالزهو والقوة ينتابني بعدما ضربت الشاعر في الزنزانة. لم أحك.. عيناي قالتا. قلت له إن الرائد زج بي في السجن وكنت توأمه. وذاب محجوب كقرص ملح.. وأنا رأيت نجوم الظهر في وضح هاجرة محرقة. وإن النقيب زج بي في السجن ولم يرني إلا نجوم الليل. وكان وجه مريم يطلع من كل وجه. مظلة من الوجوه فوق وجهي.

ولم ألتق في الشارع إلا بمحجوب وكان وجهه طالعاً في كل وجه. وكان الرائد بعد الانفصال ينتحر.. وأنا. وقال لي حين زرته في المصح أنني كنت أعيش عقلية النضال السلبي. قال إنه ينتقدني نقداً بناء. قال أنت كنت تحيا زمانياً ساحة المعارضة وتتحرك مكانياً في ساحة السلطة.

وقال الرائد: اسمعني من القصائد التي وضعت أيام كنت شاعر ثورة الوحدة. فأنشد الجرح القديم:

هل أنا شاعر الثورة
أم أنني الكبش
والملصق القادم
إني مع الثورة حتى يقودني
رفيقي القديم في السلاح
إلى زنزانتي
أنا السجين في ثورتي
وهي حريتي[1]

قال الرائد إنها قاسية وإن عبد الحميد لن يسمح بنشرها. وقلت إننا نخلط بين الأزمنة والأمكنة. كوكتيل أزمنة وأمكنة. والماء من لون الإناء.

عانقني الغزاوي حين وصلت بيروت وقال يعتمر الدهشة:

ـ أي شيطان دفع بك من عالم الاستقرار والسكينة.. إلى عالم الخطر والاضطراب؟

قلت:

---

(١) من قصيدة لمعين بسيسو

ـ أبغض السكينة.

ولم أفصح. لوحت مريم بيدها من بعيد. وكان بطنها المنفوخ.. في الشهر التاسع.

● كلمات عناد الشاهد تقرص عصب الرائد. للوهلة الأولى تبسم الرائد ابتسامة ساخرة في وجهه. لكن في عيني عناد ليل وخيبة مضرجة بدموع ناضبة لا تبزغ. فعبس الرائد. وصوب إلى عناد نظرة كاوية وصعدها. وعناد يوغل ويقول إن أجهزتكم دمرت الحلم وستدمر مدينة الحلم. وامتيازاتكم طبقة جديدة تنبت كنبات طفيلي ناري في مستنقع مظلم. ويضع الرائد يده فوق جبينه ثم فوق عينيه. ثم يزفر. ثم ينفجر مغيظاً من الضمير في أجهزتكم وامتيازاتكم فيصرخ:

ـ من هم «كم». ألست منا؟ تتحدث عن الطبقة الجديدة. ولا تتورع عن اتهامي شخصياً وتنسى أنك تنتمي أصلاً إلى البورجوازية بينما أنتمي إلى الكادحين.

جهم المحيا تتلهب النار في عروقه. يطرق عناد مهموماً ثم يرفع رأسه. بصوت له إيقاع موسيقي جنائزية:

ـ كلانا خائن لطبقته.

● في عيني مريم حساسية العصب وقسوة الصدمة. تحرس البحر والغزاوي. البحر يكركر ضاحكاً يكتم ضحكته. لكنها تصخب. وضحكة الغزاوي مرة مثل قهوة البدو.. وتخب. قال:

ـ هاجرنا ثلاثة على أربعة أقدام. كنت جنيناً في رحم أمي. وكانت أقدامها ترسم قدري.

لم تضحك مريم. وذهبت أفكارها إلى المحيط الهادىء فثار ساكنه وطاش. وعيناها إلى البحر المتوسط فاستحال متطرفاً. وما قالت إنها لا تحب الحرب ولكنها تحارب.

عند الأفق وقف مثقال. عيناه في الرحابة وقدماه في الضيق. يشير إلى الأفق. ثم يرفع رأسه:

ـ بوادر أمل عظيم.

عناد لا يضحك. وحشة تباغت قلبه. يطلع وجه محجوب عبد الساتر من كل

وجه ويطلع وجه فرج الله يقتحم وجهه ويذوي الشعاع في عينيه. يشيح. لا يقول:

ـ الأفق خط وهمي، كلما اقتربت منه نأى عني.

مريم سر.. وليس أقبل للسر من الفرار، عناد يفتح كفيه ويقبض على الريح.

سوزي ـ زوجة الرائد ـ خطرة مختلسة. وعناد يهب ليغتنمها. لكن السراب يقول: لا لم يحدث شيء من هذا كله. إنما هي وهم مثل كفى. رآه في غفلة الهلوسة الخرافية. جسد سوزي محال، يتحرق لتحويله إلى احتمال.

أبو الموت اشترى مصفاة للسجائر. والقذائف تتساقط كالمطر. والمطر ينهمر كشعر مريم وأبو الموت يدس السيجارة في فوهة المصفاة. يرغب في الحياة. يرغب عن الموت، لكن القذائف وفوهات المدافع.. في الحمراء. في ملهى. توك أوف ذا تاون. يلكز عناد مثقال. يهمس. إذا أردت اغتنامها راقصها. نظرات مثقال المتوقدة بدو يجوبون جسدها البض الباذخ يبحثن عن الكلأ والينابيع.. والأنهار. وينهار. والخمرة دربه إلى الجرأة. الموسيقى الصاخبة تعتقل قلبه. لم يرقص في حياته. انتظر لحظة يقول. ينشد المزيد من الجرأة ليرقص.. أو يقع تحت سطوة السكر. وحين تقبل الجرأة وتندفع إلى قلبه على صهوة الكأس الخامسة.. يهرب الرقص والمرأة والمكان ويتوارى الزمان وراء الأكف والعيون والخصور وغابة السيقان المجنونة حيث تعصف نوبة الطيش. وينهار. يرقص أو يسكر.. يسكر.

رماني مثقال بعد أن تصفح بعض أوراق مشروع روايتي: «اعراب» بتهمة تزوير الأماكن والأزمنة. والأسماء.

ويرده صوت عبد الباسط عن جسد المومس. ينهشه الاحباط. أهذا وقته يا عبد الباسط؟ وعبد الباسط رغم المادية الجدلية يعشش في أغواره السحيقة. يجلل عقله النائم كالأميرة.

النوم سلطان يستعبده عناد باشارة من زجاجة الفاليوم. سوزي تقول عناد الشاهد متخلف وأحمق ضاجعني انتقاماً من الرائد.. لكني تمنعت. وسوزي تقول عناد معقد من ماضيه. الندم يبسط سلطانه عليه. ولماذا الندم؟ ما الحياة سوى امرأة تقبل ثم تمضي مرة واحدة لا تسع. ويقول عناد أنه نادم لأن الحياة مرة واحدة لا تسع ولا خمس.

لكن جسدي التحم بجسد كفى فتضرجنا بالعـرق واللهاث والعجز.

وقال مثقال إنهم هناك يكتمون أنفاسهم وأننا هنا نكتم أنفاسنا. وكواتم الصوت تكتمنا.. ويحبسوننا مع انفاسنا. وقال شتان.

وقالت الصحيفة إن الجماهير كتمت أنفاسها لسماع خطاب الزعيم. والضباب يجثم ثقيلاً. وكذلك كفى. لكن البحر في بيروت يدخن وينفث في وجه الجبل المتجهم الجعدي الشعر الأخضر دخانه.

سألت تيسير ماذا تكتب هذه الأيام. قال وصيتي ولم يضحك. وسمى مدينته «هجير». وألحت فسألته ألا تفكر في أن حرب تشرين حققت انتصاراً ما حزيران. قال أفكر في سعر اللحمة والبندورة. والمساء كئيب. والجهات مسدودة. ففتح ثغرة في رأسه. وراح.

وفوهات المسدسات مفتوحة. لكن الجهات.

انسحبوا إلى عرض البحر فتنفس الغزاوي الصعداء وأقبل الفجر ولو متأخراً وكانت الجهات مفتوحة على مصارعها. انفتحت السماء على اتساعها فطار منطاد وطائرة صغيرة وبنادق، وفتح البحر صدره ونشره فركبته دلال المغربي ورفاقها في زورق مطاطي انطلق برفقة ريح حليفة وموهوا أجسادهم بين الموج. وانفتح البر فيمم لينو ورفاقه صوب الجنوب.. وضربوا.

وكنت أختنق في الحر. والرائد يأتي بوجهه إلى مبردة الكوندشن وكأنه يتطلع في مرآة. ويحاضر عن الفارق بين الزمن السلبي والايجابي بين الحكم والمعارضة. وكنت التلميذ الوحيد. لكني لم أدون.

اذني معرضة ووجهي مشيح. ولكن.

وبيروت تخب بين الأضداد فتذهب الحمراء إلى باريس وتعود ناقصة وتذهب صبرا إلى هانوي وتعود مختلفة. الليل مدحور ومريم تذهب بعيداً في الخمر وتتقدم. ونسبح في جدول الليل والريح تعبث بشعر مريم والخمرة تعبث بعقل مريم ووجهي يبعث أحزان مريم. وتقودني إلى شقتي أتقهقر فتجرفني. ولا منجى. ومريم جميلة كملاذ في لحظة الخطر المباغت. وأخذت اقنعها بالعدول عن زيارتي في خاصرة الليل هذا. وأخذت تضحك. والكارثة تقبل كالفجر المحتوم وكنت اعرف.

ومالت عند باب الشقة فتيامنت وتياسرت ثم قالت تذكرني بأنسي.. أتيك مبهمة متوارية قالت: دخلتني جهراً وغادرتني سراً.

خلعت ثيابها وأنا أنكسر وأركض إلى المطبخ أعد لها فنجان قهوة علها تلج عالم الصحو. وكانت تضحك ضحكة معتمة. وعيناها مشعتان بنار يذيب شظاها تماسكي. قالت هذا آوان الاعتراف يا قديسي الجلاد. وكنت نابتاً فذويت. توسلتها أن تحتسي القهوة فضربت الفنجان بيدها وطوحته بعيداً. وقلت وقلت وانثنى صوتي في نبرة التوسل والاستجداء.. لكنها تتعرى وتضحك. ها جسدي تقدم أيها الفارس. واندست الكهولة في شبابي كما الخمرة في دمها. دنت مني عارية إلا أنني تراجعت ولم أرَ. وصرت أنقاضاً وكانت تعيث فيَّ الخراب. وتهدمت متهالكاً على كنبة كجبل اقتلعته عاصفة خرافية وبددته تبديداً. مرت على شعري بيدها، وكفت عن الضحك. وكنت أنتفض ويخضني زلزال يضطرب في قلبي. همست بصوت كله يقظة:

ـ أتخاف جسدي؟

وصمتنا.

ـ تخشى على بكارتك؟

وكنت أدرك أنها تدرك.. لكنها تناور كفارس لا يشق له غبار.

ـ ترى إلى ممارسة الحب إذلالاً للمرأة. كسراً لجناح الكبرفيها؟!

كانت تقرأ أفكاري. تعريني وأنا اعتصر في المعطف. تكشف عورتي رغم الثياب الداخلية والخارجية والكنزة الصوفية والمعطف الثقيل.

تابعت قراءتها بصوت رفيق يميل بين رقة عتاب وشفافية حسم.

ـ يعذبك قتل محجوب عبد الساتر. ابن خالي. وفرج الله.. ترى أشباحهم ورفاقهم في النوم واليقظة؟!

ما كانت تتحدث بلهجة قارئة الكف. تتساءل فقط.

ـ تقول لنفسك طعنتها في ابن خالها. ولن أطعنها مرة أخرى بمضاجعتها؟!

أخذت أطلال وجهي السابح في عرق يسبح في دموع تغرق في حمى الاحتقان، بين يديها. أنا طفل صغير وهي أم تعاتب برفق.

ـ ممارسة الحب في نظرك طعنة.. أليس كذلك؟

وغبت في نشيج داخلي عنيف.

ـ لم يغتصبوني في سجن عسقلان فقط.. اغتصبوني في سجن عربي آخر أيضاً.

وكنت عالياً فأسفلت.

ـ وفي السجنين كانوا يرون إلى الجنس رؤياك.

وكنت نقياً فتلطخت.

ـ أتعتبر نفسك مسؤولاً عن كل جريمة ورذيلة ارتكبت وترتكب وسترتكب من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب؟!

وكنت جباراً فانكسرت. ارتعش بين يديها ويسقط جأشي في الرعب.

ـ وأنا أخشى جسدي وأبغضه. أهيم بالكامل المنيع الخالد. وها هو أمامك معرضاً قابلاً ناقصاً.. وزائل.

جثوت على قدميها وانتحبت. فجثت وأخذتني بين يديها وغابت في بكاء طويل متصل.. ترثيني.

ونهضنا.

ـ مسقط رأسي ـ

اضطجعت في بحيرة العرق اللزج. اندست كفى إلى جانبي وأطلقت يدها في صحراء جسدي التي شواها قيظ الانكسار، وانهكتها عواصف المخدرات المعتمة. انقلبت على ظهري ذبابة تحوم وتحط ثم تطير تقرع اذني بطنينها. كفى تغتصبني. تتوارى ملامح من وجهها وراء شعرها المديد المنسكب على طرفي وجهها.. وحطام جسدي. رفعت إليها عينين لم تغادرا عالم الوهم والغفلة تماماً. رمقتها بنظرة ذاوية وغشت على عيني غمامة كآبة وخوف مسبق من العجز والاحباط. قالت من وراء شعرها:

ـ أنت تدفن نفسك في هذا البيت.. لماذا لا تخرج وترى العالم؟

غمغمت شارداً:

ـ بحر ميت. ينبع من المحيط ويصب في الخليج. ميت.

وترامى إلى مسمعي صوت محمود درويش: من المحيط إلى الخليج.. كانوا يعدون الجنازة.

قالت إنها تحبني. داست شفتاها عنقي وانقاض جسدي. بدأت تلهث. حاولت أن اتقلب متفلتاً فتقلب جسدها متناغماً مع حركاتي. استنجدت عيني بجسدها العاري تستجير من الاحباط والفشل.. وتلتمس اللذة وإعلان الفحولة. لكن جسدها الناحل وصدرها المنبسط كسهل ورائحة عطرها الرخيص أوصدوا أبواب الإثارة في وجهي. فزعت إلى جسد سوزي. لاذت به الذاكرة واستجارت به المخيلة. همست كفى، وما عرفت لهمسها سبباً بيناً:

ـ نصف الألف خمسمائة.

وما كانت تعلمني الحساب.

أنقاض جسدي تتهدم تحت وطأة جسدها. وبالي يحوم حول سوزي. لكن سوزي تستعصي وتتأبى. تأتي ملامحها مجزأة. تضمني كفى بشغف اليائس. أتصبب عرقاً. قالت وأنفاسها تتردد على أذني:

ـ أحبك.

أعرف أنها تكذب.

يلتحم الجسدان التحام فكرة مجردة بواقع تنهشه الحمى. الدمار باهر. تلهث. ألهث. أرغب في سيجارة. تقززت نفسي حين قالت أحبك. سوزي تخذلني. تعرض وتشيح. الملم كل حواسي وأركزها في جسد كفى. غير أن تركيزي ينزلق مع العرق. وليتراءى لي النقيب وهو يضاجعها. شفتاها تدوسان ساقي. لكن صحراء جسدي يابسة نضبت نضارة واحاتها. فلا ينبت فيها حي ولا ينهض منها ناهض. جسدانا يتضرجان بالعرق. النقيب يضاجع كفى. يعتليها كفارس منتصر ويرمقني بنظرة شامتة يقول متضاحكاً متشفياً إن الفرس من الفارس. سوزي تقول وهي ترمق جسدي الذي انقلب بعد أن ظفر بالنشوة بنظرة مهدمة:

ـ ممارسة الحب معي في عينيك انتقام من الرائد. أليس كذلك؟

دخنت سيجارتي في صمت. كنت أحدق إلى السقف. هتفت بيأس:

ـ متخلف رغم كل ثوريتك الظاهرة المزعومة.

أشحت بوجهي ولم أنبس. أعرض بصري عن جسدها العاري المهزوم، كل ما أرغب فيه هو مغادرتها لفراشي.. بل للبيت. انصرافها عني. مؤقتاً لأتمتع بانتصاري على الرائد وحيداً.

قالت وهي ترتدي ثيابها:

ـ الجنس في عينيك حرب.. إما أن تنتصر فيها أو تهزم..

قاطعتها بلا مبالاة وأنا أتقلب على السرير واستقر على ظهري:

ـ كذب.

أرسلت ضحكة لا تصدر إلا عن مفجوع يداري فجيعته ويتكلف البهجة. قالت:

ـ إنك تستهين بذكائي. كلكم صنف واحد في الأعماق.

حين فتحت الباب الخارجي هتفت:

ـ لن يقع بصرك علي بعد الآن.

كنت أعرف أنها ستعود.

بعزيمة سيزيفية عجيبة تلح كفى على استنبات غابة شاهقة في صحرائي التي قتلت المخدرات وأحرق أتون القيظ جذورها الضاربة في الأعماق. يتقلص الجسد الذاهل. يسقط رأسي على ذراعي، تنشقت رائحة العرق تحت إبطي، دهمني إحساس ثقيل بالخجل، كان علي أن استحم. رائحة العرق تمتزج بعطرها الرخيص فتعبق رائحة نتنة. لكن كفى لا تيأس بسهولة. تهب علي مثل قبائل همجية تحمل عواصف صحراوية وهواجر تصهر الأجساد والصخور وتدسها في جسدي لتنهب خصوبة فانية. تميل وتنطوي وتنتشر وأنا أتأرجح بين المخيلة والذاكرة. وأراقب.

أفزع إلى مريم. يجيرني وجهها وأنا التمس الجسد. لكن جسدها يخذلني. يتنزه عن ذاكرتي. إنني مريض. قلت لنفسي. جسدي حصن منيع. أخونه لكنه لا يسقط أمام هجمات اللبوة الضارية اللاهثة. يحتقن صدرها. يتصاعد ويتموج يلتقط أنفاسه. يزعزعني، أبقى بلا حراك. ميت يغرق في بحر ميت مالح. نفضتها

رعدة المحموم ثم هتفت تستسلم لخيبتنا:

- إنها المخدرات والمسكنات.. هدت جسدك هداً.

أحدق إلى السقف محرجاً. تنقلب عن جسدي. تلتقط أنفاسها.

البحر يتلاطم. طار صوابه وطار رذاذه. يندمج جسدي بجسد مريم. ننهض من البحر نرتقي جبل النشوة. يجود جسدها عليَّ بمفاتيح عرش الذروة. ترفعنا موجات بحر جامح مجنون وتحط بنا على ذروة النشوة. يأتي صوتها طيفاً أنيساً يقذف باستيحاشي صوب الماضي:

- لو نبقى هكذا إلى الأبد.

تواصلنا أرقى أشكال الحوار.. يتخطى الاشارة واللغة، يلج عالم الاتحاد الكامل. عند قمة جبل النشوة نستحيل إلى جسد واحد يحاور نفسه، لا تجزئه.. إلا القذائف.

تنهمر القذائف.

يتساقط المطر.

ينهال شعرها على صدري.

● واستجير بها.. فيصد جسدها ذاكرتي، فيقبل وجهها دونه. ألوذ بها مجتمعاً عن تفرقي. بلا جدوى.

تتكوم كفى على الفراش. تنكمش صامتة مطرقة لا تنطق ولا تتزحزح. ألجأ إلى المطبخ منهاراً مرضوض البال. أتناول زجاجة أخرى من البيرة الساخنة. إحساس غامض يجتاحني: متعة الهزيمة.

عرض الرائد علي تقارير تشير إلى أن رجال مخابرات موطني يعدون لاغتيالي. قال الرائد بلهجة جادة:

- ينبغي أن نوفر لك الحماية.

تناولت التقارير وطالعتها بعين مستريبة. ثم وضعتها جانباً وسخرت منها مقللاً من شأنها. قلت إن خيال عيونك المبثوثة في كل مكان واسع.

رفع الرائد ذراعيه وهز كتفيه ثم قال:

ـ أنت حر. ما على الرسول إلا البلاغ. ولكن إذا حدث لك مكروه لا سمح الله فلا تقل إنني لم أحذرك.

انفجرت ضاحكاً باستهانة وقلت:

ـ اطمئن، لن يجعل مني رجال مباحث بلدي شهيداً بطلاً. إنهم يعرفون انني قنبلة انفجرت مرة فزال خطرها. القنبلة الواحدة لا تنفجر مرتين.

في تلك الليلة بالذات وبينما كنت أقود سيارتي الصغيرة باتجاه بيت مريم، لاحظت في المرآة سيارة تتبعني، انفتلت بسيارتي في شارع عريض مقفر فانفتلت تلك السيارة ورائي. ثم انطلقت بسرعة مجنونة وحاذتني، التفت بحركة سريعة نحوها، فاذا بأيدٍ تمتد من النوافذ وتطلق علي النار بغزارة. باغتني اطلاق النار، انحرفت بسيارتي الى اليمين ثم درت في الشارع دورة سريعة فكادت سيارتي تنقلب. كانت غريزتي هي التي تتحكم في أفعالي. دارت السيارة ثم انحرفت واصطدمت بعمود كهرباء. كل ذلك حدث في وهلة خاطفة صادرت حواسي وتركيزي وطوحت بي في عالم الاضطراب والغفلة. ارتطمت سيارتي بعمود الكهرباء فضرب رأسي ببوق السيارة. الليل يهدر كبحر والصدمة خضت كياني، خطفني الهول، ثم ردني صوت البوق المتصل إلى يقظتي. كانت السيارة الأخرى قد اختفت في مغارة العتمة الهائلة. ألهث وقلبي يثب إلى أمام. مشت رعدة في أعضائي ولبسني الذهول. لم أدر كم انقضى من الوقت وأنا أحدق إلى الليل غافلاً عن كل أمري. ثم غمرني شعور مفاجيء بذلك السكون العميق الذي يشعر به الهائج المصروع بعد استفاقته من صرعه. رفعت رأسي عن المقود وانتفضت جزعاً حين اكتشفت دماء تجلل وجهي. قلت في نفسي: «انني اموت» وكدت أترجل من السيارة وأقف في وسط الشارع وأصرخ طالباً النجدة. لكنني سرعان ما أدركت أن الجرح ناتج عن ارتطام رأسي بالمقود. تحسست جسدي. إذن أخطأتني رصاصاتهم. تحسست جيوبي بحثاً عن سيجارة. كنت مستعداً لأن أدفع مائة دينار مقابل سيجارة. وجدت علبة سجائر في صندوق السيارة الصغير المجاور للباب الأيمن. أشعلت سيجارة بيد مرتعشة. كان قلبي مزلزلاً أخذت نفساً عميقاً وقد غام عقلي فكنت كالسائر في منامه. بدأت أفيق من حالتي التي لم تكن غيباً ولا صحواً. وفجأة حين أدركت ما جرى بوضوح. انهارت قواي انهياراً شاملاً. ترجلت من السيارة مسروق القوى. رجلاي ترتجفان

تحتي تفحصت السيارة. . كان الرصاص قد اخترق الباب الخلفي والنافذة الخلفية تأملت الثقوب التي طرزت الجزء الخلفي من السيارة، مشدوهاً فاغر الفاه. استندت بمرفقي على سطح السيارة ودفنت وجهي بينهما. كنت التقط انفاسي وأحاول التماسك واستيعاب ما جرى.

وافقت على اقتراح الرائد بحمايتي.

قلت لمريم إن حياة المناضل ركوب بحار صاخبة هوجاء، وليست سباحة في ساقية. أشرق وجهها. تبسمت. قالت باقتضاب:

ـ أحبك.

قلت:

ـ الزمن غدار. . قد ينقلب يوماً، فاذا بنا ننتقل من هذه الفيلا لنفزع إلى غرفة موحشة أو قبو نختبىء فيه فلا نرى الشمس. وقد ينقلب رجال الحماية هؤلاء إلى سجانين يضطهدونني.

قالت بامتعاض:

ـ أوه. . أنت سوداوي. إنهم يحبونك ويسهرون على راحتك وحياتك.

واقترحت أن نذهب لنتناول غداءنا في مطعم يقع في طرف المدينة. ما كدنا نغادر بوابة الفيلا حتى هرع مرافقي الأول يسأل بكل أدب وانضباط:

ـ إلى أين سيدي؟

التفت إليه فألفيت رجال الحماية الآخرين منتصبين كالرماح خلفه. تبسمت وقلت:

ـ أرغب في أن أتمشى مع خطيبتي في الحديقة القريبة، ثم نمضي إلى مطعم في طرف المدينة. . أي اعتراض؟

نكس مرافقي الأول رأسه إجلالاً وبدا وجهه الصارم الجاف متشنجاً. قال بصوته الذي ينم عن احترام مقرون بجدية مبالغ فيها:

ـ سنرافقك سيدي. الوضع الأمني لا يسمح. .

هتفت محتداً أقاطعه:

ـ يا أخي أقول لك أريد أن أشم الهواء مع خطيبتي.. وحدنا. ألا يحق لي أن اتمشى مع خطيبتي وحيدين؟

تجهم وجه مرافقي الأول وسارع إلى القول وهو يحني رأسه إجلالاً:

ـاستغفر الله سيدي.. إنما كنت اقترح مرافقتنا حرصاً مني على أمنك.

نفخت وهززت رأسي موافقاً قلت:

ـ حسناً. سأستقل السيارة. لكن دون مرافقين.. أنا وخطيبتي فقط.

ظل وجه مرافقي الأول متخذاً ذات الملامح المحايدة المغلقة التي لا يسع بشر أن يقرأ فيها حزناً أو غضباً ولا فرحاً أو نشوة فلم ينفتح قلبي له. أما السائق فقد آنست في عينيه دفئاً يبعث في النفس شيئاً من الاطمئنان والالفة. قال مرافقي وأنا أهم بركوب السيارة:

ـسيدي.. ماذا لو بنشر الدولاب في الطريق؟ أتوسخ يديك لاستبداله بالاحتياطي؟ ينبغي أن يرافقك ولو واحد منا فقط.

عنَّ لي أن أبوح له بأني كنت طوال عمري استقل الباص.. لكنني أمسكت خوفاً من أن يصفعني بنظرة ازدراء أو دهشة. في تلك اللحظة فقط لاحظت أن مرافقي الأول يرتدي قميصاً أصفر وربطة عنق برتقالية مرقطة ببقع خمرية وبدلة خضراء ثمينة. بدا لي المرافق مهرجاً. سألته:

ـ لماذا ترتـدي سترة وربطة عنق ونحن في عز آب؟؟

وفرقعت ضحكة مجلجلة حين انتبهت إلى أن كل رجال الحماية يرتدون بدلات ملونة بطريقة تثير إحساساً بالتنافر الصارخ.

سلط رجال الأمن علي نظرات حانقة دهشة في آن. تقدم مني المرافق الأول. مال نحوي وهمس:

ـ سيدي. من المفضل مغالبة الضحك أمام الناس لرجل في مقامك. الضحك يذهب بهيبتك.

لعنت الرائد وفكرة حمايتي ومحاولة اغتيالي في سري وقلت بعصبية:

ـ أفعل ما يحلو لي. هذه سلطة الشعب، وأنا أتبسط مع الشعب.

حول المرافق الأول وجهه المحايد عني. ولاحظت أن وجهه يثير غيظي. شعرت بأني أمقته.

سألته مريم قائلة وهي تكركر:

ـ ألا تختنق في هذه البدلة ووهج الشمس يصهر الجلود؟

استقبل المرافق الأول ملاحظتها باذن معرضة وبمقدرة عجيبة في مداراة غيظه. لكنه لم ينجح في اخفاء نظرة لو نطقت لقالت إنني احتقر جميع النساء. أنا مرافق الاستاذ لا مرافقك.

رفعت ذراعي مستسلماً، لوحتها وهتفت بامتعاض وضيق:

ـ كل هذا سخف. سخف. الوضع كله سخيف.. حسن.. هيا. لنستقل السيارة وليرافقنا المرافقون.

انطلقت سيارة المرافقين وراء سيارة المرسيدس الفخمة مرسلة موجة من الغبار.

في المقعد الخلفي لسيارة المرسيدس ذات الستائر السوداء جلست ومريم. زحفت يدي لتضم يدها فسحبتها بحركة عنيفة. رفعت عيني مستطلعاً. همست مغضبة:

ـ تنازلت.

ـ ماذا؟

ـ تنازلت له. أذعنت لشروطه.

ـ هش. انه يسمعنا.

كان المرافق يجلس حد السائق في المقعد الأمامي. احتجت:

ـ لم يعد الواحد قادراً على الكلام حتى.

السيارة تطير. خفق قلبي. قلت للسائق:

ـ خفف السرعة، لسنا في عجلة من أمرنا.

رد المرافق الأول دون أن يلتفت:

ـ السرعة سيدي ضرورية لأسباب أمنية.

برمت مريم شفتيها وقلبت سحنتها. همست في أذنها مطيباً خاطرها:

ـ إنه يعرف واجبه. يعرض حياته للخطر من أجلي. ثم انه يتحدث بأدب وانضباط.

افترت شفتاها عن ابتسامة عريضة. مالت نحوي وقالت همساً بنبرة ساخرة:

ـ تروق لي كلمة «سيدي».

رمقتها بنظرة حائرة. قلت في نفسي: «الرجل لا يفهم المرأة ولن يفهمها أبداً». مرقت السيارتان بمجموعة من الفلاحين كالومض الخاطف. لمحتهم يلوحون بأيديهم. مددت ذراعي من النافذة وتبعتها برأسي ثم لوحت لهم بحماسة، هتفت:

ـ وعليكم السلام.

لكنهم بدوا نقاطاً صغيرة نائية. وهنا اكفهر وجه المرافق لأول مرة، انتفض ممتعضاً والتفت. قال بصوت بدا مسرف الوقار:

ـ سيدي. حركة بطيئة متأنية بيدك من وراء الزجاج تكفي.

وهنا كدت أن أنفجر غيظاً، فقد نفد صبري وما عدت أطيق «تعليمات» مرافقي الغبية. وقلت في نفسي لعلي أحلم لكني صرخت بصوت هائج وقد شع ومض مسعور من عيني:

ـ قف. أوقف السيارة. وأنت انزل. لن تظل معي في سيارة واحدة. و. انبثقت إلى يساري سكرتيرتي واختفت مريم ربتت على يدي تطيب خاطري وتهمس:

ـ انما هو ينفذ تعليماته.. الحقيقة أن شرح البروتوكولات وكيفية التصرف كقيادي هو مهمتي لا مهمته. لكنه شاب متسرع ويبدو أنه يحبك ويحرص على صورتك أمام الناس.

استولت علي الدهشة للوهلة الأولى ثم لزمت الصمت متحرقاً مغتاظاً. وأكدت لنفسي أنني أحلم. غير أنني ما كنت أحلم.

حين اقتربنا من المطعم قلت للسائق أن يدير المذياع. فاذا بالسكرتيرة تبسم في

لياقة ورقة وتقول:

ـ تعليماتهم الأمنية لا تسمح لهم بادارة المذياع والسيارة منطلقة. طبعاً لأسباب أمنية. خاصة في حالات الحذر القصوى.

ثنى المرافق الأول على كلامها بلياقته المعهودة فقال:

ـ المذياع يشوش حدة سمعنا من جهة ويلهينا عن المراقبة من جهة أخرى. ثم إذا أطلق أحد المعادين رصاصاً على..

هتفت كاظماً غيظي:

ـ طيب. طيب. فهمنا.

دنت السيارة من المطعم. هب المرافق يثب إلى الأرض قبل أن تتوقف السيارة تماماً. ركض كمن مسه طائف من الجنون على نحو مفاجيء فدار حول مقدمة السيارة واندفع كالثور الهائج صوب باب السيارة الخلفي. انخلع قلب مريم جزعاً، وشحب وجهي واختفت السكرتيرة. فاذابالمرافق الأول يفتح الباب الأيمن بحركة خاطفة ثم ضم قدميه ووقف جامداً ثابتاً بإجلال. بحلقت بعيني مستطلعاً. ثم قلت بصوت مخنوق كله دهشة:

ـ ماذا حدث؟

رمقني المرافق الأول بنظرة رصينة تقول «يتعذر علي فهم هذا الاستاذ» لكنه قال:

ـ لا شيء سيدي.

ثابت نفس مريم اليها فقالت مدارية اضطرابها ومواسية:

ـ اعتقد أنها طقوس الترجل من السيارة. اجراءات عادية بالنسبة لهم.

ثم أخذتني من ذراعي وهمست متبسمة ابتسامة ذات مغزى:

ـ هكذا تفتح أبواب سيارات الزعماء.

شعرت بأحشائي تتواثب. كدت أتقيأ. كركرت ضاحكة وقالت بلهجة تنم عن خبث مقصود:

ـ ستعتاد هذه الطقوس بسرعة «سيدي».

قلت مستنكراً راداً اتهامها غير المباشر:

ـ هذا لن يكون أبداً. هذه الطقوس منافية لطبيعتي. أنا رجل ثورة لا رجل دولة. بطبيعتي أبغض رجال الأمن.

قالت بلهجة ظاهرها تهدئة الخاطر وباطنها تهكم:

ـ لكنهم رجالكم في أية حال.

وحين يمنا صوب المطعم ومن حولنا رجال الأمن المرافقين لم تفتني أنظار الاعجاب والفضول التي صوبها نحونا الزبائن. ولفت انتباهي بالتحديد نظرات الصبايا. وقلقت حين دهمني إحساس طاغ بالمباهاة والفرح.

ليل الجمعة الدامي.

نعم. نعم. هاجس واحد ثابت يستولي على كياني كله وأنا أسعى صوب ملهى البحر الميت: الشماتة. والمؤامرة التي حيكت ضدي بدقة لا يتقنها إلا خبراء المخابرات المركزية بالتواطؤ مع قوى محلية وماسونية ليس النقيب وكفى سوى أداتين من أدواتها التي لا تعد ولا تحصى.

والمسألة ليست مسألة تخمين. فالبراهين والدلائل والمقدمات والنتائج متسقة وواضحة لا تناقض فيها.

هاجس ينعكس في ظلمة الليل المزروع بالاشباح والأطياف والهتاف النائي. عشرات الصور، مئات الكلمات، آلاف العيون تنهمر علي كشظايا القنبلة التي انفجرت في الكابوس ـ الحلم مبعثرة مشظاة. بلغت أخيراً مرحلة هتك الستر عن خفايا المؤامرة.

أصغي. أرهف السمع: ضحكات شامتة، عشرات الوجوه المشظاة المبعثرة تستهزىء بي. كفى تطلق ضحكة داعرة وتسر للنقيب وهو يعتليها منتصراً مزهواً بانجاز رجولته:

ـ ليت عناد الخائب يأتي ليرى بأم عينيه كيف يكون الرجل خيّالاً يلوي عنان الجسد الآخر ويطير به إلى ذرى النشوة. ومحجوب عبد الساتر ينهض شبحاً من قبره وينادي: عناد.. يا عناد. ماذا نفعتك معلقاتك ومدائحك بالمشير وعبد الحميد. ها أنت

تلحق بنا.. حفار البئر وقع فيه يا عناد. وقع.. ها هم جماعة عبد الحميد يطاردونك.. وأنت الذي عملت لهم مخبراً نذلاً أنت الجبان الذي سلمني لهم. و..

أمشي بمحاذاة مريم، رأسي منكس. لماذا لا تضمني، تسأل. أشحت. عانقتني فتشظيت.

في مدينة الحلم.

وتحت نافذة غرفة النوم خطوات رجال الأمن تروح وتجيء. يقف ويصغي. دب.. دب.. دب.. وفي غرفة النوم يضرب هو في أرجاء الغرفة مجيئة وذهاباً بخطوات متلاحقة عصبية. النوم لا يطرق جفنيه. يتناول قرصاً منوماً. أيام المعارضة كان يضطجع على الفراش فيغلبه النعاس ويغفو. وفي السجن أيضاً لم يكن يعرف الأرق. رجال الحماية يتهامسون. يتضاحكون. رجال لحمايته. حمايته الخاصة. مرافقوه. ما أصعب وأبغض النضال الايجابي إلى قلبه. يشعلون سجائرهم ويدخنون. اجتاحته رغبة لا تقاوم بأن ينضم إليهم. لكنه يعرف استحالة ذلك. فهم مرافقوه لا رفاقه. سيربكهم. تخيل نفسه يقبل ويجلس معهم. سيتلقونه بعيون جاحظة وأفواه فاغرة. رجال حمايته من خطر الشارع.

مسقط رأسه زمن الجزر.

وتحت نافذة غرفة نومه، يقف وهو يتهيأ للنوم. خطوات رجال الأمن تترامى إلى مسمعه في سكون الليل الأخرس. دب. دب. دب. إيقاع رتيب. من خلل الستائر الخشبية. يراهم يذرعون الرصيف في جوف العتمة. يتهامسون. يتضاحكون. يرفعون عيونهم ويصعدون أبصارهم صوب نوافذ البيت والأبواب. يراقبونه. رجال حماية الشارع من خطره. نظرات شزراء ترسلها عيون تتوهج في الليل كلما لاح ظله عند نافذة أو باب. إنها الاقامة الجبرية. رجال الأمن متشابهون. رجال حمايته من الآخرين ورجال حماية الآخرين منه.

خطوات تحت النافذة فوق الوحشة. في تلك الأيام.

خطوات تحت النافذة فوق العتمة والخوف. في هذه الأيام.

خطوات في التشرد.. بين الأيام.. وفي الأيام الآتية.

وفي مطر المراثي والجراح دثرت مريم بمعطفي. ثم جلسنا ساعة لا نومىء ولا ننبس نتبادل بين الحين والآخر نظرات تحكي ثم نطرق ونحتسي الشاي بصمت.

وجاء الفجر فأطلق شعشعة متموجة، فتحاكينا حين غادرنا الليل الفضولي. أشارت إلى الوردتين المتفتحتين في صدرها. هنا أطفأ رجال عسقلان سجائرهم وهم يخاطبونني بالعبرية.. ما كانت تنظر إلي. وأشارت إلى ظهرها. هنا داست أحذية السجان العربي. فشمرت عن ساعدي بتلقائية وعفوية كأنما أزايد عليها دون قصد: هنا كسروا عظام الذراع مرتين. ثم خلعت حذائي وجوربي وأشرت إلى أصابع قدمي: اظـافر اصابع قدمي انتزعوها.

وعيناي جادتان. فانفجرت تضحك وتضحك.. فتبعتها.

وما كنت أعرف أن لجوربي رائحة. وحين عرفت تضرج وجهي. وصار مثل قرص شمس يسقط في بحر الغروب.

في حفلة الكوكتيل التي أقامتها إحدى السفارات لمحت لحظة الانتقام الحرجة المواتية تكر فتلقفتها مثل صياد خبير وانتهبتها. كانت عينا سوزي بليغتين كالعادة. قرأت فيهما الشهوة تقطر شهداً وضوء يومض بخبث ثم يختفي ليومض مرة أخرى بقوة أكبر. جال نظري بين الرؤوس، كان وجه الرائد يشع في ركن بعيد يجاري السفير فيتضاحك بهستيرية. نائياً كان، ودنت هذه الشعشعة الباهرة صافية في توحشها وقالت:

ـ أراك تقف وحيداً.

تبسمت بثقة:

ـ لا معي الكأس.

لمحت الشهوة ساطعة على شفتيها. أبدع الخالق وجهها وهذا الجسد الباذخ ثم كسر القالب. عشتروت تنهض من أغوار البعيد السحيقة وتأتيني. قالت بصوت يثير غرائز الصخور جامحة:

ـ قرأت قصيدتك «نجوم الظهر» أمس.

ولم تعلق. تنتظر بمكرٍ مناورةٍ بارعة سؤالي عن رأيها في القصيدة. لكني لم أبد الذي أخفيه فاحتسيت من كأسي ثم تمشيت وهي إلى جانبي حضوراً باهراً، انتحينا ركناً أكثر هدوءاً. تأملت ثوبها الطويل شفافاً براقاً كان ويواري جسداً لا يجارى. قالت ترشف بأناقة تستحث سؤالي:

ـ قصيدة أثارت قلقي.

بدا جسدها محالاً، وكنت أتحرق لغزوه وتخطفه. تحت ضوء ثريا فخمة أبدى جسدها بعض ما كان يخفيه من أسرار الكمال. قلت كالواثق:

ـ إذن نجحت في إدراك غرضي.

ـ غرضك؟

قالتها بصوت يدعو ويصد في آن.

ـ إثارة قلق القارىء والتساؤل.

وقفنا مواجهة كأننا نِدَّيْنِ يكرُّ كلٌّ منهما على الآخر ويفر.. والمعركة ضارية قانونها الدهاء والمنتصر هو المناور الأقدر. وكنت أحمل عليها ثم أزوغ وأكر مرة أخرى، فتشد علي وتهوي ثم تلتف من وراء كلماتي وتحاصرني. فأسلط عليها قذائف العينين الحارقة ثم أتحفز، وأندفع. أحتضن الحصار.

قلت:

ـ الرائد يتحدث دائماً بلغة عسكرية.

ضحكت:

ـ حتى إذا ما تكلم عن الطبخ.. فكيف عن النساء.

قلت:

ـ علمني لغته.

رمقتني بنظرة أفاضت علي وهج الحضور، وكانت بليغة أوقفتني على مفاتيح قلعتها الحصينة. قالت بلهجة ذات مغزى:

ـ أرجو أن لا تتسلل مفرداته العسكرية إلى مفرداتك الشعرية المتصوفة.

رشفت من كأسها بأناقة ثم أضافت تنثني وتتقدم بسرعة الطير الجارحة:

ـ أترغب في أن تكونه؟

بوغتت في بالي الكلمات. انفتلت وخبت رغبتي كجواد شامخ باغتته أفعى فرفع قوائمه في الفضاء واستدار حول نفسه مضطرباً ثم خب وعاد ينطلق كريح عاصفة. تساءلت اكتسب الوقت:

ـ أكونه؟

عيناها تجهدان في بسط سلطانهما على كياني. انثنت تصوب فيَّ نظرة ثابتة تلمع بالغواية وتصعدهافي وجهي تنشد ايقاعي أسيراً. قالت عيناها أنت تعرف ما أعني فلا تجبن. لويت عنان جواد الحصانة فيَّ وطرت به إلى مكمن الذهول في جناحها ففاجأتها وضربت:

ـ ألا يرغب هو في أن يكونني؟

الفريسة تدنو من الشرك. وأنا أخطط انتقامي لمريم من الرائد بطعنه في سوزي. القذيفة تفاجىء القذيفة. هزت كتفيها محجمة تتشتت. قلت أهوي على قلب الهجوم مباشرة:

ـ وأنت أيهما تفضلين؟

نكست رأسها واستسلمت عيناها. لكن الحرب لم تنته. قالت تومىء إلى شروط الهزيمة التي ترغب:

ـ أفضل المتنبي على كافور.

داهمتها من جميع مآقيهاوانتهبت:

ـ أنت مع السلطة.. وهواك مع الشاعر.

ـ أنا مع من يعزني ويمنعني من الذئاب ببأسه. العقل للزواج والقلب للعشق، أرضى بالسلطة مع هيامي بالشعراء. وأنت. ألا تفضل السلطة مع رضاك بالشعر؟

قلت كالموافق:

ـ ألم يسأل محمد ربه أن يمده بأحد العمرين ليمنع عنه شر قريش؟

ـ أنت محارب وشاعر.. ترى في الرائد ضداً من أضدادك. فتحبه.

تلك كانت طريقتها المواربة، ولو استقامت لقالت أنت ترى نقصك فيه. وكانت هي الكمال في كليته.

والتفتنا إلى الرائد. وكنت أغبط قدرته على الحسم والرد الخاطف الحازم. وكنت أرغبها وأدرك أنني أخافه. قلت لسوزي في لقاء لاحق:

ـ إنها عقدة المثقفين السياسيين.

أنبأتني بأنها تبغض الكمال أحياناً.. سألتني إن كنت أنتحب أحياناً.

ـ أبكي؟

ـ نعم تبكي!!

قلت أكذب:

ـ لا

قالت متضاحكة:

ـ كم أكرهك. ولا حتى مرة واحدة في حياتك؟

ـ هيه!

ـ أبغض الكامل الذي لا يطرأ عليه ضعف ولا نقص.

ثم استدركت:

ـ إلا الله.

ـ ولكنك تزوجت الرائد!

قلتها بلهجة نمت عن عتاب مبهم.

ـ الرائد. هاها.. إنه كمال النقص.

ثم التفتت إليَّ وقالت تبسم بدهاء:

ـ أنت تشتهيني وتحقد علي. أليس كذلك؟

إنها تشهد الباطن من وراء ستر الظاهر. أزعجني ذلك:

ـ أحقد؟

ـ تعتقد أنني خطفت الرائد من أم مصطفى.. ها!

في عينيها دعوة. جسدها يتفتح مرحباً. ماذا يفعل شاعر مثلك في غابة الثكنات والعسكر المدنيين والمدنيين العسكر والأجهزة ورجال الأمن وأمن الرجال.. والضواري.

قالت وبسطت لي وجهها المتعالي على الحزن. وكنت الفضول يقف حافياً. سألتها أقدم مخاطراً:

ـ لماذا اصطفيتني ملاذاً؟

ـ السلطة لم تدجنك بعد!! لكن من قال لك إنني اصطفيتك ملاذاً أنت واهم.

وكالعادة في مثل هذه الحالات قرصت وجهي فأوجعني.. أدركت انني لا أحلم. شلال من الضياء ينهمر على جسدها الناهض في الثوب الشفاف، والنظرات النفاذة تتسرب إلى الجسد الفاخر فيبدي من أسراره عجباً. لكن بالها حصين وعيناها بليغتان إلا أنهما لا تقولان حقاً. وأنا أتقمص الرائد واحتال لها فتكيد لي. تدعوني وتصد. أحسست أنها تذكي عيونها على أفكاري. وغمرني شعور مبهم بأنها تتوغل في كل مظلمة أطويها في أعماقي، وأنا اتقمص الرائد وأدور حول الغامها، اشمشم مواطن ضعفها ومناعتها. قلت:

ـ بلى بكيت. كثيراً. بكيت.

والنزال يشتد. ويتأبى على فهمي مرادها، وأوغل في تقمص الرائد وأتحسس مدار اللغم بحذر شديد. وأقول لا أغادر باطنياً إلا وأحب أن اطلع على باطنيته، ولا ظاهرياً إلا وأريد أن أعلم حاصل ظاهريته.

ترى أيتقمص الرائد الغزالي؟

وترقرقت في عيني الدموع تكلفاً أو حقيقة لم أدر. وهنا طافت كل انفعالاتها وأحاسيسها ونواياها وهواجسها دفعة واحدة على بحيرة وجهها العذب. قالت بصوت رفيق:

ـ متى؟ حين سجن الرائد خادمتك؟؟

شلت رأسي سلباً أغالب رعدة أصيلة مشت في أعضائي.

واعترفت:

ـ حين قبض على محجوب عبد الساتر المختفي في داري. وحين اصطاد صاحبي عصفوراً وكنت طفلاً.. ورأيته يفرد جناحيه يتهيأ للحظة الاقلاع.. فأجهض وانتفض وسقط مضرجاً وكنت طفلاً ذا حساسية تماس حدود المرض.

قالت بهدوء ورصانة:

ـ ولا تزال.

وأدركت أنني خطوت إلى أمام ووقفت على منحنى يطل على كنهها فاذا مددت يدي نلت غيبها.. وقرعت بابها فاستجابت.

قالت:

ـ أنت شاعر أصيل.. لم تدجنك السلطة.. اهرب وإلا قتلوك أو روضوك.

كاد قلبي يرق وحقدي يتبدد. واحبها. وما عدت متيقناً من صفاء دوافعي وثباتها. قلت لعلي أريدها بعيداً عن الغرض.. وما خطة انتقامي إلا مشهد في كابوس يراه النائم فيما يراه. اقتنعت.. شعرت بالانقباض يسرع إلى قلبي فيخفق خفقاً عنيفاً. كدت أبوح لها بسر الدافع الذي جعلني أطلبها.. ولكني أمسكت.

وأقبل الرائد وكنت أتقمصه. تأملت وجهه فرأيت ضداً من أضدادي وشاهدت ما أحب في لا شعوري أن أكون. أطلق ضحكة مجلجلة عريضة وهتف والخمرة تتلعب بكلماته:

ـ ها. أراكما منسجمين.. كلما اجتمع مثقفان تكتلا وتآمرا. لكنها مؤامرات المقاهي.. هل أنبأتك سوزي إعجابها بقصيدتك؟ المشير لم يعجب بها. قال إنه لم يفهم منها كلمة. وقال لماذا لا تنظم على طريقة المعلقات. وساءه حديثك عن الأسى والوجد والغضب. قال الأسى في زمن الوحدة لا مكان له. والوجد ليس من شيم المناضلين فهو يذل رجولة الرجل. والغضب يثير عتاب بعض السفارات. هيء هيء هيء.. انظم فيه قصيدة واحدة من ثلاثة أبيات فيجعلك سلطان الأرض والسحاب، ولعل فايدة كامل تغنيها. هيء هيء هيء. (يضحك) تعال. تعال

ينبغي أن تسلم على المشير، عيب أن تنزوي في حضوره، وأنتِ. عشيقة المشير تنهشها الوحشة والضجر. رحبي بها.

وأطلق ضحكته المجلجلة مرة أخرى. ورمانا بنظرة مستريبة من فوق الضحكة. وقادنا نحو المشير و«زميلته».

وكان المشير يتحدث بلهجة المباهاة عن أصله الكادح ثم بلغة الخبير المتخصص عن أنواع النبيذ الفاخر الذي شربه في عاصمة أوروبية. وقارنه بالنبيذ الايطالي. وعلق:

ـ ولكن.. ذاك يحتسى مع (كلمة فرنسية تعني صنفاً معيناً من الطعام) وهذا لا ينسجم إلا مع (كلمة ايطالية بنفس المعنى)

ثم تحدث باعجاب عن أخلاق الأوروبيين وأمانتهم وروى عدة حوادث تثبت ذلك. منها أنه ناول صاحب مطعم كمية كبيرة من المال إكراماً له على جودة عشائه. لكن صاحب المطعم شكره بأدب ورد المبلغ. ثم أبدى اعجابه بآداب الانجليز ولياقتهم وقارنها بجرأة الأمريكي وصراحته وأطرى دوافع الابداع عند الامريكي. ثم شتم النظام الرأسمالي والامبريالية العالمية.

وكانت عينا الرائد سارحة في وجه المشير تدرس طريقة حديثه وإيقاعات صوته.

وكنت مكتئباً.

واستقبلني الرائد في مكتبه بحرارة ادركت أنها تواري غرضاً. وبعد التي واللتيا طلب مني رسمياً أن أنظم أغنية عن الريس ليغنيها عبد الحليم حافظ. وأنبأني بأن عبد الحميد قد دعا عدداً من أصحابه وزميلاته إلى العشاء ووعدهم بأنك ستكون بينهم لتنشد شعراً.

انتفضت وقلت انني لست بالنديم. وإن شهادة بطولة الريس محفورة على صخور القنال. ولا تلزمها أغنية وطبل.

ـ من اعترافات الرائد القائد ـ

قلت لنفسي ينبغي تطويع عناد هذا وإلا غضب عليه عبد الحميد. فحملت عليه منفذاً مخططي. وخاتلت طبعاً. كنت واثقاً من نجاح خطتي. فأنا رجل الحياة

أدعوها فتجيب ومدجن الضواري أمرها فتطيع. ونجحت الخطوة الأولى: انهمر الرصاص على سيارته. فأذعن لإلحاحي إحاطته برجال الحماية والأمن. وكان رجالي بارعين في تسديد الاصابات فوقه وتحته وحوله دون جسده. استنبت غريزة الخوف فيه. وأدور حول اللغم. أفخخه وأزرعه. أمرت باعتقال مريم صاحبته. جاء يتواسط كما توقعت. بل جاء كالغضب العاصف محموماً يضرب بقبضته على الطاولة ويشع ومضى مجنون من عينيه. قال إنها ليست من الشعوبيين. ووصف رجالي بأنهم حمير. فكاتمت غيظي. وبدهاء لا يملكه إلا من كان ضابطاً في سلاح الهندسة ثم في المباحث أعلنت له عن جهلي بالقضية. واستنكرتها بقوة فاقت عنف إنكاره. واستدعيت ضابطاً فصفعته أمام عناد. وصرخت:

ـ أفرجوا عنها فوراً.

وقبل أن يغادر مكتبي. دلف ضابط آخر يحمل ملفاً ضخماً. فرده أمامي ـ كما رسمت تماماً ـ فاذا بصور لمريم وهي عارية تضاجع شخصاً ما تحت صورة لينين. وصورة أخرى عن رسالة بخط يدها تشتم فيها الريس وتتهمه بالشوفينيه، وتصف عبد الحميد بايفان الرهيب، وتقول عن عناد ـ وهنا لب الموضوع ـ إنه أحمق ساذج. وإن استغلاله واستثماره لصالح «أغراضنا» بات مضموناً. «لأنني أوقعته بيسر في شركي».

وهنا انتفضت. أفخخ رأسه بالغام الشك. فتغير وجهي وانقلبت حماليقي وتقلصت شفتاي واتسع منخري وضاقت جبهتي وصحت مسلطاً نظرة كاوية في وجهه:

ـ ونحن الذين حسبناها بريئة.. أعيدوا هذه القحبة إلى السجن. وكنت أغتال الطفل في عناد. فانهار على الكنبة يكذب عينيه. بدا وكأن الشيخوخة نهبت حيوية وجهه وعاثت في أنقاضه. تكوم على المقعد ودفن رأسه بين يديه كمتراس هبطت عليه قذيفة هاون. وتأملت نفسه وهي تتساقط أنفساً. تأملته وهو يدوس اللغم ويتناثر أشلاء في الفضاء. رأيته جندياً خردقته الشظايا وقطفت منه كل بنان فراح يتوسل الطبيب بعينيه الذاويتين طلقة الرحمه. كان مهدوداً مهدوماً كوكر يتوارى فيه العملاء والحمر فاقتحمناه ونسفناه من أساسه. لكنني ما كنت أريده أنقاضاً لا تضر ولا تنفع. كنت أحبه مثل أخي الصغير تماماً. وكان جواداً جامحاً، فآليت أن أدجنه.. لمصلحته قبل أن يقع في قبضة عبد الحميد.

سألت الضابط إن كان عبد الحميد قد اطلع على هذا الملف. فنفى. صرفته،

ها أنا أختلي به، استفرده. وعقرب القنبلة الموقوته يدنو من ساعة الصفر. انتصبت أمام جسده المتكوم حطاماً على الكنبة. لكنه لم يرفع رأسه، لم ينطق، لم يمل. أخذت الملف بين يدي وأضرمت فيه النار فاندلع الدخان في عينيه وانتفض، رفع عينين مضرجتين بالذهول. ثم تناهض مسروق القوى شاحباً. وقف أمامي لتحار في عينيه الدموع، صامتاً مطرقاً لا ينبس ولا يأتي بحركة. سقط رأسه على صدره، وذهب في الانكسار. قلت بلهجة رزينة:

ـ غداً أطلق سراحها.

لوى عنقه ويمم نحو الباب، قبل أن يفتحه التفت. شكرني بعينيه ولم يقل، وراح.

وما كان يعرف عبدالحميد معرفة وطيدة. فرتبت لقاء بينهما في منزلي. جاء عناد لا يعلم بوجود عبد الحميد. واحتقن حين صافحه. كان يقول إنه يبغض رجال المباحث حتى لو كانوا من جماعتنا ـ يستثنيني دائماً ويقول وجودك في المباحث ضمانة ضد الشطط ـ وكان يقول عن عبد الحميد بالذات: لا ينفتح قلبي له. ولا هو ينغلق دونه. فأقول. لأنك لا تعرف باطنه الذهبي الطيب. وسكبت في الكؤوس، عارفاً أن الخمرة تحل عقدة لسان عبد الحميد وتبسط وجهه المنقبض.. فيطلق نفسه على سجيتها. وبعد الكأس الأول سطع في عيني عبد الحميد ذلك البريق الأنيس الذي يبعث في نفس الجالس إليه شيئاً من الاطمئنان ويبدد توتره ويخرجه من مدار الهيبة.

وقصدت أن نتحدث حديثاً يكشف عن الانسان في عبد الحميد فدار الحديث حول صفاء أحلامنا وطهارتها وكيف ضحينا في سبيلها، ثم راح عبد الحميد يحكي في تبسط وقد راق مزاجه عن طفولته فحكى عن الجوانب المفجعة فيها، وتهدج صوته وهو يتحدث فلمعت في عيني عناد تباشير دموع تنم عن حساسيته المفرطة حد المرض. وحكى عبد الحميد عن ظلم الناس له. وإطلاق ألسنتهم فيه، وحصر كل سلبيات الثورة في شخصه. وأنا أراقب وجه عناد، وألمح كلمات عبد الحميد وهي تستميله، وأحس بسحر عبد الحميد يبسط سلطانه على عناد فيدنيه من شخصيته. وقال عبد الحميد فيما قال:

ـ أدرك أنني أشغل أبغض منصب على قلبي وقلوب الناس. لكن ما العمل والوحدة تحتاج إلى من يحميها. أطوي الليل ساهداً أفكر في الاستقالة حين يكثر اللغط حولي. لكن المشير يصر ويقول أنت تضحي يا عبد الحميد. أنت مناضل يا عبد الحميد.

أنت لست ملك نفسك يا عبد الحميد، بل ملك الأمة.

ويجرع عبد الحميد من الخمرة مستعجلاً نشوة الحزن والرثاء.

ـ وأحياناً أنخرط في البكاء حين يقول لي أولئك الأخوة. ويا للاسف. انني أدمر الحلم. أنا الذي أحميهم. يقولون جماعتكم. رجال أمنك. رجال أمني أنا؟ وهل دولة الوحدة مزرعة أبي؟ رجال المباحث هؤلاء يسهرون بياض النهار وسواد الليل ليحموا أولئك الأخوة السلبيين.. الذين يعيشون عقلية المعارضة وهم في السلطة. وليحموا حلمهم. ثم أنا رجل من لحم ودم. يا عبد الحميد حملك باهظ ولكن تحمل.. يا سيادة المشير.. لا لا لا يا عبد الحميد.

ويحتسي عبد الحميد ويحتسي عناد.

وأعرف قال عبد الحميد أنني سألتقي يوماً بطفل صغير سجنت والده. فيرمقني بنظرة تمزق نياط القلب.

ويسكب عبد الحميد. وكنت دعوته لتناول بضعة كؤوس منذ المساء بمناسبة موت شخص عزيز على قلبه. وأسرف.. وكنت أريده أن يسرف. وها هو الليل يتقدم.

ويا عبد الحميد، أتعرف. هذا الصباح جاءني نبأ يقول إن أحد إخواني قتل، أتعرف من قتله؟

شال عناد حاجبيه أن لا.. وكان مأخوذاً.

ـ أنا. أنا أرسلته في مهمة خطرة. آه.

وتهدج صوت عبد الحميد. وقلت في نفسي دنت ساعة الانفجار. عيناه لغمان ومقتل صاحبه خطوات. والخطوات تقترب من اللغمين. الفتيل يشتعل في عينيه وأصابعه الديناميتيَّة ترتعش. وقلبه قنبلة موقوته. كلماته ثواني تقترب من ساعة الصفر.. و.. وانفجر، انتحب كصبي صغير لا يفهم لماذا يجري ما يجري ما دام الله. ودفن وجهه بين يديه فانسكبت دموع عناد وراح يطيب من خاطر عبد الحميد ويواسيه:

ـ يرحمه الله: مضى في سبيل الرسالة.

في اليوم الثاني، تذكر عبد الحميد ما حدث فقال انه لا يشاء رؤية وجه عناد.

لقد باغته في لحظة واكتشفت الانسان فيه.. أي إثم أي إثم.. يا للهول.

لكن خطتي كانت قد فعلت فعلها. أما اللغم الذي شال عناد من سماء السلب والاحتجاج إلى أرض المعركة وميدان الحماسة والتبرير والقناعة ـ فضلاً عن تعيينه في منصب إعلامي يفرض عليه تبرير أي خطأ ـ فهو لغم المواجهة.

دعوته إلى مكتبي.. كنت قد مهدت بضربات مدفعية كثيفة.. ثم تهيأت لتمشيط ضميره الحالم لأعيده ـ حرصاً عليه ـ إلى أرض الواقع. أطلعته على قصيدة تشتم الريس شخصياً وتتهم كل جماعته بالانتهازية. يعني أنت الذي سجنت خمس سنوات في سبيل معتقدك. انتهازي. وقرأت له:

إلى شعراء السلطان وندمائه وتنابلته.. إلى المطبلين والمزمرين.. إلى الانتهازيين الذين يقفون سداً منيعاً بين عيني السلطان والشعب إلى شاعر المدائح فلان وشاعر الطبول فلان وعناد الشاهد الصامت على الجرائم مثل أبي الهول والناشر ضميره ليواري وراءه سكوت التواطؤ أهدي هذه القصيدة.

واستشاط دم عناد الذاتي. حزته الفقرة التي تناله في قلبه وآذته في أعماق ذاته. توهجت عيناه بشرر تطاير، واحتقن وجهه وتشنج:

ـ أين هذا الخر.

قلت بهدوء:

ـ عندنا تحت.. أتريد أن تراه؟

كان الغيظ يحتقن فيه ويخضه. فتح فمه فلم يقو على الكلام، أومأ برأسه أن نعم.

هبطنا إلى الزنزانة. كان الشاعر النحيل الفارع الطول أشعث الشعر حاد القسمات. عوى عناد في وجهه. يا ابن الزانية. انا انتهازي؟ أنا الذي أكلت جدران الزنازن جسدي.. أنا الذي زنرت جلدي أسوار المعتقلات. أنا؟

وفغر السجين فاه مضطرباً ذاهب العقل لا يفهم. والرعشة عنيفة تجري تلو الرعشة في جسد عناد الذي سقط عقله في جحيم الوجع الغاضب. ومضى بعيداً في استفزاز المعتقل الذاهل الذي اضطربت نظرة حائرة دموية في عينيه ودارت لا تفهم شيئاً مما يجري. واحتقن وجهه ثم ارتعد كالمحموم واعتراه نافض وحمت أعصابه من

الغيظ الحائر فأرعد:

ـ نعم انتهازي والف انتهازي.. شوفينيون.. فاشست.

وسدد بصقة إلى وجه عناد فاستقرت على وجهي. مسحتها بهدوء. لوح عناد كفه ثم أهوى بها على السجين وقد فني عن كل أمره وغاب عما حوله. ركله في معدته. ولم أحرك ساكناً. كنت أتفرج متشيأ، أراقب عناد وهو يدلف إلى حقل الالغام المفخخة والمترابطة فيطأها جميعاً وأنا استدرجه وينفجر اللغم تلو اللغم. وفرحت له. أحب هذا العفريت. أريده أن ينزل من علياء سمائه وأحلامه إلى أرض الواقع. لطخ يديه وقميصه بدم السجين النافر من أنفه وفمه. وقلت مطيباً خاطره مهدئاً من ثورته بعدما وقف ذاهلاً يلهث وينفخ وينظر إلى السجين المطروح أرضاً بعينين لا تبصران.

ـ لا ثورة دون دماء يا عناد. لكن لا تفرط في القسوة. والثورة ولود يا عناد والولود الخصبة لا بد تتلطخ بدماء شق البكارة. والثورة والعذراء يا عناد عقيمة. تبقى في البال طاهرة نقية لكنها لا تترجل إلى الشارع. ونحن رسل ثورة ولود لا ثورة بكر. يا عناد..

وتذكر عناد أمه وهي تضعه في السرير لينام وتشرح له شيئاً من ألف باء الحياة. وكان يومىء تلقائياً. ذاهلاً تحسس جسده. وتابعت:

ـ اضطهدنا طويلاً يا عناد.

الدنيا تدور من حوله.

ـ وعلينا أن نحصن أنفسنا هذه المرة يا عناد.. الفرصة لا تأتينا إلا مرة واحدة. والحياة حقل ألغام يا صاحبي.. وجدران.

يذبل ويذوي في شتات الهول.

ـ تعال.. تعال. اشرب ماء.. ولا يهمك.. نعم كنا نقول الحياة جداران.. جداران متقابلان. جدار يصطف أمامه الخاسرون وصدورهم مشرعة وأيديهم مغلولة وعيونهم معصوبة. وجدار يقف ازاءه المنتصرون يسددون بنادقهم نحو الجدار الآخر.

عقله يتخبط في تيه الصدمة.

ـ فاختر بين الجدارين. المناضل إما قاتل أو مقتول. فلتفزع أيدينا إلى السيوف قبل

أيديهم.

وشهق عناد السابح في الوهم وغفلة الذهول، يتخطفه الهذيان، غائباً بين لحظة دخوله إلى الزنزانة ومغادرته لها. طائش العقل تداعى على الكنبة. رده فنجان كبير من القهوة إلى يقظة مروعة. فعلت ما فعلت من أجله. وفرحت له. هذي هي الحياة. يقظة مروعة وهول في حقل ألغام. ينفجر في الحالم ويعبره أمثالي من الواقعيين كالطيف الهفهاف، كالهواء، نطير على صهوة الدهاء فلا نترك على لغم أثراً. نتبصر ببصيرتنا النافذة مكامن الألغام تحت الأرض ننثني عنها ونزرع نحن بدورنا حقلاً من الألغام نستدرج إليه الندَّ المضاد.

قالت سوزي:

- لا يقع إلاّ الشاطر.

تشاءمت.

والحياة ليست حقل ألغام يتفتح فيه الخطر والمكر فحسب بل هي امرأة. والمرأة أفعى فكن ذئباً يا عناد..

فحيح سوزي. غير أنني مطعم ضد السموم. سيأتي يوم اعزف فيه على الناي فتتلوى وتنهض مذعنة. والحياة يا سوزي امرأة مازوشية سادية جارحة.. مجروح من أحبها ومجروح من أحبته.

أتذكرين رغبتي المجنونة فيك يا سوزي، وجفاءك أيام الجفاف والسجون، ونظرة الاستخفاف والخال من علٍ، ونظراتي الجائعة تلاحقك كالبعوض، لكني لست بعوضة، كنت ذئباً يتقمص بعوضة وها أنا أرفع العمامة لتعرفيني..

وإن لم تكن ذئباً. أكلتك الذئاب.

وخرج عناد مائلاً كمدفع مضاد مقوساً كمسار قذيفة هاون. والمساء كان عاهرة مضرجة بأصباغ تثير غرائز الصوان.

وخرجت رأسي يدور في لولب الصخب وقميص الرائد يلبسني بدل قميصي الذي بلله الدم. ورصدت شعوراً مبهماً يغمرني بنشوة عارمة، استبطنته بدقة فهالني حين اكتشفت أنه شعور القوة والانتصار، أنا الذي قضيت خمس سنوات في السجن تدوسني الأحذية الثقيلة ويلتهمني البعوض.

- بيروت -

وكانوا شلة وأخذوا مقاعدهم على المائدة في «الدولتشة فيتا». البعض يحتسي بيرة وآخرون القهوة أو الشاي.. والشوكالامو. والألسنة تدور في الناس والعيون تدور في السماء والملاعق في فناجين الشاي، والسيقان مشبوكة على السيقان. والطائرات الحربية في السماء.. ولم نكن في صبرا ولا الفاكهاني. الروشة قارة أمينة نائية. ودخنا السجائر والغلايين والسيجار. وكنا جميعاً مثقفين. إلّاي طبعاً. وتدور العيون في السماء والملاعق. والأحاديث تدور أيضاً من الجدل إلى الماوية إلى الخمينية إلى رامبو فديكارت ثم الخلاف الخطير بين الرحابنة وفيروز والحزب في بولندا والتضامن.. وعمر خورشيد. ويدور أيضاً دخان سجائرنا في الفضاء حلقات حلقات، ثم انتصب عمود من الدخان في القارة السادسة قرب صبرا. ودارت العيون والألسنة ثم لمحنا طائرة اسرائيلية تدخن مثلنا.

قفزت عن مقعدي وهتفت.. أصيبت. أصيبت.. تسقط.

- يا عمي وحدالله. هذا دخان الطائرة حين تطير على مستوى منخفض، لا أصيبت ولا من يحزنون.

صرخت:

- يا عمي. الدخان.

قال الجالس إلى جواري بقرف العبثي مؤكداً عدميته باغماض عينيه نصف إغماضة وتمديد ساقه على مقعد شاغر:

- إنهم يخيلون في سمائنا. ونحن نرميهم برصاص الكلاشن والحجارة والشتائم. وعرائض استرحام إلى الله.

هتفت مغيظاً:

- ولكن.. افتحوا أعينكم جيداً. انظروا.. الطيار يهبط بالمظلة.

- نت. نت.. نت. هذه بالونات حرارية لتشويش السام.

- ولك يا ابن الحلال انظر إلى الطائرة تنحرف وتهوي نحو البحر.

أحدهم يقضم أظافره.

ـ مناورة. مجرد مناورة.

ـ يا عالم يا ناس. بالعين المجردة أبصروا زورقاً ينطلق نحو المظلي الهابط نحو البحر..

تابع الآخر مؤخرة امرأة تعبر وترفع رأسها. قال بضجر:

ـ يا شيخ. أنت تحلم. تتوهم.. ترى ما تحب أن ترى ولا ترى الواقع. إنها بالونات حرارية.

ـ يا هو.. يا عميان.. بالون حراري واحد؟؟ غير معقول. انظروا. المظلي يكاد يهبط في الماء. والزورق يدنو.

صفق للنادل. قال:

ـ انت تحلم.. اشرب قهوتك قبل أن تبرد. العرب جرب. لا يسقطون سوى رؤوس بعضهم. وما في مؤخراتهم.

وثبت كالمجنون مشيراً إلى المظلي. وتجمع الناس على الرصيف المقابل رفعوا أذرعتهم اليمنى يشيرون بينما ظلّلت أكفهم اليسرى عيونهم تردُّ الشمس المخبولة.

الذي يدخن الغليون لم يتحرك كان يبتسم بسخرية وخال ويضرب غليونه بذراع المقعد مزهواً بيأسه. والذي يدخن السيجار عض عليه ونفخ ضجراً. والذي يتناول الشوكالامو بالملعقة صار يلحس ويغمغم:

ـ أوهام.. أوهام. أوهام.. قال نسقط طائرة اسرائيلية قال.. نكذب الكذبة ثم نصدقها.

وفي لحظة مباغتة وما إن لامست قدما المظلي مياه البحر حتى اطلق في اتجاهنا زخة من الرصاص كأنما يحيينا تحية المساء المقبل. فتح الجميع أفواههم ثم هبطوا تحت المناضد. ودارت الرؤوس تحت الطاولات ودارت الطاولات فوق الرؤوس.

وما كنت أحلم. أمس حلمت. لكنني اليوم لم أحلم. لم أحلم.

وتطاولت الرؤوس بعد ما صمت البحر وثاب إلى رشده. فوقعت أبصارنا على شاب أسمر عار يطلع من البحر مثل كائن أسطوري ويحمل قطعة من جناح الطائرة الغارقة. ويلوح به كالبيرق أمام الناس الذين راحوا يصفقون وينطون.

ترامى صوت صاحب الغليون من تحت طاولة:

ـ ماذا. اشتباك محلي؟

همس آخر من تحت طاولة أخرى:

ـ لا رجل يحمل صفيحة من التنك ويدعي أنها قطعة من الطائرة المزعومة.

شددت شعري ومزقت قميصي غيظاً. ثم اجتزت الشارع وهجمت على السابح الملوح بالقطعة التي انتثرت من الطائرة شققت طريقي بين الذين ازدحموا حوله ينشدون لمس القطعة كأنها سمكة ذهبية.. عانقته وقبلته في جبينه ووجهه.

وما كان هو الذي أسقط الطائرة.. وكنت أعرف. لكنه دليل. ولكنهم لن.

● مدينة الحلم:

وحدثني الرائد عن ضرورة الايمان بقدر الأمة.

يعترف القائد الرائد:

اللغم داهية.. وخبير الالغام أدهى. والعالم خبيث والناس خبثاء لكن خبير الألغام ذو الخبرة الأمنية يقرأ الممحوّ. في الليل أنام على فراشي المبسوط على الأرض إلى جوار اختي ويضطجع أبي وأمي على السرير الوحيد في غرفتنا اليتيمة. الليل أشباح وأطياف.. ثم لهاثها على السرير يتسلل إلى أذني. عناد الشاهد مكبوت جنسياً ولهذا فهو متطرف في مثاليته. لكنه أحمق لا يستمع إلي. أقول له يا ابن الحلال هذه مريم قريبة الأحمر محجوب، والحمر يستثمرون أخواتهم أو بناتهم لكسب الناس إلى صفوفهم. هذه حقيقة لا جدال فيها.. فأنا أقرأ المكتوب من عنوانه. فيمتعض ويستنكر ويعترض. قلت إنها تتعفف قصداً. ولكن على هامان يا فرعون؟ ضابط الهندسة خبير ألغام زرع ونزع وتفخيخ وضابط أمن.. يعني بت أقرأ الممحوّ. انهن يعشقن الحاسم غير المتردد. أقدم عليها دون تردد. حتى إن المشير أكد لي هذه الحقيقة وزاد أن قيادي ومؤسسي الحزب هناك يهود. وكان عبد الحميد معنا فأثبت هذه الحقيقة مسراً أن زوجة أحد السجناء جاءت تتوسله اطلاقه. وعدها خيراً. إن. أو. فأذعنت مستسلمة ولم يطلق سراح سجينه. وضحك. هاهاها. وأعلنت أن حاستي السادسة تنبئني بأن زوجها نفسه هو الذي أشار عليها باللجوء إليك. وأنه أشار

عليها بمضاجعتك.. لا رغبة في الحرية وحسب.. ولكن رغبة في كسبك إلى صفوفهم. أبناء الشيطان. وضربت كفاً بكف وأطلقت صفيراً ينم عن إنكار ودهشة. وحكيت للمشير عن أبي. وقلت إنه كان كادحاً ثم عمل مع اقطاعي مجرم في تهريب الحشيشة. لكنني أضفت مزهواً أن والدي لم يتعاط الحشيشة أبداً.

فكشر المشير وقال وهو يتصفح البلاي بوي:

ـ أبوك حمار.

قالها بنزق ولم يضحك. فانتفضت من فوري وقلت أطيب خاطره:

ـ طبعاً حمار.. وألف حمار.. ولماذا لا يتعاطى الحشيشة؟؟ لأنه حمار. لكن أمي سيادة المشير كانت ذكية.

وتحدث عبد الحميد ـ وهو صموت عادة ـ عن أنواع الفراشات وأنواع الأزهار. وبدا شفافاً مرهفاً. قال إنه لا يميل إلى تعذيب السجناء بنفسه. وأنه رأى مرة سجيناً ينتحب فرق له قلبه وناوله علبة من السجائر.

هاهاها ضحك المشير. ثم قال:

ـ ما أوسع خيالك.. على هامان يا فرعون. انظر إلى عيني جيداً. يا لك من كاذب.

انفجر عبد الحميد ضاحكاً وقال كاتماً غيظه:

ـ لا لست كاذباً. لكنني أبالغ مبالغة هائلة حتى يدرك السامع أنني اختلق صوراً من خيالي فيكتشف أني أداعبه. كذب أبيض يعني. هل وقع بصرك يوماً على وردة الهيل؟ يا سلام. كلها فتنة. كلما رأيتها.. خشعت نفسي إجلالاً للجمال والرقة.

وتحدث المشير بدوره عن الفن والأدب فأسهب وقال إنه معجب بالدكتور هيجو وبفان خوخ. ولأني خلقت قبل ابليس نفسه بساعة فقد حفظت الاسمين. وما أن عدت إلى البيت حتى سألت سوزي. فاغرقت في ضحك متصل وقالت:

ـ بل فيكتور هوغو وفان كوخ.

فباهيت بسوزي وثقافتها.

وفتحت السماء جفونها فانبثقت حدقتها الجهنمية وبدأت رحلة سكرها المزمنة.

أنا ومثقال نقتعد الأرض في ظلال العريشة. نمد أبصارنا نحو الصحراء الخالدة الأزلية فنراها متجهمة تربض بمكر إزاء الأفق تتكلف سكينة سرمدية.

لكن مثقال يقول إنه يصغي إلى نبضها الداخلي. قال إن ثمة احتقاناً في رحمها. الصمت والصحراء والشمس الجهنمية.

مثقال يكر نحو المستقبل على صهوة خيل المخيلة الجامحة. وأنا أمضي إلى الماضي عبر ممرات الذاكرة ومتاهات أدغالها الكثيفة. قلت دون أن التفت:

ـ أتذكر يوم كنا نتسابق نحو مكتبة الجامعة؟

يقول شارداً مرسلاً بصره إلى الأفق النائي:

ـ في موسكو مكتبات عامة. يقولون إنها تضم ملايين الكتب.

ـ كنت تطلع في المصعد. وأنا ارتقي الدرج. أثب وثباً أتذكر يوم اكتشفت دفاترلينين الفلسفية. كأنك اكتشفت بئر نفط في باحة داركم. أتذكر يوم اكتشفت مجلة شعر. وكانت قد توقفت عن الصدور.

ـ وهناك سوف أتعرف إلى فتاة روسية شقراء. سأدعوها لحضور حفل البولشوي. البرد هناك قارص. ينبغي أن أشتري معطفاً ثقيلاً. سأستدين من.. من.. منك لأشتري معطفاً. برد قارص هناك.

الشمس تكر على البلدة. الأرض سكرى بلهب القيظ. العرق يتصبب على وجهينا. لا نجففه. الوهج يقتحم عيوننا. نكتفي باغماضها.

ـ سأتزوج من مريم. نسمي ولدنا ربيع.. هي قالت لا نسميه نضال. انبأتها انني أمقت الأسماء السياسية. كنا نتمشى قرب الشاطىء. عند الرملة البيضاء. تقول إنها ستهبط إلى صور. وستشترك في دوريات لحراسة البحر.

ـ حراسة البحر؟ نعم.. البحر الأسود جميل.. ما اسم تلك السفينة التي انطلقت منها شرارة الثورة؟ سأزورها. لكننا سننشىء نقابة في المصنع قبل أن أسافر. حراسة البحر؟

ـ نعم قالت إنها ستحرس البحر. ألا تذكر كيف كنا نحمي الرشيدية من البحر. لكن بيروتي تقول إنها ستحرس البحر. الشمس هناك تكر باسمة ترقص أمام عين الشمس فتثيرها بمفاتنها.

ـ الشمس؟ الرطوبة في بيروت مزعجة. أنت تحذف الرطوبة من ذاكرتك حين تحكي عن بيروت. اتعتقد أن ثمن معطف الفرو يتجاوز خمسين ديناراً؟

ـ حين كرت النسمة ورقصت أمام عين الشمس اتسعت حدقتها تأملت الجسد الراقص بنهم. الشمس تصببت عرقاً وكانت تلهث. ومريم تحرس البحر ويتدحرج شعرها على صفحة وجهها. الشمس ترتشف من النوافذ والأبواب وأنا ارتشف من شفتي مريم. لها نكهة الذهول. أرتشف فأنتشي وأسكر.

ـ في مسرح البولشوي.. سوف أمد يدي في العتمة. ببطء شديد وحذر. ستزحف أصابعي نحو أصابع صديقتي. لعل اسمها فلنتينا. مثل رائدة الفضاء. الأطباء هناك سيرتبون أوضاع قلبي. التواصل مع المرأة هناك يسير. حتى لو لم تتقن اللغة.. يقولون..

ـ يقولون إن الرشيدية تعرضت لقصف عنيف.. وصور أيضاً. لكن مريم تحرس البحر والشمس.. للشمس هناك رائحة مريم ومزاجها. يد مريم في الصدام. وقلبها في الرهافة. أنا قلت لها. أقول لها الآن.

ـ تقول لها الآن؟ ألا تزال تتعاطى المخدرات؟ سترى. المصنع سيفتح والنقابة قائمة لا محالة. ودرجة الحرارة في موسكو عشرة تحت الصفر.

لكن الشمس في بيروت ترتشف من كؤوس النوافذ. تحتسي بألسنتها المشعشعة خمر الأجساد المضطجعة على الشاطىء. مذاق المدينة يلقى هوى في قلب الشمس. تضاعفت نشوتها. تهالكت تمد رموشها الذهبية المشعة وتلعق الوجوه والأعشاب والأمواج والسطوح. أحست بالنشوة تستولي على كيانها فترنحت ثملة ومالت في اتجاه الغرب. وبدت آثار السكر تلوح في العين المستديرة فتوهج احمرار الخمرة في نظرتها.

كنت ومريم وأبو الموت وروائي معروف نجلس إلى طاولة في البيك ـ ديك. سألني الروائي أن اعارف بينه وبين أبي الموت. لا يرغب في الذهاب إلى المخيمات أو القواعد. قال. قال إنهم يتبسطون في الكلام مع الكأس والجو الحميم. وهو يريد أن يتقمص أحد أبطال روايته شخصية أبو الموت.

مريم تقول إنها تأتي هذا المكان لأول مرة. وأنها لا ترتاح لأجوائه. أبو الموت ينهب الخمرة نهباً. تتوهج عيناه. قلت لمريم أنني كنت أحلم في عمان بمقابلة هذا الروائي العربي. لكن خيبتي كانت كبيرة شأنها شأن إحباط مثقال حين قابل المفكر المعروف بعد أن كان يحلم بمقابلته حلماً.

● مسقط رأسي:

الحر خانق. الشمس تلح على الأسطحة والرؤوس والشوارع، تصهرها.

رميت نفسي في عراء المدينة. نبتت في عيني الوحشة مثل غابة يبوس.

أصغي إلى الهاجرة في صوت تأبين المدينة.

ازور عمتي. خطواتي تخفق بلا وقع.. كجرس كنيسة بلا رنين. محدودبة تتقدم منحنية كأنما تبحث عن ذكرى ضاعت في الأرض. ترنحت كالسكران قبل أن تتهالك على مقعدها. قالت:

ـ ابني الملعون قال إنني فضحته وفضحت سمعة العائلة. قال إن مذيع التلفزيون شاهدني وأنا اتفرج عليه منفرجة الساقين. يا ويلي كم لطمت خدي. صدقته. العفريت. تدثرت بغطاء السرير في اليوم التالي ونهرت المذيع. قلت له أن يغض الطرف. ولا يطلق لسانه فيَّ أمام الناس. لكن جارتنا قالت إن ابن عمتك يداعبني. قالت المذيع نراه ولا يرانا. ملعون ابن عمك. مقاول قد الدنيا صار. لسه عقله صغير. الجميع هذه الأيام لا حديث لهم إلا ارتفاع أسعار الأراضي والايجارات والسمسرة. لماذا انقطعت عنا كل هذه المدة. لماذا لا تزورنا دائماً. كيف نرى المذيع ولا يرانا. مرة جاب المرحوم راديو كبير. كان ابن عمك يحب أغنية بحلم بيك لعبد الـ. هذا الشاب. المهم. وسمعته مرة يغنيها وما كان ابن عمك هنا فاقفلت الراديو حتى أحتفظ له بالاغنية لحين عودته. ولما عاد فتحت الراديو فاذا الأغنية اختفت.

تململت في مقعدي. فتحت فمي لأتثاءب. سارعت إلى القول بلهفة:

ـ انتظر لحظة لا تقاطعني ما خلصت القصة.. اين كنا؟

ما كنت أريد أن أقاطعها. فقط أتثاءب. عدلت عن التثاؤب. شبكت ساقاً على ساق. أسندت وجهي إلى راحة يدي. قالت إن ابن عمتي أهداها «فيضرط» (فيديو- تيب). الله يرضى عليه.. منذ سافر إلى السعودية وعاد قال له الكريم: خذ. فأخذ.

تضحك بلا أسنان. كانت تقول لي زاجرة حين كنت أضحك لسبب لا تراه مضحكاً:

- إن شاء الله تضحك بلا أسنان.

لماذا لا يهديها ابن عمتي طقم أسنان ذهبي؟ لم أسألها.

قذفت نفسي في الشوارع، تلقفتني كهولة الملل. تسكعت. الشوارع هنا لا تبدل ملابسها. لا تشلح السترة الباهتة والبنطال الرمادي الفاهي وربطة العنق الكابية. صبحاً ظهراً.. شتاء.. صيفاً.

اجلس في مقهى. الزبائن كأزهار يابسة يذبلون على المقاعد. التفت من فوق إلى الشارع.. الأشياء والناس تذوب في أتون القيظ في الشوارع.. تحت. تجري مذبحة تجز فيها أعناق خيل المخيلة ويرتل الجميع نشيج الانشاد: إلا أنشودة الحكيمة الموحدة:

السمسرة. أسعار الأراضي. الوكالات. باريس. لندن. نيويورك. سوبر ماركت. مسلسل روتس. مسلسل بنت البواب. أسعار الذهب تحويل العملات. هارودز في لندن. مومسات شارع ٤٢ في نيويورك. ادمان الليدي بيرد للكحول (زوجة الرئيس فورد) سيارات فورد. مباراة التصفية بين ليدز يونايتد ومانشستر. هل يلعب بوبي مور؟ لكنه اعتزل.

وصبرا والحمراء. وأنا. أنشد الارتفاع إلى سحب لا تبلغ والرحيل إلى عوالم لا تنظر.

أدخل البيت. أدير المروحة. ترسل أنينها. أقتعد إلى جانب السيد جوني ووكر ندخن الحشيشة. ونلج الحمراء وصبرا. ضاع حذائي فانتعلت السحاب مضيت إلى الماضي. أرصفتي شواهق الجبال. أتمشى مع مريم أو الغزاوي وجيبي نهد أدس فيه يدي كلما ارتعشت برداً وأضنتها الوحشة. كان مسقط رأسي صبية تتأجج حيوية. ها هي تشيخ. شمطاء. ارتفعت ساقي اليمنى. ثم عن لها أن تستريح من تعب الراحة. فامتدت إلى أمام حيث هبطت على مقعد صغير. مسحت يدي على وجهي المضرج بالعرق، أذناي تصغيان إلى أنين المروحة، شفتاي تحتسيان البيرة. وأنا أراقب ككائن مستقل عن حواسه. كنت مجزأ كالوطن. الصمت ثقيل وأنين المروحة أصوات أشباح الموتى في مقبرة كبيرة. صوت المذيع يترامى فجأة من مذياع الجيران: يشيد بالاستقرار. وكنت أحلم بالقلق. ريح غبراء تصفر. آه يا وحدي.

نهضت بتثاقل، مشيت بأناة وبطء إلى غرفتي. خلعت منامتي وارتديت بدلة

داكنة رسمية لم تمس جسدي منذ غادرت مدينة الحلم بعد الانفصال. عقدت الربطة السوداء المرقطة بدوائر حمراء. اقتعدت طرف السرير أنتظر الفرج. النوم. أرنو إلى بدلتي في المرآة. يداهمني إحساس مفاجىء بالنشوة. رغم كل المرارة. كان زمن مد. وتراءت لي وجوه المرافقين والسيارات الفارهة ورائحة السيجار. انتعلت حذائي ثم صبغته حتى بات يلمع. تأهبت لمغادرة البيت. حين وقع بصري على المرآة مرة ثانية وتنشقت رائحة مدينة الحلم، بوغت بالحياة تدب في خطوتي الهامدة، ووجدت خفة في بدني المثقل، وراحة في حواسي المشوشة، وقوة في نفسي. سعيت إلى الباب الخارجي. مشيت كالطاووس معتداً واتخذت ملامح المهابة فتقمصت وجه العابس المزهو، وتقدمت بخطى واثقة طاووسية فيها كثير من الخال والكبرياء نحو الباب. إلا أن أحداً لم يهرع فيفتحه لي ثم ينحني. فتحت الباب وأرسلت بصري نحو الشارع المقفر. ساءلت نفسي:

- إلى أين؟

أطرقت مفكراً، أستعرض الأماكن التي قد ألم بها. ووصلت إلى النتيجة المرة المتوقعة. انقلبت على عقبي ومشيت منسرق القوى إلى فراشي وأدركت أن حياتي تذبل وتذوي. خلعت بدلتي، ارتديت منامتي. أحوص في غرفة النوم نافخاً. ثم أنفتل نحو الصالة. أتهالك على الكنبة. وأحدق إلى الهاتف بنظرة مغيظة. أدسّ يدي في جيب سترة منامتي وأتناول رسالة الغزاوي ثم أمسح عرقي بكم منامتي. كان وصول هذه الرسالة أخطر حدث يقع خلال أسبوع أو شهر أو فصل.. لا أدري فقد مزقت التقويم السنوي وحطمت ساعة يدي وأعطبت ساعة الجدار الكروية. قرأت الرسالة للمرة العاشرة:

أخي عناد

أكتب لك من المدينة التي نبصر فيها العدو بالعين المجردة، ونطلق عليه النار ما إن يتحرك. يضربنا فنضربه. ولعل هذا هو الفارق الأهم بين بيروت أو أرنون أو العيشية ومدينتك التي أسميتها «كهولة» في رسالتك الأخيرة، حيث يعضون على أصابعك بشدة فلا تملك إلا أن تتماسك وتصبر وتصمد. أما هنا فالوضع مختلف: يعضون إصبعك فتعض أصابعهم.

أمس وصلت أمي آتية من الضفة. سمعت بأنني استشهدت فهبت نحو

بيروت. أخذتها إلى صور. كانت مشفقة علي. تناولت يدها وقدتها إلى المخيم. درت بها على الملاجىء وسألتها:

ـ هل اقتنعت الآن بانني في حرز حريز. أتأبى الموت؟

التفتت بوجهها الشاحب وقالت بصوت متهدج:

ـ استغفر الله. الحمدلله.. ولكن ماذا لو جاءت طائراتهم؟

قلت أبالغ في طمأنتها:

ـ انظري إلى هذا الملجأ. ألف طائرة فانتوم تعجز عن تحريك حصاة واحدة فيه.

قالت تتوسلني:

ـ لماذا لا تحط عقلك في رأسك وتسمع مني وتتزوج يا ابني. يا حسرتي عليك، شوف الشيب في رأسك.

تنهدت ثم أضافت وهي تضرب كفاً بكف:

ـ يا حسرتي شاخ الولد قبل أن يترعرع ويشب.

وهنا ضربت كفاً بكف تعبيراً عن الأسى. ثم قالت معاتبة:

ـ ولماذا ترفض الزواج. ما لها ابنة خالتك. ألا تعجبك؟

قلت منثنياً عن هذه الأسطوانة التي تدور وتدور بلا توقف منذ سنوات وسنوات:

ـ انظري. هذا المدفع هناك، أنه مضاد للطائرات. الطيارون يخافونه فيهربون بطائراتهم ولا يقتربون.

قالت بنزق:

ـ لا حول ولا لماذا تتهرب من الموضوع؟

قلت بعصبية:

ـ لا أتهرب ولا من يحزنون.

في تلك اللحظة أطل سكران أبو الموت. ابن الـ. اية مصيبة قذفته في

وجهي. دنا منا فقلت معارفاً بينهما:

ـ أبو الموت تعال أعرفك إلى الختيارة.

أقبل أبو الموت متهلل الأسارير. ومد يده يصافحها ويقول متكلفاً الأدب واللياقة ـ يا له من مهرج ابن عـ

ـ أهلاً خالتي. الحمدلله على سلامتك.. متى وصلت؟

ضربت الختيارة على صدرها وقالت بصوت متفجع:

ـ أبو الموت. يا حسرتي. يعني يا ابني ما وجدت اسماً افضل من هذا تطلقه على نفسك.

قال مكركراً:

ـ والدي اسماني سكران.

ذهلت العجوز بدت وكأنها نسيت ماذا تود أن تقول. شردت نظرات عينيها لوهلة ثم قالت بحدة وكأنها تستأنف حواراً لم ينقطع:

ـ أنا والختيار سمعنا من الراديو. كان المذيع يتكلم عن الشهيد «أبو علي» ظنناه ولدنا. يا حسرتي على قلب الأم.. لكن قلب الابن على الحجر. أرقنا تلك الليلة ولم يهدأ لنا بال، ما إن أتيح لي حتى كنت في طريق إلى هنا. أبوه رجل أبطله الكبر.. آه يا أبو الموت. يقطع الموت ويومه.. ياحسرتي على شبابكم. الحمدلله على كل حال.

كتم أبو الموت ضحكة الحشاشين الخاصة به وقال:

ـ لا تخافي عليه يا خالة.. ابنك مثل القط بسبع أرواح. تفضلي إلى المكتب نقدم لك كوباً من الشاي.

قالت بصوت متعب وكأنها لم تسمع:

ـ الحمدلله. طلع أبو علي الذي استشهد واحد ثاني وليس ابني.

تبادل أبو علي الغزاوي وأبو الموت نظرة ذات مغزى كأنما كان الغزاوي يعتذر لأبي الموت عما قالته أمه. هز أبو الموت رأسه وغمز بعينه كأنما يقول:

ـ اتفهم. انما هو أمر طبيعي.

دخل ثلاثتهم المكتب في مخيم البص. فرحب الشباب بالختيارة وهرع أحدهم يعد الشاي.

أجالت العجوز نظرها في الجدران. أشارت إلى الملصقات المنتشرة وقالت تضرب كفاً بكف:

ـ كل هالشباب استشهدوا.. يا حسرتي.. شباب مثل الورد.

جلست على أحد المقاعد بتثاقل ثم ضربت على حجرها والتفتت إلى أبو الموت، سألته متحسرة:

ـ قل لي بربك. لماذا يرفض ولدي الزواج؟

قال أبو الموت بتخابث:

ـ أحمق بلا مؤاخذة. مع أن الصبايا يتنافسن عليه.

ثم التفت إلى الغزاوي متصنعاً الجد:

ـ صحيح يا أخي.. لماذا لا تتزوج، خل أمك تفرح بك.

هرب أبو علي الغزاوي بعينيه إلى الملصقات. ازدحمت في عينيه صور الشهداء. تربطه بمعظمهم علاقة حميمة حارة. ثم انخفض ببصره إلى الأرض ولاذ بالصمت.

جاء الشاي فأخذ أبو الموت يسكبه في الأكواب. قالت العجوز:

ـ ابنة خالتك بعثت إليك رسالة مع أحد الشباب. هل وصلتك؟

هز الغزاوي رأسه بالايجاب.

قالت العجوز متلهفة:

ـ هل أخبرتك أنك الانسان الوحيد الذي تفكر به.

قال الغزاوي وهو يشيح بوجهه:

ـ نعم.

ـ ماذا تنتظر إذن. لماذا تتمنع؟

اغتصب الغزاوي ابتسامة رفت قليلاً على شفتيه بعصبية لكنها سرعان ما

تلاشت. لاحظ أبو الموت أن صابر قد بدأ يفقد صبره. لم يدر ماذا يفعل. اكتفى بقضم أظافره. ما كادت الختيارة تدير أسطوانة الزواج ثانية وتلح على سؤاله عن سبب انصرافه عن أميمة حتى انفجر يقول بحدة كأنما يبصق الكلمات بصقاً:

ـ ألا تزالين مصرة على معرفة السبب؟

هب واقفاً ومال نحوها وقال بصوت قاس:

ـ لأنني لا أريد أن أصبح جباناً. هذا هو السبب.

واندفع منتفضاً يغادر الغرفة تاركاً أمه ذاهلة تنظر إلى سكران بعينين فيهما قسوة الصدمة وحساسية العصب. سألت تغالب دمعها ما استطاعت:

ـ وماذا قلت حتى يغضب.. ما له يا ابني.

قام أبو الموت وربت على كتفيها مواسياً وقال:

ـ أعذريه يا خالتي. حياتنا صعبة هنا.

في تلك اللحظة دلف الشباب إلى المكتب. سلموا على العجوز وأمطروها بوابل من الأسئلة عن المدن والأهل والأصحاب. حارت الدموع في عينيها. ثم هتفت بغيظ كظيم:

ـ الله يشتت شملهم مثل ما شتتوا شملنا.. بجاه سيدنا محمد.. اعتصموا بحبل الله يا أولادي.. وبالبنادق. أولاد اليتيمة لا يعرفون إلا لغة البواريد.

كركر أبو الموت في عبه. وراح يتأملها بحب عارم: انها تشبه أمي. قال لنفسه. تخاف علي.. وتريدني أن أعيد لها عكا في آن معاً. شعر أبو الموت بجفاف في حلقه. قام إلى المطبخ، شرب كوباً من الماء. ومسح بحركة خاطفة حاسمة دمعة همت بالانسكاب. ملأ رئتيه بالهواء. تمخط. ثم عاد إلى الختيارة.

● مسقط الرأس:

كان مثقال مضطجعاً على ظهره حاضناً رأسه بكفيه. رافقت عيناه طابور النمل الأسود يمضي مصعداً في خط مستقيم على الجدار الخارجي لبيته.. إلى أين. شرد ذهنه في تيه لا نهائي، يرتحل من مدينة جديدة إلى سماء لم يعرفها بعد إلى وجوه سوف

يتعرف إليها وسيقيم معها علاقات حميمة. يتسكع في شوارع لينين غراد. يقف تحت نتف الثلج كأنما نثر الغمام عليه كمشة هائلة من الياسمين الأبيض. يركض إلى المكتبة- أضخم من مكتبة الجامعة الأمريكية في بيروت- يطارد نحو المتحف قبل أن يغلق أبوابه. لاهثاً يرتقي درج المسرح ليشاهد فرقة البولشوي. للمسرح هناك درج كهربائي. لا بد أن يكون له درج كهربائي يصعد وحده. مثل درج سينما ستراند في الحمراء. سينما ستراند لها درج كهربائي. لا كهرباء فيه. هناك ما عليه إلا أن يقف فيحمله الدرج إلى «اللوج»، يسمونه في لبنان فوتوكلوب.. البلكون نقول. هناك سيسترخي قلبه الواهن بين أيدي الأطباء. وربما بين يدي طبيبة. ولعله يدعوها إلى البولشوي إذا كانت صبية. ما هو البولشوي بالضبط؟ فرقة رقص ربما. عليه أن يسأل. ولكن ماذا لو منعته السلطات من مغادرة البلد رغم التقرير الطبي؟ سيبعث برسالة إلى الصليب الأحمر الدولي يناشده. لعل شعر الطبيبة الصبية أشقر مديد. ولكن كيف يعلقها بشباكه وهو الخجول.. الـ.. انهم متحضرون هناك. سوف تبادره هي وتتحركش به. الروس يحبون أبناء العالم الثالث.. ولعل بناتهن يفضلن الشباب السمر؟ ألم يقل أحدهم أن بنات أوروبا الغربية يملن نحو الشباب السمر؟ بل ألم يقل أحدهم أن صبايا العاصمة يفضلن البدوي على المتمدن؟ أكثر رجولة قال. إشاعات. في بيروت لم يكن الأمر بهذه البساطة. عليك أن تبادر. ولكن ماذا يفعل من كان مجرداً من الخبرة تماماً. أمياً في هذا الحقل؟ ولنفترض أن الطبيبة تحركشت. ألا تعرض ممارسته الحب معها قلبه إلى الخطر!

غمامة كآبة غشت وجهه. لكن عينيه سرعان ما أشرقتا حين قال لنفسه: لكنها طبيبة. وهي تعرف. ستعالجني. هناك سيناقش أساتذة قديرين حول مسألة الجدل ونمط الانتاج الآسيوي. من يعرف؟ ربما أمسى منظر العالم الثالث بلا منازع. لعله يضيف جديداً ويطور التراث الانساني التقدمي. الحلم مشروع.. هكذا تكلم لينين أوشيء من هذا القبيل. والنقابة؟ لن يسافر قبل تشكيل النقابة. تفوه على الثأر الذي يغلق مصنعاً ويحول دون قيام نقابة. تفوه.

النمل يضطرب حائراً. يتيامن ويتياسر فيمضي مصعداً ثم يهبط ليمضي مصعداً من جديد.

فجأة انطلقت من ورائه صيحة حاقدة انتفض منها قلبه. التفت مذعوراً فالفى عناد الشاهد ممسكاً بحذائه وقد قتل لتوه صرصاراً أسود.

كان عناد يحدق إلى الصرصور بحقد يمتزج بالتقزز بينما دهمه شعور غامض بالانتصار. دارت عيناه نحو مثقال. قال وهو يبتسم ببلادة:

ـ ماذا تفعل؟

قال مثقال بامتعاض وهو يشيح بوجهه:

ـ أصمد.

سأله عناد رغبة في السؤال:

ـ أما زلت ممنوعاً من مغادرة المدينة.

هز مثقال رأسه بالايجاب. وتمتم:

ـ جواز سفري ما زال محجوزاً لديهم. واسمي موجود على القائمة السوداء في المطار والميناء وموقف الباصات.

أطرق وراح ينكت التراب. تنهد عناد ثم تمالك يجلس على الأرض المترية بجوار مثقال. مد بصره نحو الجبال البعيدة. قال دون أن يلتفت:

ـ من يصدق.. أننا كنا هناك نتصدى معهم؛ ثم غادرنا ساحة التصدي إلى هذا القبر الكبير. أنا أيضاً أرسلوا ورائي للتحقيق.

أضفى المساء المتسلل من الأفق على وجهيهما ظلال وحشة وانقباض. قال مثقال وهو يريح رأسه على جدار البيت الخارجي:

ـ التصدي أسهل من الصمود السلبي، هذه ساحة صمود.. ماذا جرى لروايتك. هل انتهيت منها؟

جالت عينا عربي في التراب ثم قال مصححاً:

ـ بل أمتع. الرواية لا تزال في حيز المشروع غير المنجز.

ـ زمن واحد. ومكانان مختلفان: هنا صمود وهناك تصدي.

ـ بل زمنين مختلفين، هناك زمن مد، وهنا زمن جزر. وماذا جئنا نفعل في ساحة الجزر، كان علينا أن نبقى هناك نقاتل مع الغزاوي وأبو الموت ومريم.

ـ جئنا نصمد.. الغزاوي لا يصلح للنضال السلبي.. كذلك مريم. النقيب المحقق

سألني مرة أخرى عن علاقتك بكفى. روايتك ليست رواية انها سيرة ذاتية تعتمد أمكنة وأزمنة مزورة.

النمل يمضي مصعداً، يعرف الآن بالضبط ماذا يريد. انتزع عناد عوداً يابساً من الأرض وجعله في طريق طابور النمل. ما دام لا يعرف هو طريقه حتى الآن. فلن يدع النمل يشمت به. قال في نفسه: «علي وعلى أعدائي يا رب» وهبط بالعود على الطابور. الذي انفض شتاتاً وعاد يتيامن ويتياسر ويضطرب في كل الاتجاهات. لو يرفع الجبال كحجارة شطرنج ويعبر إلى بيروت حيث التصدي. الفعل هناك باهر واضح.

نهض مثقال متثاقلاً وراح يحك شعره الأشعث وقال بعد شرود:

- ومع ذلك لكل ساحته. لا تنس أن هذه الساحة أيضاً شهدت أيام تصد.

كشر وهو يحول وجهه عن أشعة الشمس. قال بصوت قاتم:

- قد ننجح في تشكيل نقابة في المصنع.

تضاحك عناد مستهيناً. قال:

- ألا يزال المصنع مغلق الأبواب بسبب حكاية الثأر بين العشيرتين؟

هز مثقال رأسه بالايجاب.

- قال بروليتاريا قال. عمال المصنع هنا فلاحون. بل بدو انبثقوا من الجاهلية.

تأمل مثقال السلبية الساخرة البادية على محيا عناد الشاهد. وفكر: انه يهرب إلى الماضي. وأنا إلى المستقبل. كلانا لا يعيش الحاضر. قبل سفري إلى بيروت كان ماضيه مستقبلي. استحثه الحديث عن بيروت. عن المكتبات والمسارح وآخر الكتب والمجلات. عن صبرا والحمرا. فيحكي عن ماضيه في بيروت. ينتقل إلى الحمرا وصبرا وانتقل معه، هو إلى الماضي وأنا إلى المستقبل.

- هل تعود تلك الأيام يا ترى. أحلى أيام العمر.

- لكننا هربنا.

- لا عدنا إلى ساحتنا.

ـ ترش على الموت سكراً.

صمتا لوهلة. ومض نور مجنون في عيني الشاهد.

ـ لا بد أن أهرب..

قال الآخر وهو يدلف إلى البيت:

ـ أنت حر.. أما أنا فهنا مقيم.. الحجر في مكانه قنطار.

أية معجزة أخرجت الشاهد من البيت. قال مثقال:

ـ ألا تزال تدمر نفسك بالمخدرات، وجهك شاحب.

تأمله عناد وهو يشرد ببصره إلى الأفق. من أين يأتي بهذه القدرة العجيبة على الحديث في عشرة مواضيع دفعة واحدة.

ـ أمس.. رأيتك في المنام.

ـ الحرب الباردة الخفية بيني وبين الوالد تستحيل رويداً رويداً إلى حرب ساخنة. قال أمس لأمي على مسمع مني انني أحمل السلم بالعرض.. وأذهب إلى الحج والناس راجعون.

جاء مثقال من الوطن. وقضى في مدينة الحلم خمسة أيام. كنت أمطره طوال الوقت بأسئلة عن أحوال الشباب هناك. وكان هو يمطرني بوابل من الانتقادات: بدأ بالفيلا وأثاثها ومر بما أسماه الامتيازات ورجال الحماية. ولم ينته.

في الليلة الأخيرة. أقام أحد الأصدقاء وليمة عشاء بمناسبة وداع مثقال دعا إليها معارف وأصدقاء كلهم من جماعتنا. ضمنا جميعاً مجلس أنس. فدارت الكؤوس ودارت الرؤوس ثم راح صديق من مسقط رأسي يغني أغاني بدوية آثارت في قلوبنا الحنين والفرح في آن. ثم غنى أغنية «يومين والثالث عافراق الحبايب» وقال إنه يخصصها للاستاذ في سجنه الصحراوي، رفع كأس العرق وقال:

ـ في صحة الأستاذ.

فرفعنا جميعاً كؤوسنا. لكن صاحبنا غنى البيتين الأولين ثم راح ينحب بشدة على نحو مفاجيء. وقف كالخطيب والدموع تنهمر من عينيه كطفل أضاع أمه وقال باكياً:

ـ نحن نسكر هنا. . بينما جماعتنا هناك في السجون. . لنعترف أننا لسنا سوى لاجئين سياسيين هنا. من كان منكم مناضلاً فليعد مع مثقال إلى الوطن. .

خف إليه بعض الحضور يطيبون خاطره ويهدئون من ثورته المحمومة. بينما اعترض آخرون وأبدوا رأياً وجيهاً يقول إن وجود إخواننا في السجون لا يعني أننا يجب أن نستنكف عن المسرة والفرح. واعترض آخرون قائلين إن لا حاجة للمزايدة. فـ. وقالوا لسنا لاجئين فنحن في مدينة الوحدة القومية.

انسربنا من الحفلة خطفاً. عند البوابة الخارجية لبيت المضيف كان المرافقون بانتظاري إلى جانب السيارة. لم يكن بيت المضيف بعيداً عن بيتي فصرفتهم. واقترحت على مثقال أن نتمشى إلى البيت فالطقس لطيف رائق. طوال الطريق وأنا أحدثه عن دماثة رجال الأمن هنا. أنبأته أنني كنت سلبياً مثله، لكنني اكتشفت أن رجال الأمن هنا عقائديون. يختلفون عن رجال الأمن في بلدنا. قلت إن بعضهم تعرض للسجن أيام النضال السلبي. وتماديت في التفلسف فكررت ما قاله لي الرائد مرة: ثم إنهم من جماعتنا، خطأنا الخطير أننا نقارنهم في لا شعورنا برجال الأمن في قطرنا. لكن مثقال عاند وأصر قائلاً إن رجال الأمن هم رجال أمن سواء كانوا في الهند أو السند. . ثم استدرك فقال:

ـ في أية حال أتمنى أن يكون كلامك صحيحاً. أخشى ما أخشاه أن تكون قد ابتعدت عن الشارع فما عدت ترى الأمور إلا من زاوية السلطة.

رميته بالمثالية. فضحك وعلق:

ـ ألم تكن أنت رمز المثالية في يوم من الأيام.

قلت بانقباض:

ـ كنت مراهقاً:

تقدمنا في جوف الليل. تنفسنا ملء صدرينا ودخنا بنهم. أنشأ مثقال يصفر لحناً حزيناً. العتمة شعر امرأة لها وجه الصباح انهمر على وجهها فجلله بحلكته. حين اقتربنا من المنطقة التي يقع فيها بيتي- وهي منطقة يقطنها الوزراء وأركان الاتحاد والضباط الكبار ـ نبت أمامنا ثلاثة من رجال الأمن. تقدم أحدهم وكان عملاقاً ناهضاً في الفضاء. قال بصوت خشن:

ـ ماذا تفعلان هنا في هذا الوقت من الليل؟؟

تبسمت في ثقة وقلت:

ـ أخي. أنا عناد الشاهد عضو الـ.

قاطعني بغلاظة وقال:

ـ هات بطاقتك.

قال صاحبه مشمشماً:

ـ إنهما ثملان..

قال الثالث مشككاً في قولي:

ـ كانا يصفران.

انتفض الثاني وتساءل بدهشة:

ـ يصفران!!

ثم التفت إلي وقال بجلافة:

ـ وتنتحل صفة رسمية.. تصفر؟؟ هات بطاقتك.

قلت بهدوء:

ـ يا أخي لست أحمل بطاقتي. في أية حال البيت قريب. بوسعك أن ترافقنا و.

قاطعني قائلاً بغلظة:

ـ ألا تعرف أن هذه المنطقة محظورة..

صاح الآخر ينادي أصحابه:

ـ اثنان ثملان. سيدي.

جاء سيده. استرخت أعصابي وهممت بأن أشرح له أن ثمة سوء تفاهم. إلا أن الضابط صرخ في وجهينا بعد أن تفحصنا بعينيه فلاحظ أننا لا نرتدي بدلات وربطات.

ـ أولاد. ماذا تفعلان هنا..

هتف مثقال محتداً:

ـ احترم نفسك وإلا

لوح الضابط ذراعه في الفضاء وهوى بكفه العريضة على وجه مثقال، وسارع العملاق فركلني بين فخذي. ركض مثقال هنا وهناك يبحث عن حجر يضرب به الضابط بينما سقطت أنا على الأرض وقد غشى الألم الحاد على بصري، انقلبت رافعاً ساقي فإذا بي أرى خمسة من رجال الأمن ينهالون على مثقال بالضرب باقدامهم. حاولت أن أتناهض فتلقيت ركلة في رأسي ثم تلتها أخرى في معدتي.. فاذا بي أفنى عن نفسي وما حولي.

تلاقت أيدينا وفرت عيناي. سحاب دموي يمور وينسرب في قلبي. من عيني يطلع بخار متوهج. كنت أعاني، تنفرط أضدادي ثم تتحد لتنفرط مرة أخرى. تكاثرت. وهي أمامي واحدة أحد. أتقصف في بر قفر وهاجرة محرقة، تنشر صدرها الموحد، أضرع اليها منظوماً عن أشتاتي. تمزج خوفي منها برجائي فيها. توحدني ثم تهوي علي بسيف السؤال القاطع. تسأل:

ـ تخاف هبوط بحري.. كي لا تفاجئك جثة ابن خالي؟

تلمع عيناي فاداريها في الوحشة السوداء. تكسرت مثل موجة تأوي إلى الرمل ليعصمها من الماء. سقط وجهي في العراء. كتبت عيناي على الدمع ولم تنطق. قرأت مريم بصوت عال:

ـ تخشى إن مسستني أن تسيء إلى قتيلك!

معقد قالت وضحكت. أخذت بيدها ومشينا. قلت بل منفرط. شعت عيناها بضياء يميل مع أشعة الشمس. إذن أعيد لك عقدك. هبت ريح فلعبت مريم على الكلمات كما تلعب على أرجوحة من العواصف. ودعتني، ترددت ثم لعبت معها. قلت إنني أقرأ المادية الجدلية هذه الأيام. قالت:

ـ لم ترتكب خطيئة حتى تعتذر.

أخذتني الكبرياء قلت:

ـ لم أعتذر.

قالت:

ـ لا أكلمك. أحاكي عينيك.

ودخلت في جسدي كرعشة النشوة.

وكركرت أم مثقال ضاحكة ثم غطت فمها بيدها المعروقة وقالت:

ـ أنت تقول كان.. ومثقال يقول سوف، أنت كان ومثقال سوف، أنت.

ثم نحت يدها عن فمها وتركت ضحكتها تتدحرج.

ـ والمثل يقول جيناك يا عبد المعين حتى تعين.. لقينا بدك من يعينك.

ولم أدرك العلاقة بين المثل وكان. وسوف.

وبناء على ما تقدم سألت المعلم كيف نثبت كروية الأرض فهرع إلى الكتاب وقرأ: «إنا أعطيناك الكوثر فـ».. هذا هو الدليل قال. فلم أفهم العلاقة.

ولكن البحر ينفث دخان غليونه في وجه الجبل المتجهم المهيب ويكركر ويهرب مثل صبي عفريت.. ويعود.

اذن تبسم النقيب حين أنبأته انني لا أزال قومياً. ثم ضحك حين سأل وأجبت تنظيمنا سري ولن أبوح بالأسماء ولو مزقتم جسدي بأحذيتكم الثقيلة. وضحك النقيب مرة أخرى. وكان جدي يقول الضحك بلا سبب من قلة الأدب. واستغرب النقيب وصفي لأحذيتهم بأنها ثقيلة. وأرجع ذلك إلى مبالغتي في مطالعة الشعر.

ويقول جدي أيضاً تضحك بلا أسنان. وكان هو بلا أسنان. والنقيب بحذاء خفيف.

إذ ان أنفاس الغزاوي تقول: عمر الشقي بقي. ترى ألم يكن أبو الموت شقياً بما فيه الكفاية؟

غير أني كنت أود أن أقول للنقيب إن هددني بالجلد. الجلد لا يكفي اسحلني. فان قال سنسحلك. هتفت به متوسلاً: السحل لا يكفي اصلبني. فان. لكنه لم يهددني أبداً. وفهمت أنه يستضرطني.

وكان علي أن أشد الرحال، فأضرب في الليل إلى بيروت.

مثقال في بيروت دهشة تمشي على قدمين. قدمان مشاءتان مضطربتان. يركض بين مكتبة الجامعة الأمريكية والعربية. تتوهج عيناه بومض الاكتشاف حين يقع بصره على كتاب كان يحلم به ولا يعرف اسمه. وغنى مرة وهو يشرب نخب بحر بيروت:

ـ «اللي شفتو قبل ما تشوفك عيني. عمر ضائع ازاي بيحسبوه عليَّ» واعتقدت أن صوته يستحق الرثاء.

لكن البحر يندفع نحو الأفق أزرق جامحاً عارماً فيرتطم بالأفق يضرجه ويتعربش. يصعد جداراً سماوياً ثم ينتشر في فضاء لا تحده حدود. ينحني وينفرش ويتقمص فضاء. والشمس عين منذرة محذرةمتعالية. غير أنها لا تعطيني الضوء الأخضر أبداً. دائماً ضوؤها أحمر: لا تعبر.

لكني أعبر.

الشوارع في بيروت تركض، والبحر يسبح، يعلو صدره وينخفض. ولا يتعب. سنابك دهشة عيني مثقال تضرب ما بين الجبال ونحن في طريقنا إلى الجبل. تضرب أخاديد ما بين الجبال فينتفض الضباب غباراً ويروح في الفضاء.

والروشة فارس يمتطي صهوة الموج ويطارد خيالاً نحو الرحابة. ونرقص أنا ومريم في أحد ملاهي الحمراء. ثم ندور ونيمم صوب المتراس. نحرس البحر. والأرصفة تتقدم. الرمال تراوغ. الموج يقدم ويحجم، يكر ويفر. الصنوبر ينهض وينفش شعره. وخطوات تهرول بين الشياح والرشيدية ومكتبة الأمريكية والعربية واللبنانية والمركز الثقافي السوفيتي. ومركز كنيدي. نلهث. لا نلتقط الانفاس.

إلا أن مسقط رأسي صغير لا يتغير. محرك لا يتحرك. سلحفاة محنطة، نمت أحراش واطلال حول المدينة الأثرية منذ عصور ودهور، ثم اقتنعت بأن القناعة كنز، وظلت منذ الديناصور ثابتة الأقدام لا تميل ولا تزول ولا، لكنها تتعرض لنوبات طيش بين الدهر والدهر، فتميد وترقص ثم تعاودها حكمة الشيوخ.

كثير من الطيش يفرح القلب.

الحر شديد. المروحة تدور. . والذبابة. وضعت أوراق روايتي جانباً وكانت بي رغبة في المطالعة. طفت مكتبات مسقط رأسي ذات المسحة القرطاسية والغبار. وعدت إلى الدار بخفي حنين. فأشارت علي كفى مطالعة دليل الهاتف. قالت إنه مسل. وأكدت أنها تقرؤه كل ليلة قبل النوم. وأنها تتمتع به ولا تتمتع برواية جيمس

جويس التي أهديتها لها. لم تفهم منها كلمة واحدة. لا ولا رواية كامو الباعثة على الضجر والغثيان. وأشارت علي بمطالعة دليل الهاتف قبل النوم بدلاً من تناول أقراص المنوم. السامة. قالت إنها لو كانت ثرية لاتبعت نصيحتها ولكن.. لا حول ولا

مسقط رأسي

كنت أحلم وعيناي مفتوحتان. اضطجع على ظهري. الحر خانق وذبابة تحوم والمروحة الكهربائية العتيقة تدور، وساعة الجدار معطبة، والعرق ينزف من أنحاء جسدي. ولا أجففه. جعلت أقلب عيني في سقف الحجرة. أغمضت ثم تقلبت على جنبي ثم فتحت عيني مرة أخرى. وكنت أحلم ولا أحلم. الحلم دمر ولم يبق سوى الكابوس واتقلب في الفراش ضجراً مهدوداً.

وقلت إنني ساستوي جالساً ثم انهض معتمداً على يدي وانزلق من الفراش وأمشي خائر القوى إلى الحمام. وقلت سأتناول بيرة الصباح، في اللحظة التي يتناول فيها الغزاوي قهوة الصباح في مخيم البص قبل الغارة الصباحية أو بعدها. غير أن رغبة كئيبة ثقيلة زينت لي معاودة النوم. لكن الجسد المتعب من تعب راحة تأبى. قلبت عيني فيما حولي واجماً وإذا بوجه كفى يطل ويستتر وأنا يقظان نائم والنقيب يضحك مباهياً بنفسه وساخراً مني. وقلت ينبغي وضع حد لهذه المهزلة. واليقظة مدينة يسكنها الحلم واليقين باب يعبره الشك، والغفلة ادغال ترتفع منها قامة أشجار الصحو والخيال في السماء وتمتد غصونها في الفضاء تشير وتومىء وتنحني وتنطوي.. بلا جدوى، فتميل في السدى.

وحائراً بين الشبهة والحجة أضطرب بين بسمة النقيب المتشفية ونظرة استهانة لمحتها خطفاً في عيني كفى. وكانت ساعة الجدار معطبة. وعلي حزم أمري. لكن اليقين يتلاشى في الشك ثم يبزغ فجأة كجواد جامح يشق صدر الأفق فيلح على بالي.. فاضطرب. ثم أنسى.. إلى حين.

انزلقت من السرير. من مذياع الجيران يترامى صوت عبد الحليم سمعته يقول شامتاً: «وستعرف بعد رحيل العمر أنك كنت تطارد خيط دخان»

تأملت وجهي في المرآة وقلت أن لا داعي للشماتة. وخلعت منامتي ثم فتحت الدوش، انهمر ماء على جسدي وامتزج بالعرق ثم ذهب به.

وقال: «وسترجع يوماً يا ولدي مهزوماً مكسور البنيان».

قلت دون اكتراث انني ما كنت أعرف عندما كنت اطارد خيط دخان أني كنت اطارد خيط دخان. وكان الجدار كابياً باهتاً وقالت كفى يلزمه صبغ فهززت كتفي ولم أعلق. تناولت قرصاً من الفاليوم. وتناول الغزاوي هناك بعيداً في مخيم البص بندقيته الرشاشة والفطور. وأنا لا أفطر. والساعة معطبة هنا، ومنذ جئت قمت أعدو مشتداً في الوقت رافعاً سيفي وجوادي يخب ويسبق الريح وأهويت بسيفي على الوقت لكنه كان سباقاً. اغتال الوقت فيغتالني، اقتله فيقتلني. وهذا ما كان ينشده النقيب حين ازدراني فلم يعتقلني. حصت في البيت. جلست على الكنبة. نهضة. سعيت إلى الشرفة. مررت بالهاتف الميت.. رفعت سماعته أجس نبضه فإذا هو بلا حرارة. لن أدفنه. وفي الشرفة جلست إلى الطاولة وحدقت بعينين زائغتين إلى الأوراق، ثم تناولت قلم الحبر فاذا هو جاف وإذا المخيلة ناضبة مقفرة.

كنت مظلم الوجه والمدينة عبوس. واسكن السكينة والصخب يسكنني. وحائراً بين الشك واليقين. تثاءبت ثم طردت بكفي ذبابة حامت حول رأسي.

ونظرت ناحية فأخذت عيني جبل تعتليه أنقاض. وأطلت أطلال القلعة. ورحت أحصي عدد السيارات التي ترتقي الشارع الواقف مائلاً كالسكران.

ورأيت فيما يراه النائم انني كنت أجلس إلى مائدة كبيرة مستديرة. تحلق حولها شيوخ وأمراء وباشوات وأغوات ودكاترة وعسكر. وكانوا يبحثون في موضوع خطير قد يتوقف عليه مصير العالم: العلاقة الجدلية بين النفط والفيل والنملة والتصنيع والمقاومات الأرضية. ويقارنون بين خطر الاتحاد السوفييتي والغزاوي. وكان الشيوخ نيام يشخرون وقد توسدوا أذرعتهم. أما العسكر والدكاترة الاقتصاديون فلم أفهم لغتهم. وكان أكثر ما لفت نظري في ذلك الاجتماع حجم الطاولة. فعلى الرغم من أنني لمحت شيخاً ينحني تحت الطاولة ويعبث بأصابع قدميه بيده اليمنى ثم يرفعها ويتنشقها ويشع السرور من عينيه إلا أنني كنت أفكر وأطيل التفكير في أمر الطاولة المستديرة. وحين سألني أحد العسكريين عن رأيي. قلت بحياد وفتور أنني موافق على كل ما طرح من آراء قيمة حكيمة ولكن حضرات وسيادات وفخامات أرغب في طرح سؤال يلح علي، يسيطر على بالي ويقلقني. نتر النائمون رؤوسهم فاشرأبت، وأرهف المجتمعون السمع بينما رمقني مقدم بنظرة مستريبة لا تخلو من فضول حتى إنه كف عن نكش منخريه. وأخيراً سألت:

ـ أرغب في أن تفسروا لي كيف ادخلتم هذه الطاولة الهائلة المستديرة من هذا الباب الضيق؟

وكنت اعتقد أن سؤالي خطير وفلسفي. إلا أن المجتمعين اكتفوا بالتصفيق الحار. ثم عاد الشيوخ والباشوات إلى نومهم. بينما سكب عسكري كوباً من الماء على الطاولة وقال وهو يشير بأصبعه الغليظة إلى الماء الذي شكل بحيرة صغيرة:

ـ أصحاب السيادة والجلالة. لنفترض أن هذا الماء هو البحر الميت.

ثم مد ذراعه وتناول كوب الماء الفارغ ووضعه غرب البحر الميت وتابع بكل اهتمام ورصانة:

ـ ولنفترض أن هذا الجبل هو جبل القرنطل أو قرنطل.

والتفت إلى الرجل الجالس إلى جانبه فسأله عن اسم الجبل بالضبط. أجابه جاره بشخير متقطع. فاستأنف:

ـ فاذا ما وقف مليون عربي مثلاً.. أو مائة مليون. طبعاً إذا سمحت لنا الأطراف المعنية. اين كنت آه. إذا وقف مائة مليون من العرب الأشاوس الذين يمتازون باحتساء البيرة ليل نهار لأسباب تتعلق بالمناخ.. ووقفوا شامخين منتصبين على قمة الجبل، ثم باعدوا ما بين سيقانهم حين يصرخ بهم القائد: «استرح». ثم بالوا جميعاً وفي وقت واحد على السهل. فان اسرائيل أيها السادة والقواد المعلمون المناضلون سوف تختفي تحت بحر عربي أصيل من البول. تصوروا أيها السادة.. مائة مليون عربي نختارهم بدقة من بين المائة مليون وأربعين. .صحيح أن المائة مليون قديكونون من الأميين، إلا أن أحداً لا يجاريهم في احتساء البيرة والتبول في الشوارع وعلى الأسطحة وحتى على المارة رغم كل ما يكتب على الجدران مثل: من يبول هنا حمار ابن حمار. فالمسألة اذن بسيطة. بلا تكنولوجيا. بلا ضغط بالنفط بلا بطيخ. ان يبول مائة مليون من الواقفين كالرماح من الأشاوس.. هذي هي الخطة بكل بساطة.

وعلى الرغم من أنني لم أتبين بالضبط كيف وجدت نفسي هنا ولماذا إلا أنني لم أملك غير أن أصرخ:

ـ ونابلس يا سيادة المقدم. ونابلس. ماذا عن نابلس. فاعترض معترض وقال:

ـ ولماذا لا يشمل اعتراضك جنين وبين لحم أنت اقليمي متعصب.

هززت كتفي وفتحت فمي لأقول إنني لست من نابلس.. إلا أنني التزمت الصمت غير مكترث. وسألت نفسي «فعلاً. لماذا لم يشمل اعتراضي كل المدن العربية الواقعة غربي الجبل. ولم أعثر لسؤالي هذا على جواب مقنع ولم اهتم.

من الشرفة أرى السيارات تزدحم. السيارات البعيدة صغيرة تقترب فتنمو وتنمو. ولا أعرف أحداً من سائقيها ولا أعرف أنواعها.

وقلت للنقيب في التحقيق انني قومي حتى نخاع العظم. وكنت أشبك ساقاً على ساق. وكان هو يتأملني بعينين لا يكف محجريهما عن الاضطراب والدوران. وفي حركة تلقائية التفت فدنا انفي من ابطي وتنشقت رائحة العرق. فاضطربت. ابتعدت عن النقيب متحججاً بصحن السجائر القابع على منضدة في ركن الغرفة. ثم راقبته بعينين من ثلج وسكر. وقلت في نفسي: لعله يستحم صباحاً مساءً ويتعطر بانتظار كفى.

تبسم باستخفاف وقال:

ـ لكن عبد الناصر مات.. وصاحبك مثقال قال لي إنك فصلت من الحركة لانك لم تواكب تطور الحركة ولم تقبل بالماركسية بديلاً عن القومية.

امتقع وجهي. والعرق غزير، تماسكت. قلت بثبات:

ـ مثقال كاذب. إنه صديق ويريد أن يدفع عني أذاك.

نهض النقيب ودار حول مكتبه ثم وقف أمامي وأطلق ضحكته ذات الرنين الشامت الساخر:

ـ أتعرف. حققت مع مئات الرجال. لكنني لم أرَ واحداً يجهد في اقناعي انه ينتمي فعلاً إلى تنظيم. كلهم ينكرون في البداية. انني احترمك.

عرتني قشعريرة النشوة، وشعرت بأني انتصرت في هذه الجولة انتصاراً حاسماً. لكنني لم الحظ ومض المكر في عينيه.

قلت لمثقال انني لا أشعر بالمبرر والراحة والنشوة المتأججة إلا عندما استدعى للتحقيق. تحلق معنوياتي عالياً في الفضاء. فاذا ما غادرت مبنى المباحث. وعاد إلي رشدي هبطت معنوياتي على الأرض مثل قتيل.

أمشي وحيداً، الشمس تلح والجبل ينحني. ولا أعرف أحداً. بل لي معارف

ولكني بلا صديق. ولغتي غريبة ولا أفهم في البورصة.

بدأت أميل إلى الوحدة. بدأت اعتادها، أرى فيها وجوهاً كانت علي خفية.

وقال الشيخ الصبر هو تجرع المرارة من غير تعبيس! وقال الماء من لون الإناء. ثم استتر وعاد ينبت في ضباب أسود يجلله ثوب من الثلج.

● وتوافد الشباب واحداً بعد الآخر إلى الحرش حيث كنا نجلس أنا ومثقال، وأقبل معهم الغسق وهواء رقيق.. وأوراق. وما عرّف مثقال بيني وبينهم، ولم يفتني أنهم لم يقدموا لي أنفسهم أيضاً رغم أنني كنت كلما صافحت أحدهم أقول:

ـ عناد الشاهد.

فراودني الشك، ورمقت مثقال بنظرة مستريبة، الفيته يتململ ويسارقني نظرات ذات مغزى، وبدا أنه مرتبك. فأدركت. قمت ونفضت التراب عن قفاي. وغادرتهم دون وداع.

وأدركت انني مقطوع من شجرة. اجتماع سري. وأنا غريب. ومشيت داساً يدي في جيبي محتقناً. وثبت في الغسق وسط الشارع وصحت بكل الغيظ المتأجج في العصب:

ـ أنا عناد الشاهد مقطوع من شجرة.

لا عشيرة ولا حزب. ولا وقت.

اضطجع فاتحاً عيني أحدق إلى السقف. والمروحة السجوز تثرثر. ولا توقف نزيف العرق. اغمض عيني إعياء كي لا أرى السقف الهابط والجدران المتقدمة المحاصرة والأرض التي ترتفع تحتي. واذهب في الغفوة، وأغمض حتى لا أرى.. فأرى الهول يتفتح كما نهدين في صدر صبية.. لا، أرى الهول يتفتح كما وردتين في صدر صبية. وردتان ناهدتان تتفتحان. والقميص ينشق. وغيم يتسرب إلى وجهي يقتحم غرفتي مثل قذيفة اقتحمت شقتي في الفاكهاني ونامت إلى جانبي على السرير وبلا موعد ودون دعوة.. ولم تنفجر، ظلت هناك إلى جواري على نفس السرير ولم تنفجر. واضطجعت القذيفة ببرود مقزز مثل كفى. والدهشة وردتان ناهدتان في صدر صبية انفتح قميصها فتطاولت الوردتان. وكانت الفتاة مريم. وتساءلت لماذا يسكن الضمير في الذاكرة؟ وصوتي الغريب لم يلتزم بما قلت. قال بتصرف لماذا تقيم الذاكرة في الضمير ولا تقعد؟

وكنت أهوي وجناحي صوت يستغيث في ايقاع كسير. . وما سمعني الله.

● مدينة الحلم

وأشار الرائد علي بأن انظم قصيدة ثورية امتدح فيها خطة الدولة الخماسية. قلت هذا اقتصاد. . ومريع. قال انظم فيَّ قصيدة ان شئت. ألا أوحي لك بأفكار عظيمة. وغمز سوزي في السهرة يتوسلها مسايرة عشيقة المشير وتسليتها. لكن سوزي أعرضت في خال وكبر. ورشفت من كأسها.

وكنت أرى الجرس. . . ولكن من يقرعه؟

وما ارتضيت خلع ثيابي إلا وحيداً متوارياً في الحمام. إذ كنت اتوقع أن ثيابي الداخلية متسخة. وتبسمت بخبث في المرآة وأنا أغسل اسناني. وسوزي تنتظرني عارية في الفراش. . وكان الفراش مائدة وأنا من اللئام وسوزي يتيمة.

● مسقط رأسي

قال مثقال أن النقيب سأله عن نشاطي السياسي أثناء استجوابه.

لماذا يستجوبونك ولا يستجوبوني؟

تضاحك مثقال من الأعماق. غبطته. قال:

- يزدرونك.

ثم استجوبوني. ففرحت. تأكدت لنفسي انهم لا يزدروني

أعلنت انني لا أزال عضواً في التنظيم، لكني تمنعت عن الاعتراف باسماء رفاقي. فضحكت عينا النقيب. ثم أظلم وجهه على نحو مفاجيء.

● مدينة الحلم:

دعوتها لرؤية لوحاتي. وترسم أيضاً؟ هذه ظاهرة.

وكان جسد سوزي باهراً. وقلبي يخفق خفقاً متداركاً، يغوص في الرعب

ويهوي في التردد. فهمت منها أنني شاعر وليس بوسع الشاعر أن ينضبط. وحكت عن مایاکوفسكي.. وطلبت كأساً من «الشيري» وأفهمتني أن هذه الفيلا التي انتقلت اليها جميلة كالقيد الذهبي.. واستدركت: بل كالرسن أو اللجام. لا أذكر. لكنني أذكر ومض الرغبة في عينيها وضحكة الشهوة الجامحة. أغلب الأدباء يرسمون. هذه ظاهرة.

تشبك ساقاً على ساق ينحسر ثوبها الهفهاف عن فخذين باذخين. استرق إليهما النظر ثم أقلب طرفي فيهما ذاهلاً. وكان محلولاً عند الصدر فوق نهدين متوثبين لو ادفن رأسي بينهما لرضعت مخيلتي خمر المعجزة. تأملتهما متوثبين مباغتين. جالستني مجالسة الأنداد تحدثت عن بايرون وأفهمتني أنه شاعر مقاتل دون واو العطف. لكن همنغواي أبدع ثم قالت ثم ثمل ثم انتحر.

جمعت شجاعتي وسألت بعد تردد:

ـ لماذا تزوجت الرائد؟

غمز فمها ضاحكاً فأحسست برعشة تسري في بدني كأنها رعشة الحمى. احتست بأناقة. قالت:

ـ الكمال هو زواج المال بالقوة.

أدركت أنها لا تراوغ هذه المرة. إن قرارها قد قر. طرحت رأسها إلى وراء فتطاير شعرها كالهواء، ثم انهمر كنهر عاص. لضحكتها رنين النشوة. سألت وهي تشعل سيجارة:

ـ وأنت.. ما سر صداقتك بمثل الرائد؟

شملتها بنظرة فاحصة. قلت:

ـ رفيق درب ونضال. وأحترم صداميته أيام النضال السلبي. كان رجل المهمات الصعبة.

أطلقت ضحكتها فرنت في فضاء الغرفة رنين كنائس يوم الأحد. ورجع صدى الرنين في دمي وأعصابي وحملني ثم قذف بي في أتون الرغبة الجامحة.

● مسقط رأسي :

ولم يفهم مثقال إلحاحي أمام النقيب المحقق على انني ما زلت عضواً في تنظيم لا وجود له. وأعلن عن شكه في قواي العقلية. وقال يتعذر علي فهمك أحياناً. تزعم للنقيب أنك لا تزال ملتزماً. وتدعي أمام مريم أنك على يسار اليسار وأنا أعرف أنك لا هذا ولا ذاك.

وما كنت أعرف أنا ما أنا.

●مدينة الحلم :

وانفلتت سوزي: انه مقزز. لو تسمعه وهو يتجشأ بصوت مرتفع، وهو يمضغ الطعام مرسلاً أصواتاً تصد النفس. ويرتشف الشاي أو الشوربة بصوت مزعج. يتلمظ ويتجشأ ولا يعتذر. يثير الغثيان في نفسي.

اختبطت معدتي.

اعترفت بأنه يتوسلها اقامة علاقة حميمة مع عشيقة المشير: «تلك المومس السوقية.. تصور». ولم أكن بحاجة لأتصور. كنت أرى.

وذهبت بعيداً في الكشف المباشر عن ما يقال وما لا يقال. فأفهمتني أنه يتوسلها أن تتحدث بالفرنسية وهو يضاجعها. قالت:

ـ أذعن بعد الحاحه. وهو لا يعرف كلمة واحدة من الفرنسية.. فما أكاد أنطق بكلمتين وقبل أن انتهي من صياغة جملة مفيدة، يعوي باللذة وينتفض ثم ينثني عني ويقوم.

يتركها وحيدة في السرير في منتصف رحلة النشوة. وكنا وحيدين.

المطر يقرع النافذة بالحاح، لم نلتفت ولم نفتح.

● مسقط رأسي :

أصابني الحر وأنا أجوس شوارع المدينة أرتقي محدودباً مختنقاً ثم أنحدر مائلاً تصهرني الهاجرة. أمشي منسرق القوى ممتقع الوجه. اسمع من طرف السماء المتوارية

وراء سحب مثقلة بالكآبة والوجوم هدير الـ «ف- ١٦» والشمس والرؤى والكآبة تـغـير. والعابرون يمشون في الأرض مرحاً وفي آذانهم وقر وعلى عيونهم حجاب مستور. وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود. ومر بي رجل ذو كرش ووجه جهم فحسبته مقاولاً أو من المباحث. لكنني كذبت وهمي: لو كان مقاولاً أو من المباحث لكان ينطلق في سيارته. كان يمشي مرحاً لا يسمع هدير الطائرات في العاصمة الأخرى. إنه يفكر في البناية التي سيقيمها.. هل يجعل منها سوبر ماركت أم موقف سيارات أم يؤجرها سفارة. القرار ذو أهمية قصوى.. فالمهندس في عجلة من أمره ويلح على معرفة غرض الرجل ذي الكرش من العمارة. لا أنه ليس صاحب مشروع عمارة إنه يراقبني يسارق النظر إلى مسارقة. كان يمشي في اختيال كالطاووس. ويرمقني بنظرة جانبية، لماذا يوسع من خطاه، وينفتل في شارع جانبي؟ والشارع الجانبي مشى إلي وبات الرجل ورائي. ويرمقني بنظرة مستريبة. اختنق. وكدت أن انقض عليه وأصرخ:

- إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً

لكنني أراقبه ويراقبني ألاحقه ويلاحقني. من يطارد الآخر؟ والشوارع يباب تمشي إلي ولا أمشي اليها. تأخذ خطواتي. التفت الرجل ولمحت وجهه خطفاً فارتعدت رعدة عود قصب مزروع في أرض يخضها زلزال عظيم. إنه ذلك الشاعر الذي اعتديت عليه في الزنزانة. ولمحت مسدساً يواريه تحت سترته. تلفت مظلم الوجه فاذا المارة يمشون مرحاً ووجوههم آمنة مطمئنة ولكن بلا ملامح. أحسست بنفسي تتساقط انفساً وبحيويتي ينضب معينها: حياتي تذبل وتذوي. وهدير الطائرات.. والشاعر الذي دسته بحذائي، ومسدسه. ودهمني إحساس ببهجة هستيرية مريبة. أشرق وجهي حين تنبأت بأن الشاعر الذي دسته بحذائي سوف يطلق النار بين عيني فيطلق سراح ضميري المعتقل في الندم.

● وتناولت قرصاً من الڤاليوم وكنت أهرب من الأشباح الطائرة. إذ قال صوت انطلق من جهاز مكبر الصوت أن الفانتوم تعني شبح بالعربية وهربت والطائرات الشبحية تلاحقني واحدة تهبط وأخرى تعلو كصدر يلهث. ومن بعيد نبتت مدينة بيضاء في جوف الليل. وصرخت محذراً مستجيراً فاذا بكلماتي عارية من الصوت. والصوت نسيته معلقاً على حبل الغسيل هناك. وركضت نحو المدينة لكن خطواتي دارت في حلقة مفرغة وما كنت أتقدم. غير أن المدينة نفسها ركضت إلي. فدخلتني ورفعت رأسي فاذا السماء صافية ولا طائرات ولا أشباح. ضحكت بجذل صبياني

وقلت في نفسي هذي هي المدينة الفضلى. منذ قرون وأنا أضرب في الأرض بحثاً عنها بلا جدوى. أحتمل الخطوب والمشاق. ولكن بلا جدوى. وها هي أخيراً تنهض كاملة من رحم الليل وتأتيني. وكانت العلامة جبلاً يرتفع عند كتف المدينة. عرفتها. إنها الحلم الذي رأيته في الحلم. ولكن ما هذا.. ما الذي أرى. وما الذي أسمع. نساء عراة ورجال بقرون فوق رؤوسهم يضطجعون على الرمال ويتنشقون الهيروين.

قيظ والحر خانق وأتضرج عرقاً وأذوب. غير أن المروحة تدور وذبابة تدور وساعة الجدار معطبة. تناولت أوراق روايتي والمروحة تدور كالأرض وأنا مصلوب في قرص الشمس والذبابة تدور حول نفسها في حلقة مفرغة تقلد حياتي وتدور حول الشمس. المروحة تصدر أنيناً زائفاً وحشرجة مومس محترفة تتكلف لذة مزورة. ألقيت نظرة خائرة على أوراق الرواية. لفمي طعم النيكوتين. فكرت في غسله بالكولينوس حتى أتمكن من تدخين مزيدٍ من السجائر بلذة ودون الاحساس بمرارة مالحة سوداء على اللسان.

وانبثقت أمامي امرأة أشبه بالغانية فسألتها إن كانت هذه المدينة هي المدينة التي حلمت بها وتوسلتها. فهزت رأسها المنفوش الشعر. ثم سألتني عن اسم المدينة التي حلمت بها. فتبسمت لياقة وقلت:

ـ فجور. جمع فجر. يعني.

أطلقت المرأة ذات الشعر المنفوش ضحكة داعرة وهمست بصوت كالفحيح:

ـ هذه ضالتك. اسمها فجور.

فاجتاحني فرح عارم وقرصتني نشوة الانتصار ومفاجأة الخلاص. لكن المرأة المنفوشة قالت بصوت غانية وهي تطق اللبان:

ـ لكنها ليست جمع. هي صفة المدينة وسكانها. أنا اسمي خطيئة ورجلي اسمه فسق.

فغرت فمي مشدوهاً وهممت أن أقول لكني لم أجد ما أقول. فانتحبت. ثم فتحت عيني أكفكف الدموع. فاذا المرأة تذهب في العتمة. صرخت:

ـ ولكن الفانتوم. ولكن الحلم. ولكن المدينة الفضلى. و.

ورفعت ذراعي إلى السماء. إلا أن المرأة المنفوشة اختفت في شعرها الليلي المنفوش كالليل.

● مدينة الحلم

فقرعت مريم بابي بعنف. ونهضت من نومي، وضعت الروب على منامتي وسعيت إلى الباب نصف نائم. أيقظني بياض الرعب في وجهها ووهج الاضطراب في العينين. دخلت كزوبعة مجنونه. قالت بكلمات متداخلة مفككة وأنفاس لاهثة:

ـ انهم يطاردون محجوب عبد الساتر. ابن خالي. يريدونه حياً أو ميتاً. افعل. شيئاً. إنهم. جماعتك.

جئت بمحجوب إلى منزلي والليل يتواطأ معنا. نقتعد الصالة، استرق النظر إليه مسارقة.

ـ تشرب شاي؟

بكل لياقة:

ـ شكراً.

أتأمله:

ـ شكراً ماذا! يعني تشرب أو لا تشرب؟

يرمقني ببصره ثم يرده عني مسرعاً. فاشستي يقول في نفسه حتماً. أتأمله خلسة، أيعقل أن يستثمر ابنته أو شقيقته وسيلة لغاية كسب الأنصار والأعضاء؟ اغلق قلبي دونه.

ـ من اعترافات الرائد القائد ـ

ننام في غرفة واحدة. اسمع لهاث أبي، أمي لا تصدر أي صوت. تئن كالمتوجعة بين لحظة وأخرى. والسرير يرسل صريراً. وأتخيل ما يجري. وأتشظى بين الاهتياج وبغض أبي. بين الدموع والسائل الحار الذي يبلل ساقي أنا ارتعد. ولا ترتعش أصابعي أبداً وأنا أبطل مفعول عبوة ناسفة.

حين ضيقوا الخناق علينا قال عبد الحميد لأم مصطفى المتشكية الباكية، كان الرائد ساعدي الأيمن في حركة العصيان العسكري. وعندما بدأوا ينكلون برموزنا وشبابنا. هب هو بدافع المبادىء السامية وأطلق الرصاص على أحد كبار ضباط أمن العهد البائد في وضح النهار بيد لم ترتعش وأرداه. واختفى في الزحام كالزيبق. فماذا تريدين مني أن أفعل. أهدده بالسجن إن لم يطلق سوزي ويعود إليك؟ مستحيل. أتدخل في شؤونه الخاصة وهو الذي كان يعرف كيف يضب لسانه ويرتفع عن إطلاقه في الناس حين كانت كل الألسن تنطلق مشككة في أقرب المقربين إليها. أيام الشك والانهيار والسجون والنفي.

ارتعش فنجان القهوة في يد أم مصطفى. شدت منديلها حول رأسها. حارت الدموع في عينيها. ما كنت أفهم ولا أفهم. كان مثل طفل، دمعته تطفر فوراً إذا ما مرض مصطفى، تمشي في جسده الرعشة وهو يعانقني بعد عودته من المنفى. ما الذي غيره أخي عبد الحميد. ماذا؟

ما كانت تحفظ الألقاب، ما كانت تحفظ حدها. وأنا التي تحملت أيام الشدائد وناهضتها في سبيله. وأنا التي. ما الذي غير ابن عمي؟

ذهبت سوزي بعيداً. قالت إنه وحش مقزز. هاجمتني كلبوة وكان جسدها معجزة باهرة. والتحمت بصدري. لا تعرفه أيام التشرد والمنافي والاعتقالات. كنا نسميه يدنا الضاربة وكنا نسميه النبي الصغير. يبالغ في التطهير. لا يقترب الخمرة. لا يدخن. لا يزني. كنت أقول له وما علاقة التدخين والخمرة بالوحدة العربية؟ فيقول الوحدة أخلاق قبل كل شيء؟ ويعول إذا سمع عن مقتل شاب من شبابنا في السجن. ينتحب كطفل ساذج ضاعت لعبته. وبفرح صبياني وحماسة المراهقين كان يصغي من المذياع إلى خطب أبو خالد الطويلة. ويرقص مع الناس في الشوارع طرباً. يقدس الريس. وأم كلثوم وهدافي النادي الأهلي. يسجل خطاب الريس حيث يتوارى في القبو عن عيون رجال المباحث. رقص كالمجنون وترك قبوه وقد ذهبت كلمات الريس الخالدة أيام السويس بعقله: حنحارب ح. نحارب. ح. نحارب.

وتأملت جسدها الفاخر، حويته بكلي. جسدها المحال الذي توسلته فانقلب احتمالاً ثم يقيناً في فراشي. أتأمله ويدي تجوس وهي تعتصرني. الجسد الذي لا يجاري يكشف لي عن معادن النشوة البدائية العارمة. يوقفني على أسرار هالات الأبدية. وأخوض في بحارها فتنفجر ينابيعي وتنطلق زوابع الرغبة فيَّ كالوعول.

تدخل مسامي وتمتزج بدمي. عاتبت الرائد حين علمت بزواجه منها وانصرافه عن ام مصطفى. قلت لماذا يا ابو مصطفى. قال ثملاً بالضحك الذاهل: جسدها. اه. الحلم نفسه يعجز دونه. حقل الغام. حقل الغام يا عناد. لكنه ما كان يقف على أسرار هذا الحقل بالذات. رفعت لي عن مواقعها وأدخلتني حضرة هذا الحقل الخطر وينهمر شعرها الذاهب في مدارهـذيان الرغبة، لم انتزع خطر الغامها. فجرتها. فازهر حقلها وانتفض وغاب في حضور الحواس المشتعلة. واستشاطت دماؤنا ثم فاضت وعنقها الشامخ يتلوى ويداها العاجيتان تعتصرانني وتحتسي خمرتي نهد على سحابة صدري يشمخ.. وآخر يشهق في وديان كفي. وتنثني إلى هضابي ترتقيها. وأروح في مروجها الهوجاء الجامحة. واستعر النهد الشرس، ورقص الكون، تهتك سر المحال. ومالت فنهبتها بدوياً يتخطف رعشة اللذة ويجود بها. نبض صباها برق الوجيب في قلبي، تفُر إلي من فتنتها وأفزع اليها. وأنا عازب العقل وهي تتنهد ثم تأز ثم تعوي. وتكاشفني حتى كأني فيها. نقول عنا ونسكت فينا وننحب لنا ونسكن بنا. وأوشكت. أجرح زهوها. باغتنا انتحار النشوة ما ان كونت كمالها وفاضت بحاري في مروجها.. فارتوت. فاذا انتبهت من رقدة الذهاب في اسراح اللجة الضارية فتحت عيني فاذا هي برقفروفتحت عينيها كأنما لا تخشى نفاد فيضي. لكني انتفضت متفرقاًعنها. اجتاحني عصف من الغثيان. تقلبت على الفراش تاركاً نشوتها في قبضة الوحشة ذاهلة. اعطيتها ظهري واشعلت سيجارة. دخنتها بصمت. فانكسرت، مطعونة في زهوها. مدت يدها نحوي فانتفضت نائياً ولم ألتفت. مزجت خوفها بالرجاء فدنت وداستني بقبلة ضاعت على عنقي. لكن صمتي السلبي دخل فيها كصيحة.

تراخت كفها على ظهري وانسحبت. أحدق إلى السقف وأنفث دخان سيجارتي بتقزز، غثيان يجتاحني. رقدنا ساعة في صمت وسكون لا نفوه بحرف واحد. ثم سألت بصوت كسير قلق وقد وقفت على غرضي أخيراً:

ـ كنت تستدرجني. لتنتقم من الرائد؟

اطرقت لا أنطق ولا ألتفت. اختنق صوتها فلم تنبس. أحداقها ثابتة. طعنتها في ذات نفسها. وكنت أرغب في أن تتركني وتمضي. لأتمتع بانتصاري وحيداً. قالت كالمتسائلة في لهجة تتكسر:

ـ الحرب خدعة؟ تريد أن أرتدي ثيابي وأختفي؟

لم انبس. لم التفت. دخنت.

بصمت انزلقت من الفراش. ارتدت ثيابها. التفتت الي في عينيها دموع تومض ولا تنسكب. وانفجرت تضحك بهستيرية وكأن طائفاً من الجنون قد مس عقلها. قالت كأنما تبصق:

ـ أنت لا تختلف عن الرائد في شيء. بدوي همجي. وأعظم أحمق في الكون.

واختفت. سمعت حفيف الدموع.

انتقمت منه بمضاجعة زوجته.

استنكرت مريم وأعلنت أن مفهومي للجنس هو التخلف عينه. وكنت أتوهم أنها ستفرح. لم تفرح أبداً. فتحت في وجهي عينين ذاهلتين مكذبتين.

وانبثق أمامي رجل انتصب قرناه. مسخ ذو سحنة شوهاء. ورحب ورحب وقال عندنا كل ما تشتهي وتتمناه النفس. نساء وغلمان وحانات يتعاطى الناس فيها الأفيون وشهوات جاهزة ورغبات مفصلة وحريم وبغايا وقوادين وسكارى. وكل ما هو جميل في الكون. أنهار تجري فيها دماء كل بريء مجرم. مشانق لكل طاهر هذه عواميد الكهرباء المظلمة. لوح لي برغبتك سيدي فأجيبها. شبيك لبيك عبدك بين يديك.

ارتبكت واختفى صوتي وقلت إنني ضللت الدرب وأني انشد مدينة فجور حيث مناجم بيضاء باهرة يطلع منها كل يوم فجر، وتبزغ كل فجر شمس في صيرورة متجددة لا تنتهي.

كركر الرجل المسخ ثم قبض على يدي بقوة خارقة وقال إنني أتحدث بلغة لا يفهمها وسألني إن كنت من شيكاغو. فقلت إني عربي. قال لكني لا أفهم لغتك. وجرني.

جثث أحياء يتنفسون الأفيون وترتفع قرونهم تتكدس على الأرصفة وأزقة وتطوف في المجاري. ورائحة قاتلة. وعفن. بغايا يتخطفنني وكنت حملاً وكن وطاويط وضواري وعقبان، وينهشنني. وصحت دون صوت ـ صوتي يتواطأ علي ـ:

ـ هذا وهم. وأنا التمس الحلم. هذا كابوس وأنا.

وكن ينهشنني في جسدي. وأتجزأ أشلاء. ويدفعني الرجال الأموات إلى يمين

وتدفعني جثث أخرى إلى شمال. وما عدت أرى إلا سيقاناً شوهاء ثم أقدام ثم أظافر أقدام.. ووحل. وانطلقت صيحة رجت الكون فاذا بهذه الكائنات العجيبة تنفض عني وتتفرق. رفعت رأسي الثقيل الراقص فاذا برجل عظيم الهامة رفيع العماد متقادم الميلاد وكان مربعاً وتحسبه لسعة صدره واستفاضة خاصرته مدوراً. رفعت عيني فطال جسمه وامتد شخصه. نزفت عيناي أشلاء كلمات: أبحث عن الحلم. فإذا كابوس!

وأفهمتني كفى أنني أتحدث أثناء نومي بالفصحى وأنني كنت أنادي الجاحظ حين استولى علي المخدر وأخذتني الهلوسة «سم الهاري» تسميه. ونوهت بأن افراطي في تعاطي المخدرات والقراءة والكتابة والسياسة. علة عجزي في الفراش، ومصدر كآبتي المزمنة. فقلبت شفتي السفلى وأكدت لها أن كآبتي ليست مزمنة بل حديثة. عصرية يعني؟ سألت.

وقر قراري على قتل النقيب وكفى. ثم الانتحار.

القصف على الفاكهاني وصبرا يخض الأرض بنايات ترتفع في الفضاء ثم تنثني كراقصة وتهوي. شرفة تسقط على رأس هارب. شرفة تسقط على مطبخ.

الحمراء كوكب آخر. كورنيش المنارة قارة نائية. على اسطح بنايات فردان وشرفاتها يقف نساء ورجال يظللون عيونهم بأيديهم ورؤوسهم إلى فوق. ويتفرجون.

وقال لي تيسير الذي بعث فجأة من بين أسطر أنت منذ اليوم أن قرص الـ (ل.س.دي) الذي تناولته يأخذني إلى عوالم لا تشبه العوالم التي مضى هو إليها وتشبهها. وأنه ما مات وأن أبو الموت لم يستشهد. مجرد دعابة. اعترضت مستنكراً. ووصفت هذه الدعابة بانها «ثقيلة». قلت له: بكيت حين سمعت النبأ. أية دعابة هذه؟ الحمدلله على كل حال. وقال تيسير قال الأديب:

ـ اخي. الأزمة أزمة ديمقراطية. اسرائيل والاستعمار قضية ثانوية. الأزمة هنا. في الداخل، الديموقراطية.

ووضع مخللة في فمه. التهمها بسرعة وشرب للتو جرعة أخرى من العرق:

ـ ما رأيك استاذ عربي؟

كنت مهتما بالبحث عن حبة فستق جيدة، وعبثاً وجدتها في الصحن كله.

ـ بماذا؟

ـ بحقيقة الأزمة.

كنت أفكر بأن الفستق المخزون طويلاً يعفن. وبحثت في رأسي عن جواب فما وجدت. كل الفستق كان معفناً.

وأنا سألته أنت منذ اليوم ماذا؟ قال أنت منذ اليوم ولم ينه عبارته. العبارة لا تنتهي وإلا تغدو مفيدة. وبعد المفيدة نقطة. تتوقف. ولا نريد أن تتوقف وأشار إلى يدي ففتحتها وحدقت إلى كفي فاذا بخطوط الكف انهار تجري من تحتها دماء ودماء تفيض.

لكنني أوصيت كفي أن تشتري لي أوراقاً أقرأها من بيروت. فطارت على الخطوط الجوية وحطت على صدر الصبية الطائشة التي تمشي فيها الشوارع وتركض الأسوار وتهرول الأرصفة وتميل البنايات ثم تنهض ثم تكبو ثم تفتح النوافذ عيونها الواسعة وترنو إلى البحر المطارد نحو جبل يرتقي فضاء يرتج ويعلو وينخفض جبل يلهث ضباباً. عادت لي كفي من مدينة الحياة والدفق والالتحام والقتل إلى مدينة الموت والتجزؤ والثبات بصحيفة صوت العدالة. قالت أنت قلت «شيئاً أقرأه».

● بيروت:

وحين وطئت قدمي بيروت مد الغزاوي ذراعيه وفردهما وقال وهو يحتضنني:

ـ أية لوثة عقلية أعادتك إلى بيروت. القتال والاقتتال و.

تنشقت الهواء. ملأت رئتي به. قلت:

ـ هنا القتال وهناك الموت.

تنبت الأحراش والأطلال وتقف جامدة بلا حياة. والحر شديد. والحركة منقطعة. لا الذبابة تدور والمروحة تدور. لا صوت ولا نأمة. أطالع الصحيفة وأحبس دخان سيجارة الحشيشة في صدري:

عندما بدأت الغارات الاسرائيلية ونزلت القنابل على البيوت لتدمرها على رؤوس من فيها كانت الأمهات اللواتي ذهبن لشراء الطعام والخبز. ومن بين هؤلاء

امرأة وقعت في الشارع من شدة الخوف وانجبت توأمين على الطريق، وإذ بالمطافيا تابل طائرات المجرمين تقتلها ويموت أحد التوأمين، ومن ثم التوأم الآخر وقال لهذا المشهد تأثير مؤلم.

● مسقط رأسي:

ولكن شلة أيام الدراسة اجتمعت مرة أخرى في «سيزار». وما كانوا يتألمون. تهالكت على الويسكي. قال عريف الصف سابقاً والمحامي حاضراً أن سفاح اتلانتا قتل ١٨ طفلاً ورجلاً، والغريب في الأمر أن المطاردات أدت إلى اعتقاله. ليس هذا الغريب في الأمر. الغريب في الأمر أن رجال الشرطة اكتشفوا أنه مصور صحفي. وأعلن أن أتلانتا تقع في الولايات المتحدة وأنه زارها سابقاً وضاجع ثلاث فتيات أمريكيات ـ واحدة منهن زنجية ـ دفعة واحدة. وتضاحك الجميع. وقام عفريت الصف سابقاً والمقاول حاضراً فراقص صاحبته الانجليزية التي اصطادها أيام دراسته هناك ودعاها منذ أسبوع لزيارة بلدنا العزيز على حسابه ـ بما في ذلك تذكرة السفر ـ وأنا ممنوع من السفر قلت. ولم يسمعني أحد وما كنت ارثي نفسي. كنت أذيع خبراً أذعته مليون مرة ولم يسمعه أحد لانشغال الجميع بخطبة صاحبة الصون والعفاف الآنسة الشديدة التهذيب والشاب الأديب اللامع ابن المقاول الأمين المعروف. ولكن كيف لنا أن نعرف على وجه اليقين أن الفتاة عفيفة وأن الشاب أديب ولامع؟ وشغل هذا التساؤل عقلي. وقلت على الصحف أن تراعي الموضوعية وتلتفت إلى هذه المسألة الدقيقة أكثر.

قصة مسلسلة: «أنا عشيقة أبي»

وأرسل السيد نون أليف إلى الصحيفة يقول: بدعة جديدة اخترعتها شركات المرطبات وهي تعبئة المرطبات بالتنك بدل الزجاج لأسباب أهمها اخفاء الأوساخ عن الأعين. . وعندما كنت مراقباً في إحدى شركات المرطبات كنت أرى بعيني التغاضي والاهمال.

صوت أبي مثقال يرتفع:

ـ الا يزال الباشا نائماً؟

يترامى إليه صوت أمه خافتاً:

- يا حسرتي عليه لم يغمض له جفن طول الليل.

طبعاً لأن حضرة الباشا شميم الهواء قطيف الورد يقرأ طوال الليل. وأين. في المرحاض. والكهرباء!! طبعاً طظ. هو لا يدفع فاتورة الكهرباء من جيبه.

تدافع الأم فتقول إنه مضطر للمطالعة في المرحاض. فمن المستحيل على اخواته الثلاث أن ينمن والضوء في الغرفة شاعل. ينبغي أن نبني غرفة ثالثة يستقل فيها مثقال.

يرتفع الصوت:

- طبعاً. لأنه يشغل وظيفة مساعد قاعد وهي تدر من الذهب ما يكفي لبناء طابقين.

أخفى مثقال رأسه تحت الغطاء. وشد الوسادة على رأسه. جاءه صوت أخته:

- مثقال. يا مثقال. مثقال. قوم. أريد أن أغير ثيابي. اخرج بره إلى أن انتهي من تغيير ثيابي. أعرف أنك مستيقظ. قم. مثقال.. يا مثقال.

الحرب الباردة تشتد حرارة. النقيب منعه من العمل إلى أن يستنكر ويعترف. وهو سوف يسافر إلى موسكو. وسوف ينشيء نقابة لعمال المصنع. وسوف. لكن المصنع مقفل.

اختلف دحام بن مضفي المسعداوي سائق سيارة الشحن التابعة للمصنع وصياح سويلم وهو من عشيرة الهلالي على أفضلية المرور من بوابة المصنع. هذا أوقف شاحنته وشبك ذراعيه على صدره مغيظاً. وذاك أوقف شاحنته مقابل شاحنة الأول وشبك ذراعيه على صدره مغيظاً. ولعن الله الهاجرة شاوية العقول. وتدخل العقلاء. ارجع أنت. لا ارجع أنت. وبقيا معاندين رأس الواحد منهما يابس كالجدار. ووجهاهما لا يضحكان حتى للرغيف الساخن.

وصهرت الهواجر الرمل، وهما معاندين شابكين اذرعتهما على صدريهما. يتبادلان نظرات شزراء يكاد أوارها أن يلهب وجهيهما. واصطلى الرجلان. لكنهما عنيدان. المسألة مسألة شرف وكبرياء. وحين أسكر لهب القيظ ابن الهلالي فتح باب شاحنته وترجل، ثم خطا خطوتين باتجاه الآخر الذي تطاول رأسه فضولاً، فسحب ابن الهلالي مسدسه المرخص وأطلق طلقة واحدة استقرت بين عيني ابن المسعداوي

فمال رأسه على النافذة ثم تدلى.

وقامت الدنيا ولم تقعد. فزعت عشيرة الهلالي إلى بنادقها تحسباً. وهبت عشيرة المسعداوي إلى بنادقها وخرجت تطلب الثأر. والنساء يولولن. وانتصرت بعض العشائر التي تربطها بالمسعداوي روابط نسب للمسعداوي، بينما انتصر بعضها الآخر لهلالي.

وحين عاد عواد الهلالي من موسكو طبيباً عاد طراد المسعداوي من القاهرة مهندساً. فنشر عواد مبادىء الأممية بين أبناء عشيرته والعشائر الموالية وجهد في اختراق عشيرة المسعداوي وكسب بعض رجالها إلى الحزب. بلا جدوى. ودعا طراد المسعداوي إلى القومية العربية فلبى رجال عشيرته، وحاول اختراق صفوف عشيرة الهلالي بلا جدوى. وهرعت العشائر الصغيرة التي تبغض عشيرة الهلالي إلى اعتناق مبادىء القومية العربية. كذلك فعلت العشائر الصغيرة التي تنازع عشيرة المسعداوي على أراضي الرعي وعلى شيخة المنطقة فآمنت بالأممية دربا لخلاص الشعوب والبروليتاريا.

وحين انقسم هؤلاء وأولئك تعصبت البطون للبطون والأفخاذ للأفخاذ والفروع للفروع.

وأنا وأخي على ابن عمي وأنا وابن عمي على الغريب.

ثم تدخلت الشرطة لحل النزاع. فجاء فوج منهم. وأشرفوا على بوابات المصنع. وفتشوا كل داخل وخارج من العمال. إلا أن الرصاص انطلق فجأة من كل حدب وصوب. داخل المصنع وتمترس البعض وراء مداخن المصنع. بينما تمترس آخرون خلف الشاحنات. وسيطرت مجموعة من عشيرة الهلالي على مطعم المصنع. ولم يدر أحد كيف انفجر كل شيء على هذا النحو المفاجيء. وعند ذاك تدخلت قوات من الجيش والمغاوير وطوقوا المصنع ثم أصدر المحافظ أمراً باغلاقه مؤقتاً إلى أجل غير مسمى حقناً للدماء. ومثقال مصر على إنشاء نقابة. ووالد مثقال يضرب كفاً بكف ويلعن المصنع وأبو المصنع. ومثقال. فلو استنكر مثقال لسمح له بالعمل في العاصمة. وربما موظفاً قد الدنيا في دائرة البريد. ولكن رأسه يابس. والحزوبات لم تأت لنا إلا بالخراب والفتن. وأخت مثقال تصيح لأن مثقال يتكلف النوم. وهي تعرف أنه يقظ. وتريد أن تخلع ثوبها وتلبس آخر. فماذا لو شاهدها مثقال وهي تتعرى؟ وقام مثقال لاعناً أبو العالم.

غير أني أتصبب عرقاً وأرفع رأسي وأستند بمرفقي على كتب كنت قد حملتها معي من بيروت حين عدت. وأعيد قراءتها للمرة الرابعة للتسلية والسلوى. فتخرج لي من بين سطورها وتنبت من وراء كلماتها وجوه وأبطال وعبارات وفقرات فتلبسني وأتقمصها. وأمسح شفتي بباطن كفي. والعرق ينهمر. والمروحة تدور والذبابة. وأدخن وأرمي عقب السيجارة بعيداً وأنطرح على جانبي مستنداً على كوعي المغروس في الفراش وأسترخي وأتعب من تعب الراحة والنقيب قال لمثقال أنت ممنوع من العمل ومثقال قال إن النقيب لم يستدعني لأنه يستضرطني فاكتأبت. لكن النقيب عاد فاستدعاني واستجوبني وسألني عن علاقتي بالتيار القومي. فزعمت أن علاقتي به وطيدة وأنني مؤمن ولن أبوح بكلمة أخرى. ولم يسألني النقيب عن علاقتي بكفى. لكنه سأل مثقال عن علاقتي بكفى. ولم أفهم الصلة وشملت الأمر بنظرة مستريبة. ثم لماذا ابتسم النقيب حين سأل مثقال عن علاقتي بكفى؟ ولماذا انحرفت زاوية فمي في سخرية. الأمر يدعو إلى الشك. ولكن مثقال قال إني حمار. سألني لماذا ادعيت أنني ما زلت قومياً بل وأوحيت انني عضو في تنظيم سري لن أبوح عنه بكلمة. وأفهمني أنه لا يفهم. وأنا ما كنت على يقين من أنني أفهم. لكني مقطوع من شجرة، وهذا لا يجوز. لا يجوز على الاطلاق. أبداً.

والد مثقال يرفع صوت التلفزيون الملون حتى يزعج مثقال الذي يطالع باهتمام في المرحاض. يرفع صوت التلفزيون ويغفو ويرسل شخيراً عالياً فيشوش مطالعة مثقال ويجعلها أمراً عسيراً. يغادر مثقال المرحاض. يقفل التلفزيون. يصرخ والده منتفضاً وهو يفتح عينيه النائمتين بصعوبة:

- أريد أن أشاهد الفيلم.

- لكنك نائم.

تجحظ عينا والد مثقال. لا لست نائماً. ثم ماذا تفعل في المرحاض منذ ساعة؟ الكهرباء لها ثمن. يضبط مثقال نفسه المغضبة ويكاتم شعوراً عنيفاً بالقهر ويغالبه. يعود أدراجه إلى المرحاض حاملاً الكتاب بعد أن يدير التلفزيون مرة أخرى. ينهض أبو مثقال مغتاظاً. انفاسه تتساقط كأنفاس ثور هائج. يقرع باب المرحاض.

- يا صاحب المكتبة الجالس على كرسي الرئاسة. أريد أن أبول.

يفتح مثقال الباب مدركاً أن والده يخاتل. ينشد أن يبول. لا يتوسل

ازعاجه.. اثارته. لكن مثقال شاب قوي شاب قوي الشكيمة ويؤمن بقول الجنيد الصبر هو تجرع المرارة من غير تعبيس.

ويخرج والد مثقال. فيدلف مثقال إلى المرحاض. يرفع والد مثقال صوت التلفزيون. أم مثقال تنهض من غفوتها. صوت التلفزيون مرتفع تقول. نامي وينفخ والد مثقال مغيظاً. فتنام. وينهض والد مثقال مرة أخرى إلى المرحاض ويقرع بابه المقفل. لماذا تقفل الباب أيها العلامة؟ أريد أن أعملها. ولكنك بولت منذ دقيقة. لا هذه المرة أريد أن أعملها ثقيلة. ويخرج مثقال نافخاً مغالباً غيظه. يتربع على فراشه يشعل الضوء ليطالع. ترفع أخته رأسها. تقول بنزق:

ـ اطفىء النور.. نريد أن ننام.

وماذا يفعل تلفزيون ملون ابن ستين.. في دار من غرفتين لا تكاد تجد فيهما كسرة خبز؟ يتساءل مثقال. إنه هدية من المحافظ وزعها على المواطنين الكرام الأعزاء لنشر الثقافة. وتعميمها. وأنشأت المغنية المصرية تغني:

الطشت قلي الطشت قلي يا حلوه يللي قومي استحمي

وقيل إن المحافظ اشترى هذه الأجهزة ووزعها على الشعب مجاناً من جيبه الخاص. حباً وإيماناً في. ورفت الدجاجة جناحيها ثم وثبت فاذا بها فوق التلفزيون. وتهيأت لتضع بيضها هناك.

وعاد مثقال إلى المرحاض فاذا بوالده نائماً في الداخل متكوماً على نفسه. لكزه مثقال برفق في كتفه. فاستفاق. قال يكابر:

ـ ما كنت نائماً. تريد أن تحتل كرسي الرئاسة وتطالع هيه؟

ولم يفهم مثقال لماذا يصر والده على اطلاق اسم كرسي الرئاسة على مرحاض عربي ليس فيه كرسي ولا بلوط.

وعند الظهر اجتمع مثقال بشباب ينتمون إلى عشائر مختلفة منها الهلالي والمسعداوي. وبحثوا التطورات الأخيرة. ودرسوا عدة خطط لاقامة النقابة.

وكنت حاضراً فشاركتهم الجديث. ولكن المصنع مغلق إلى اشعار آخر. سوف يفتح يوماً ما. ولكن العشائر ستقتتل في ما بينها للسيطرة على النقابة. نحن قائمة تيارات وطنية وأحزاب ثورية. لا عشائر. وقال مثقال:

ـ ثمة أمل عظيم يلوح في الأفق.

فدخنت. حدجني مثقال بنظرة ذات مغزى. فهمت أنهم سيدخلون في التفاصيل والخطوات والأسماء. فانسحبت من غير مطرود كما يقول إخواننا في مصر.

وحزمت أمري على قتل النقيب وكفى ونفسي الليلة هذه بالذات لا تلك.

الميمون

بعد الصلح العشائري فتح المصنع ابوابه فأضرب مائة عامل مطالبين بانشاء نقابة مما أثار ذهول البدو ـ الفلاحين ـ العمال الآخرين وصاحب المصنع والشرطة والمحافظ وشيوخ العشائر

« ثمة أصابع تلعب في الخفاء »

واستدعى النقيب مثقال أطرق النقيب ، تناول قرصين من الاسبرين واحتسى كوب ماء ثم تناول قرصاً من الفاليوم وابتلعه دون ماء قال بصوت متعب

ـ وأخرتها معك يا مثقال ألن تحط عقلك في رأسك ما قصة الاضراب هذه تريدون نقابة للعمال ؟ ألا يكفيكم مجلس العشائر ؟

لاذ مثقال بالصمت كان يشبك أصابعه ويحدق إلى الجدار . وقف النقيب وقال

ـ أتذكر يوم جئتني تتوسلني اعتقالك ؟ نحن لسنا أغبياء اتذكر بماذا اجبتك ؟

البقال والد خطيبتي يقول يا مثقال تريد أن تتزوج ابنتي وانت عاطل عن العمل ؟ كيف ستطعمها من أين ستأتون بالخبز كن واقعياً لو كنت اباً وكان خطيب ابنتك عاطلاً عن العمل احلفك بالله ورسوله احك ضميرك الن تسعى إلى فسخ الخطبة يعني لو كنت مكاني !؟

أقتل النقيب وكفى وأنتحر الليلة واحتسيت إنهما يتواطآن كفى تضحك مني أسمع أصواتاً صاخبة ترتفع وتخفت فجأة سفهاء الناس يطمعون فيك ياعناد، بت مضغة في الافواه، حتى من كان يحترمك بات يهزأ منك. ألسنة الناس منطلقة لا تستقر ولا حديث لها سوى عجزك مع كفى ومضاجعة النقيب لكفى برضاها

المطر يقرع زجاج النافذة بالحاح أغصان شجرة اللوز تنقر على الزجاج أيضاً والريح تصفر لكن عناد الشاهد لا يفتح النافذة ، يشيح بوجهه عن مريم يدفن وجهه بين يديه مريم لا تقول ولا تومىء لا تبرر . تذهب عيناها في الوجع تتزود نظراتها بعتاب مقرون ببراءة هجومية رفع عناد رأسه قال دون أن يلتفت

ـ كلمة واحدة فقط نعم أو لا هل ضغطوا عليك لتكتبي ما كتبت أم انك كتبت فعلاً تلك الورقة ؟

تتكوم في الصمت الدفاع يجرح زهوها وهو لا يفهم وهي لا تبكي الدموع تومض في عينيه وتتجمد في عينيها والمطر لحوحاً يقرع النافذة والريح تصفر مثل شلة من المراهقين الملاعين يبصبصون من وراء الزجاج على مشهد غرامي يثيرهم والمطر يلح وهو لا يفتح النافذة ومريم كومة زهو جريح صامت لا يفوه

وفجأة نبت وجه رجل جليل ظننت أنه طه حسين تبسم بسخرية وهز رأسه أسفاً وقال ألا تسمع إلى الكروان كيف يهزأ من الدرك الذي أسفلت اليه ؟ كفى التي يعرف العالم كله أنك عازم على الزواج منها تخونك مع النقيب وأنت تمعن في نهش النفس ورثاء الذات لقد أصبت في ايمانك بالثورة والحلم فأصبت في ايمانك بكل فضيلة

تأملته بعينين ذاويتين فتبينت أنه ربما يكون المنفلوطي أو أحمد سعيد أو كرامزوف الاب هتفت أسأله عن هويته فتبخر قبل ان يتبخر أطلق ضحكة اهتز لها الكون فخمنت أنه مارد قمقم علاء الدين أو الشاطر حسن وفي رطوبة الجدار لمحت جماجم تهزأ مني وتغمز بعيونها وبرز وجه كفى والنقيب وقال النقيب إن الفرس من الفارس وانه فارس لا ينازعه منازع وكفى جواد أصيل لكن العيب فيك فأنت خيال رديء وليس فيك من الفروسية شيء ووافقت الجماجم بهزة من الرؤوس رفعت يدي ببطء وجهد ، تناولت المسدس بصعوبة كاد يسقط من يدي الراعشة ولقمت بيت النار رصاصة بعد أن ثبت مشط الرصاص فيه ثلاث رصاصات تكفي عنتر والامين والمأمون والزير وابو جهل وعبد الناصر والسلال وعمر الشريف وجينا لولوبريجيدا يطلون من الجدار المقابل يحدقون إليّ بعيون مستدمعة . عجزت عن تحديد مصدر الدموع . أهو البكاء أم الضحك ؟ وفجأة انتفض أنطون وهتف صارخاً في وجهي مغضباً

ـ الحياة وقفة عز

ورأيت الرائد أيضاً ورأيت فحيحاً وخريراً ملوناً مثل قوس قزح وسمعت الألوان تعول. قال انطون بحزم:

ـ هذه رسالتك القدر اصطفاك وناداك.. فلب.

وجارنا شعلان قال انت تحرث البحر يا مثقال وابن عمي قال انني ابلط البحر بينما اكتفى ابي باتهام خطيبتي بأنها متخلفة عقلياً أو تعمل مع المباحث وإلا لماذا تصر على الزواج من شميم هواء قطيف ورد عاطل عن العمل بل يعمل مساعد قاعد

ومريم صامتة مطرقة لا تقول ولا تميل وقطرات المطر تقرع النافذة تلتمس الدخول لتحتمي تحت سقفي من المطر والريح تصفر مهتاجة وقد اشتعلت غرائزها وصفقت احتجاجاً تهيب بنا أن نتبادل القبل حتى يمسي المشهد مثيراً وأغصان تنقر تريد الدخول أيضاً لكن مريم صامتة مطرقة سقط رأسها على صدرها وسقط جسدها في الفجيعة لكن زهوها أصيب ولم ينكسر وأنا أسأل مشيحاً وهي تستقبل أسئلتي باذن معرضة والمطر يطيش عقله ويضرب الزجاج بالحاح وكنت في ذروة القيظ أرتدي بدلة ورباط عنق أنيق فاخر وكانت تنتظر مني بلوغ الحقيقة مباشرة كرؤى الانبياء دون استجواب يبسط جناحها على ظلال الذل وما كنت نبياً وما كنت أفهم من غير لغة ومفردات

والمطر يضرب الزجاج وأنا لا أفتح وهي لا تحكي والصمت يقول ويقول ولكني لا أفهم وعيناها تقول وتقول لكني لا أسمع حين أجهشت ودفنت رأسي بين يدي شاهراً انهياري ازاء اضطراب الحيرة الضارية نطقت ما حكت عن نفسها قالت بصوت لا يشبه الاصوات إن الشاعر الذي ضربته ليس بشاعر وان ناظم القصيدة هو الرائد نفسه ففهمت ورأيت الهول بأم عيني

وخبط المطر النافذة ففتحت الباب واندفعت قذيفة كلها نار وبارود

وقال والد خطيبتي يا مثقال يا ولدي لماذا لا تبحث عن عمل بدل التسكع قلت إن المباحث منعتني من العمل فهز رأسه كالحكيم وقال ياعمي استنكر.. أنا أقول لك اكتب استنكر كافة الاحزاب الهدامة وأنت لا تعتبر جماعتك من الهدامين وهكذا تخلص من الورطة وتبسم مزهواً بذكائه فبانت أسنانه الصفر ولكنه لا يدخن وقال زوج اختي الكبيرة حين أنبأته بأن التاريخ يقف معنا « عيش

يا غديش تا يطلع الحشيش ». وظن أن دمه خفيف فضحك لكنه كان متعهداً وأشارت علي اختي الكبيرة بضرورة وضعي للسلم جانباً ولما سألتها قالت ما دمت تحمل السلم بالعرض يا مثقال فلن تدخل أي باب وإذا حملته بالطول ماذا يحدث ؟ وأمي رغم دفاعها المستميت العلني عني كانت تقول إذا ما خلت بي اليد الواحدة لا تصفق يا مثقال وأنت وحدك لن تشيل الزير من البير . فوحد الله يا ابني وصلِّ على النبي وما كانت تحضني على اداء أركان الاسلام الخمسة ولكنها طريقة للحض على التريث والاستكانة

قال مناضل قال يعني أنت أصلب من القطب الوطني الكبير فلان ؟ اسألني ماذا فعل به الزمان الآن ؟ بات وكيل وزارة في حكومة العهد الذي كان يناهضه بشراسة يعني أنت ياباشا ياجيفارا تفهم أكثر من الاستاذ علان الذي كتب مجلداً ضد الحكومة في مطلع الخمسينات وكنا نصفق لكل خطبة يلقيها فنلحقه إلى الجنوب ونركض للاستماع اليه إلى أقصى الشمال اسألني أي منقلب انقلب الآن أنا أقول لك ياباشا بات من أكبر سماسرة البلد مليونير . يشتري الموظفين ويبيع الضمير . يقيم الحفلات الباذخة ويدعو علية القوم الذين كان يناضل ضدهم لاحتساء الشب م با نيو . نا في أفخم فندق في العاصمة وهل أنت أحسن من

أقاطع أبي بفتور يستفزه أقول كطفل حردان مبوز

ـ نعم نعم نعم أنا أصلب من القطب الوطني وأفهم من الاستاذ وأحسن من

تجحظ عيناه تتوسط يداه خاصرته من يمين وشمال . ينفخ مغيظاً يخور.

ـ جحش.. عقلك أيبس من مؤخرتي

وعلق عناد مرة وهو يتضاحك

ـ لكن مؤخرته متهدلة

وتريد ياباشا تشكيل نقابة وماذا عن الثأر ؟ وقتلة ابن عمك !

طرت بسيارتي إلى دار الرائد وطار صوابي في فضاء ضيق من أتون يغلي بالغضب وفقدت رشدي الذي ارتطم بالصدمة فتناثر واختفى الارض تحت

عجلاتي ترتج وأنا أميد بها أنتفض فتتزلزل. يولول احتقان الحقد في باطني يطلب الصعود ويداي ترتعشان وفي عيني توهج مسعور يندلع من مرآة السيارة وأعمى مشيت في الغضب

دلفت إلى الفيللا دون أن أرد تحية رجال حماية الرائد لم المح أم مصطفى ولم أسمعها حين نادتني قالت لي فيما بعد انها كانت تقف بالباب تتداعى ورجال الحماية يساندوها قالت رأيتك تندفع كقطار خرج عن خط سكته ـ ولم تنتبه في غمرة غضبك وهذيانك للعدد الكبير من السيارات التي تصطف امام فيللا الرائد وقالت لي سوزي انني اندفعت مهتاجاً محموماً فاذا بي اعثر على نفسي غارقاً في بحر من الأنسات والسيدات والسادة المتأنقين المضمخين بالعطور والبريق خليط من رجال السلطة وانسبائهم من رجال الاعمال والتجار الكبار والكادحين يقفون في الخارج رجال حماية وسواق وطباخين وخادمين قالت سوزي تطلق ضحكتها ذات الرنة الساحرة ان الوزراء كانوا يرقصون بصرامة ورزانة ولا يكادون يتحركون من اماكنهم وكأنهم في اجتماع رسمي مهيب

في مركز الشرطة قال لي مثقال بصوت متهدج مرير

ـ مباحث عقائدية ها ؟ والله وتعلمت كيف تعقد ربطة العنق وحدك يا عناد

واستنبت القهر الكظيم من عينيه دمعة وقال

ـ في مسقط رؤوسنا اعتقلنا.. ولكنا لم نر من الهوان ما رأيناه هنا. في قلب مدينة حلمك يا أيها الحالم العظيم.

وصرخت في وجه الضابط المسؤول. نبهته بأنني عضو في قيادة لجنة الاعلام والتثقيف. وحذرته من مغبة إبقائنا هنا. وأمرته بأن يتصل بالرائد ليتأكد. وأكدت له أن الرائد سيغضب غضباً شديداً وسيعاقب كل من تورط في حادث الضرب الذي تعرضنا له. دنا الضابط مني ببلادة. تفحصني بعينين كسولتين. تضاحك وقال مشيراً إلى ثيابنا «السبور»:

ـ أهذه ثياب مسؤولين ؟ لعلك تخمن نفسك المشير نفسه كم كأساً شربت ؟

طار صوابي وسرت في جسدي رعدة هزتني من قمة الرأس حتى القدمين صرخت

ـ احترم نفسك لا تحكم بالمظاهر ثم اننا نمثل طليعة العمال والفلاحين و .

تطاير الشرر فجأة من عينيه فبصق في وجهي وصفعني بقوة وزأر

ـ عمال ؟ يعني شيوعي. ابن

تداعيت على مقعد خشبي وبكيت قهراً وغيظاً أمام الضابط والشرطة ومثقال بكيت مثل امرأة خانها زوجها تحت سمعها وبصرها مثل امرأة جاء زوجها إلى فراشها بمومس وضاجعها امام بصرها الذاهل إمرأة كانت تحب زوجها وتؤمن به وتحترمه هكذا بكيت

ادعى الرائد انه زج بكل من كان له علاقة بهذا « الحادث المؤسف » بالسجن لكنه عاتبني بلهجة لا تخلو من نزق قائلاً

ـ ألم أقل لك ألف مرة أن تلبس بدلتك الأنيقة أينما ذهبت أنت قائد الآن مسؤول . وتتصرف كتلميذ مدرسة مثالي يعارض سلطة والده ألم أقل لك ألف مرة اصطحب رجال حمايتك أينما يمت ؟ تستأهل خرجك

كان مرافقي رجل طيب ووجهه بشوش مشرق ولا يؤذي فراشة يذهلني بلياقته وتهذيبه إلا أنني لمحته صدفة من الشرفة وهو يوقف صبية يلعبون الكرة طارت الكرة وتدحرجت وسعت نحو بوابة بيتي. ركض الصبية وراءها حين ضربهم بقدميه وكفيه ما كان له نفس الوجه الذي أعرفه وذهلت إذن فهو قادر على ايذاء فراشة ! تعجبت قال كالمعتذر بلهجة تنم عن تواضع وتهذيب ورقة استاذ . . خشيت أن يفسدوا عليك قيلولتك. وتبسم بسمة حبية خجولة تنم عن أدب جم. شق عناد طريقه يدفع المناكب ويدوس الأحذية وعيناه تتقلبان في الوجوه المتضاحكة اللماعة بحثاً عن الرائد. بغتة استوقفته يد قبضت على ذراعه انتفض كالملسوع والتفت: زميل في اللجنة الاعلامية:

ـ أهلاً عناد لماذا تأخرت اخلع معطفك ولا تهدر وقتك الويسكي هناك يدور به ذاك النادل (فرقع بأصابعه للنادل) والطعام يكاد ينفد حفلة رائعة

ثم لكزه في خاصرته وأومأ بذقنه نحو مؤخرة امرأة بارزة ناهضة وعلق

ـ قاعدة شعبية عريضة. أم خلفية ثقافية واسعة ؟

اتقدت عيناك بنظرة مجنونة تاهت بين الوجوه قالت سوزي إن تلك النظرة أثارت الفضول في نفسها رأيت فيها حيوية عصف بحر عات وتأجج الجمر هتف زميله وقد بوغت برؤية منامة عناد تتدلى مع ساقيه من تحت معطفه

ـ كما أنت طريف ياعناد تأتي إلى هذا الحفل الرسمي بمنامتك

جحظت عيناه وهو يخفض بصره هتف بين الاستنكار والاستظراف

ـ ماذا ؟ وحافي القدمين أيضاً ؟

أطلق ضحكة مجلجلة ضاعت في صخب الحاضرين وتبددت في فضاء الصالة الواسعة الغاصة بكبار المسؤولين ورجال الثورة والعسكر والديبلوماسيين وكبار رجال الأعمال

في غمرة ذهول عناد واضطرابه تأبط الرجل الأنيق ذراعه ولوح بكأسه الفارغة متضاحكاً وقال بلهجة من يداري سكراناً يعربد أو طفلاً يتعفرت أمام جده الرصين القاسي، بل في حضرة شيوخ ذوي هيبة ووقار:

تعال يارجل اشرب كأساً ثم انطلق متسللاً إلى دارك وإلا عثرت على نفسك في « بيت خالتك ».

التفت عناد بعينيه المتوقدتين ولمحت سوزي التي كانت تراقب من بعد ذلك البريق المسعور يتأجّج في عينيه عناد يرتعش انك مبلل لعلك مريض لا بد انك ثمل أو مصاب بالحمى كيف تأتي إلى حفل رسمي يحضره علية القوم بمنامة وقدمين حافيتين ؟

غمغم عناد مذهولاً

ـ ظننت أنه لم يبق شيء يسمى علية القوم في مجتمعنا اين الرائد ؟ ناوله كأس الويسكي فأتى عناد عليه بجرعة واحدة

في تلك اللحظة بالذات بزغ أمام عيني عناد وجه سوزي على نحو مباغت خرجت من بين الوجوه الطاووسية الرصينة فتخطت رقاب الناس حتى وقفت عليه راعه جمالها الرغبة في عريها تخفق في ناظريها ووجهها تَرَفُ الصبا ونبضه. عينان واسعتان فيهما البحر ينطلق على سجيته عارماً ، لبوة ، عاصفة ، استيحاشاً تنأى عن اليابسة تزدري السواقي ظلت عيناها مشدودتين إلى عينيه تنظر إليه ولا تطرق

انها البذخ في صفائه تبسم لها الرجل الأنيق ذو البدلة السوداء والصلعة اللماعة وقال متضاحكاً وهو يومىء إلى قدمي عناد الذي وقف مشدوهاً كأنما لطمته ريح مباغتة بسطت سوزي وجهها لعناد برقت عيناها بوحشية فتانة وقالت ترسل ضحكة سرى فيها رنين راقص

أهكذا يعرب الشعراء المتمردون عن رفضهم واحتجاجهم . . بأن يحضروا حفلاً يضم نجوم المجتمع بمنامة تحت معطف وقدمين حافيتين

وكان شعرك مشعثاً وعيناك عصف الجنون

اغتصب الرجل الأنيق ضحكة عصبية وقال:

ـ يحق للشعراء ما لا يحق لغيرهم انه يحتج ضد العالم بقدمين حافيتين الم يضرب خروتشوف طاولة الامم المتحدة بحذائه ؟

وبعينين يومض فيهما الهول فيظهر ويستتر التفت عناد إلى الرجل الأنيق وتذكر فجأة أن هذا الوجه البراق كان براقاً قبل الوحدة أيضاً وانه كان سفيراً للبلاد قبل الوحدة ثم طلب اللجوء السياسي في عاصمة أوروبية بعد الوحدة وهاهو يعود إلى السلك الديبلوماسي سفيراً مرة أخرى ما الذي يجري هنا ؟؟ ثمة خلل كبير . ثمة خطر يتململ

عيناك منذرتان

أشارت سوزي إلى النادل ، فأقبل حاملاً صينية ذهبية مزروعة بكؤوس من الويسكي إلى الشمبانيا مروراً بـ « بلدي ميري » .

قال سفير كل العهود بقلق

ـ اعتقد أن الاجدر بعناد أن يمضي إلى بيته ويعود بملابس لائقة الحاضرون لا يعذرون الشعراء

الدموع جالت في عينيك الزائغتين ، كان الرائد غارقاً في خضم الرؤوس وأنا أنشج في الاعماق كالنساء كامرأة خانها زوجها القديس أمام عينيها

قالت سوزي بصوت قاطع واثق وهي ترتشف من كأسها باناقة

ـ لا . عناد شاعر أصيل بل هو الشاعر المتمرد الوحيد في صفوف السلطة وكعادتها دائماً انتهزت سوزي هذه المناسبة لاستعراض ثقافتها السطحية ، فاضافت

كنت أخور كثور هائج التفت إلي المحتفلون بعيون أطلت منها نظرات عجب وفضول وانكار

قذفت بكأسك على الأرض ، واندفعت ترتقي الدرج إلى الطابق الثاني كنت أبحث عن خلوة اطلق فيها سراح غضب عيني لتذهب في الوحشة

صحت

ـ ماخور. الجنة التي حلمنا بها

ركض الرائد ورائي جعلت تفتح أبواب غرف الطابق العلوي ملهوجاً مندفعاً متلاطماً وظـن البعض ان السكر ذهب بعقلك وادركت انك ثمل بالقهر المر

كنت أبحث في الغرف عن أولئك الذين يمارسون الجنس في هذا الماخور غير انني لم اظفر بما كنت أتوهم وجوده

في مسقط رأسي قيظ وعرق وملل وهو في الكتاب قال ان الملل هو الاحتضار في صورة النعاس ، والموت في شكل النوم

وكنت ميتاً لا ناعساً ولا نائماً غيبوبة الصحو تعانق نشوة اليقظة ويندمجان وقال من يبدل مللي بالوجد وضجري بالحماسة وسألت الرائد الذي أطل من الجدار الرطب ان كانت رعشة الحماسة لا تزال تعتريه كلما سمع فايدة كامل. قلت انني ما عدت ارتعش وانتحبت

وأفهمتني كفى أنني كنت أرتعش نشوة معها في بيروت سألت أين ذهبت الرعشة في مسقط رأسك ؟ وما كان لدي أجوبة أضرب في أدغال الأسئلة فتسألني

وسوزي ردت توسل الرائد . قالت لن أتودد لغانية حتى لو كانت عشيقة المشير . نفخ الرائد مستيئساً ساخطاً

وساورني رجاء فتناهضت فاذا بالرجل مهيباً جليلاً ترتفع قامته في السماء ويمتد جسمه في الفضاء سألته ان كان الجنيد فلم ينبس ولم يومىء تملاني بعينين واسعتين لاحت لي فيهما وحدة اضداد تتنازع . شرحت له أني خرجت في طلب مدينة الحلم الفضلى ، وحكيت له عن الخطوب والمشقة التي ناهضتها والبحار السبعة التي عبرتها لكن ضلت قدماي فأتيت قرية أخرى وهنا تحدث الرجل المهيب فقال

بصوت كله خشوع وزهد

ـ بل أتيت إلى المدينة التي حلمت

تضاحكت باضطراب تلفت يمنة ويسرة أتفحص القرية ثم رفعت رأسي نحوه فاذا بي اكتشف أنه يحمل وجه الرائد استولت علي الدهشة ، وأخذني الرعب تضاحك وقال

ـ وجهك تصوغه الدهشة هذه المدينة

اعترضت منكراً

ـ لكنها قرية

ـ قرية كبيرة

ـ انها مدينة الوهم وأنا أتوسل مدينة الحلم

هز الرجل رأسه همست بأن اسأله ان كان هو الرائد أم شبيهه فتحت فمي فاذا به بئر ناضب لا كلمات فيه ولا قطرة حرف أشار الرجل المهيب إليّ بيده أن اتبعني فتبعته قلت له أجهد في اقناعه بأن هذه المدينة ليست ما قصدت

ـ لكن مدينتي التي أقصد لا ليل فيها إنها فجر متواصل صيرورة فجر اسمها فجور .

هز رأسه في أسى ولم يلتفت ومشى فمشيت وراءه وأخذنا نرتقي جبلاً صعداً نرتقي لكن المدينة هذه مظلمة وأنا وصعداً نرتقي والهث ونفسي قصير ولكن ياحاج يا شيخ ياهو يارائد ولم يزل يمشي واتبعه ولا صوت سوى خطوات ووقع خطوات تقع ثم وقفنا على قمة الجبل الناهض على كتف المدينة فاذا خيمة يشع منها ضياء باهر أومأ الشيخ العملاق بوجهه أن ادخل فدخلت لا وقفت بالباب مبهوراً فاذا بي ازاء امرأة وجهها وجه هالة البدر وصدرها صدر النهار كانت جاثية تتدثر بثوب ابيض مديد تلفت محتاراً فاذاً بالشيخ قد مضى لوجهه واختفى واذا بالمرأة تومىء لي وتستدنيني وانسدل ضياء وجهها على وجهي كأنه شعرها قالت بصوت ليس كالصوت قالت بصوت صلاة داخلية

ـ أنا زاهدة انبأني الغيب أنك ستقصد يوماً مدينة فجور ولكنك ستدرك مدينة لم تقصدها كذلك

وافقت مبتهجاً وقلت حزيناً أن قصدي ما كان هكذا انني كنت أقصد شيئاً آخر حين بدأت . ولكن قالت ما بقي من الحلم إلاي وهذا الشيخ وأما المدينة فهي الحلم ناقصاً فمشوهاً فمدمراً

وذهلت. قلت إن هذه المدينة هناك.. ليست الحلم إنها الوهم.

افهمتني أنه لم يبق من طهارة الحلم الاها

ـ انا طهارة ما تبقى من الحلم المدمر

نبتت على شفتي غابات من الأسئلة وكيف ولماذا ومحال ولماذا وكيف ولن ! فقلبت شفتها السفلى قفراً يباباً لا جواب فيه يروي ولا قطرة تفسير ولا نبتة تعليل

قالت

ـ لك أن تبقى في هذا المقام إن أحببت مقام الزهد وتوسل بعث الحلم من جديد ثم سجدت وراحت تغمغم لا أدري إلى من تخصص نداءها ثم ادركت انها تخاطب الحلم قالت له كن لنا وان لم نكن لانفسنا امزج خوفنا منك برجائنا فيك بشرنا عند توجهنا نحوك بالوصول اليك

تحيرت كلمات على شفتي وقالت

ـ ولكن كيف الوصول إلى الري ونحن في بر قفر ، وعطش قديم ورحل ضعيف وهاجرة محرقة وعمق بعيد ؟

وقلت في نفسي اين سمعت هذه الكلمات منذ ألف وألف ؟

قالت « نأخذ عنان الدنيا نحو اللهج به والاشتمال عليه وبه نصل اليه فلا نشهد الغيب إلا من وراء ستر الضنى ».

ووقع هذا الحديث في نفسي ، وخامرني من حبها ما غلب على عقلي فهي امرأة اعطيت من الجمال والسمو والطهارة عجباً وسط طوفان الدنس والتلوث هذا وادركت انني امام امرأة لا تراها عين حالم إلا وتصبو اليها ولما جن علينا الليل نادت الشيخ فاذا به ينهض بين يديها بوجه الرائد فأشارت عليه أن يأتيني بثوب أبيض وقالت سنعيش زاهدين هنا في مدار البراءة والنقاء والصفاء منزهين عن كل فساد مرتفعين عن الانحطاط في الحضيض فوافقت من فوري

إذن انتشر خبر خيانة كفى وفشا نبأ عجزي في المدينة والليلة ليلة الثأر

رد علي الرائد نقدي وتهجمي قال لجأت الينا هارباً مستجيراً فكنا لك ملجأ وملاذاً جئتنا جائعاً فأطعمناك عارياً فكسوناك ربطة عنقك هذه (وشدها بيده) من أموال دولتنا

ذهلت ضربت رأسي في الجدار فشج رش الدم سترة الرائد ، وسالت كلماتي نزفاً

ـ أأنا لاجيء في دولة العرب القومية ؟ سأكتب شاكياً الى الريس

قال الرائد يتبسم
ـ أنا شخصياً أشرف على بريده أراقب الرسائل
فغرت فاهي
ـ حتى رسائل الريس ؟
هز رأسه بالايجاب قلت مستيئساً محاصراً
ـ سأشكو للمشير . سأذهب من فوري اليه
أطلق الرائد ضحكة مجلجلة
ـ أتشكو العصابة لزعيم العصابة ؟

وكانت جدتي تسائل نفسها حين تكذب عجباً تراه بعينها أو تسمعه باذنيها

ـ حلم أو علم ؟
فتساءلت ان كنت في الحلم أم في العلم

وسألتها كيف تدثرت بهذا الثوب فقالت كنت غافلاً فدثرتك قلت في نفسي ينبغي أن اكتب رسالة إلى أمي أبشرها بأني بعد طول ضياع عثرت أخيراً على ما قصدت وأنني أحبها وأنها الطهارة في صفائها الخالص وانني سأتزوج منها روحياً وبوغت وأنا أتخيل ابتسامة امي العريضة وهي تطالع الرسالة بذكرى وفاتها

وأعلن الرائد بصراحة ووضوح أنني لست مناضلاً حقيقياً لو كنت مناضلاً حقيقاً لما بقيت لحظة واحدة في هذه الساحة ، ولعدت إلى بلدي مهما كان الثمن باهظاً لاناضل بمعية الشباب لكني فضلت اللجوء وأتذمر أيضاً فوق كل هذا ؟؟ شحاذ ومشارط ؟؟ أنا شحاذ ؟ دولة الوحدة وطن كل العرب لا فرق بين أردني ومصري إلا بالموقف من الوحدة بهذا الشعار استقبلني الرائد حين فزعت إلى دولة الوحدة مستجيراً

استقل عناد الشاهد سيارته المطر يتكسر على الزجاج الخارجي لسيارته وهو ينكسر من داخل

فجأة أوقف السيارة ضرب رأسه على المقود ودهمته نوبة بكاء هستيري كان يصرخ في غمرة المطر المتكسر والليل المتساقط والأضواء المشظاة

ـ لماذا ؟؟ لماذا ؟؟ لماذا ؟

أحدثها عن لوي أرمسترونغ فتحدثني عن رياض السنباطي أقول لها هل تعرفين الانكليزية ، تقول تعرفت إلى مغنية انجليزية مرة في حفل أقول لها ثور تقول احلبوه لا هذا كثير كثير .

نقر الرائد على طرف السرير بعصبية مغالباً انفجار حنقه لكنه غلب على أمره فصرخ

ـ كل ما أتوسله منك هو التودد إليها لا منحها شهادة دكتوراه في الثقافة انها عشيقة المشير . المشـ. شـ. ي . ي..ر.. ر..

الغزاوي من وراء متراس يرسل قذيفة وينتظر قذيفة

عناد الشاهد يقتعد كنبة في الصالة يتضرج عرقاً يحدق إلى الساعة المعطبة يكش الذباب ويتناول المخدرات ولا ينتظر

الغزاوي يفكر ترى ماذا يفعل عناد الشاهد في هذه اللحظة في مسقط رأسه ؟. لا شك في انه ينعم بالسلام والاستقرار .

عناد الشاهد يفكر ترى ماذا تفعل مريم في بيروت هذه اللحظة ؟، لا بد أنها تركض والغزاوي من متراس إلى متراس من جبهة إلى أخرى من مسرحية دريد لحام إلى مسرحية زياد الرحباني إلى مسرحية عادل امام يملؤها احساس بانجاز الذات ما كان خافياً فيها من غموض يتبين ويتحول إلى اشكال مبلورة من يبدل مللي بالوجد وضجري بالحماسة ؟

مريم تجوب شاطىء صيدا في سيارة عسكرية مع مجموعة من رفاقها الليل يوحد بينها والبحر الغزاوي الى جوارها يقول

ـ إذا تزوجت وانجبت عليك البقاء في الدار حتى يبلغ عادل الرابعة من عمره

يهب شعرها في الريح ويضرب كالحردان تقول بلهجة منكرة

ـ لا يا شيخ! أنا ابقى في البيت كالمدجنات ثم لماذا تفترض من الآن أنني سأرزق بصبي لماذا لم تقل إذا أنجبت عادلة انت متحيز للذكور متخلف تدعي الثورية ادعاء

ويملأ الضحك فم الغزاوي ومض عينيه منارة ومض عينيها قنديل صياد يتوقعون قوارب العدو . وطائراته . . ومدفعيته ألف حرب وحرب مريم تلهث وتلعن الحرب في سرها وتحارب بين الحرب والحرب حرب اهلية وبين الحرب الاهلية والحرب الاهلية زنزانة وبين الزنزانة والزنزانة مخيم وخيمة وبين المخيم والخيمة مجزرة تتوقع حرباً اخرى

مثقال في المرحاض يطالع باهتمام بالغ يسطر خطوطاً تحت العبارات الهامة ثم يقرع والده باب المرحاض فلا يفتح يتوقع انشاء النقابة قريباً

عناد الشاهد يحتسي الكونياك ببلادة ، يكش ذبابة ، يجفف عرقه ، يجوب الماضي ، لا يتوقع شيئاً ربما يتوقع مجيء مثقال وربما كفى وكفى

مثقال مستلق على ظهره في الحرش ينتظر موعد الاجتماع . يصعد نظره في سماء صافية مترامية الاطراف يجوب المستقبل يطير إلى موسكو يدور في شوارعها ينتظر قبوله في جامعة لومومبا

كفى لا تتوقع ولا تنتظر ولا تَجُبْ لا تهتم

في مساء يوم محدد يتطلع الغزاوي إلى ساعة يده ويرنو إلى سماء صور ويقول ستطير مريم بعد ساعة من بيروت إلى براغ

في مساء يوم محدد تتطلع مريم إلى ساعتها وتعد حقائبها فتنبثق طائرات الفانتوم « تسافر » مريم من بيروت براً تيمم نحو الجنوب وفي الجنوب الغزاوي يراقب السماء ويحرس البحر

سوزي تتجول في شارع ٤٢ في نيويورك مع صديق امريكي فوضوي

الرائد في مصح الامراض العقلية يرفض عرضاً مغرياً من قبل دولة غنية للعمل في جهاز مباحثها خبيراً براتب خيالي عيناه زائغتان يدور محجريهما بلا توقف

في ليل زنجي توغل الشاهد في مغامرة المعصية تسلل عبر الحدود. طعن في الارض يمم صوب بيروته

وعشقتها وهمت بها دهراً وأنا لا أكاشفها دهر وألف وأنا أتأمل وجهها وأتساءل كيف صاغه الخالق من الطهارة في صفائها الخالص وكنت بين الحين والحين أرنو إلى مدينة فجور فينخلع قلبي من جذوره وتتكسر اغصاني وتتبعثر أوراقي حين يقع بصري على المواخير والمجاري والمشوهين والبغايا يبنون حجراً ويهدمون جداراً يستنبتون زهرة ويقتلعون غابة

فألوذ بالمرأة المنزهة مضرجاً بالوجد وقلت والله لأبوحن لها بوجدي وكان الشيخ المهيب غائباً فوقفت بين يديها واعترفت فاذا بها تغرق في ضحك متصل لا ينقطع واذا بالشيخ ينبثق من لا مكان ولعله كان واقفاً هناك منذ ألف وألف ولكني لم الحظه اومأت للشيخ عاجزة عن الكلام فضحكها لا يزال يتصل بادر الشيخ فخلع عنها ثوبها فاذا بنهديها متهدلان يكادان يماسان حجرها وإذا بمضيق أوسع من الدردنيل رفعت عينين متداعيتين متسائلتين بدا الشيخ يتقلص وأنا اتقلص فاذا نحن كخيال هيكل عظمي واحد. وهنا امسكت المرأة عن الضحك واومأت بيدها إلى مدينة فجور الشوهاء وبغاياها وقواديها ذوي القرون وقالت ترسل ضحكاً داعراً فاجراً متواصلاً

ـ اترى إلى هذه القرية الكبيرة انا مليكتها اترى إلى هؤلاء البغايا أنا قوادتهن الكبرى أنا « البطرونة » وهذا الشيخ هو مرافقي الخاص

صحت مفجوعاً: غير معقول قولي انك تكذبين قولي ان ما اراه واسمعه جزء من كابوس لا علاقة له بعالم الصحو. قولي

لكنها لم تقل ردتني الصدمة العنيفة إلى يقظتي حتى انت يا وما قلت بروتس

وكان البحر الميت يحاول أن يمد شواطئه بين المحيط والخليج لكن الغزاوي وراء متراسه ومريم قالت لن أنجب وأتوارى في الدار. ومثقال أجل سفره إلى لومومبا حتى إنشاء النقابة وأنا اطير إلى بيروت وفي أغوار البحر الميت حوت وعروس البحر وأنفاس وأصوات تنمو وتنمو تنشر القلق المعدي في الرمال السحيقة في الحجارة لكن السطح ميت السطح السطح فقط وأنا لست غريقاً.

وأنا الذي أمنت بك وتركت قلبي عصفوراً في راحتك ورأيت انك الأمل الوحيد وبصيص النور الأوحد في بحار الظلمات والبغايا والمسوخ والتلوث لماذا ؟ فاذا بك قوادة القوادين و « بطرونة » المومسات الكبرى

وكانت الخيبة توأمي والاحباط ظلي والفجيعة أنا وارسلت البطرونة ضحكة فاجرة مستهزئة وغمغمت

ـ دمك ثقيل لا تحتمل الدعابة ألا تعترف بأني قمت بدور الزاهدة المخلصة ببراعة !

ثم قامت فانقضت علي كالكآبة واغتصبتني فضت بكارتي وكانت الكآبة بئراً يزنرني وأنا غريق والعيون لا ترى البئر وترى الكآبة

من اعترافات القائد الرائد

انه شيء لا يطاق ابداً لا يطاق لقد مست حمى الاشتراكية كل الخنازير والانتهازيين البورجوازيين وراحوا يفخرون بياض النهار وسواد الليل بأن جد جدهم الكبير أو ابن عمة خالة جدتهم أو ابن ضرة أم والد والدهم كان فلاحاً

بل بلغ الأمر ببعضهم مبلغ الادعاء بأن والد جدته أو جد جده كان عاملاً عاملاً ؟ أين ؟ في مصانع الحديد والصلب في الربع الخالي أم مصانع فيات في الصحراء الكبرى أم في مصانع الطائرات الحربية في قرية أم القرى ؟ بهدلة ، بهدلة ، بهدلة لعن الله الزمن الذي جعل الناس يفتشون وينبشون عن فلاح أو عامل في شجرة عائلتهم حتى يدعوا بفخر ومباهاة أنهم من أصول كادحة فاذا عادوا من بحثهم هذا بخفي حنين اخترعوا أباً أو والد والد والدهم وأقاموه من قبره وتوجوه عاملاً أو فلاحاً قذراً

وأنا الذي أنبش طوال عمري عن نسيب أو قريب بعيد يملك قرشين علي اقترض منه أو أفخر به في أسوأ الاحوال

حتى عناد الشاهد يدعي أن جده كان فلاحاً وأن والده أمسى ميسور الحال لانه عصامي يعتذر عن يسر حال والده لعن الله هذا الزمن. قلت له خذني إلى جدك هذا كي أرى بأم عيني أنه فلاح. الانتماء إلى الفلاحين بات شهادة حسن سلوك.. أنا احدثكم عن الفلاحين منحناهم قروضاً للزراعة فزوجوا بالمبالغ أولادهم ودفعوها مهراً والأنكى من ذلك كله أن ماركس نفسه رمى الفلاحين باللاثورية حسب رواية وزير الثقافة والاعلام. أول من أمس بلغ السيل الزبى معي فسعيت إلى زنزانة الاحمر ابن الاحمر محجوب عبد الساتر قلت له يا ابن الكذا والكذا ألم يقل شيخكم ماركس

اليهودي ابن الكذا والكذا أن الفلاحين رجعيون ؟ ـ قلتها متباهياً من معلوماتي عارضاً عليه ثقافتي . . لابد أنه فوجيء انهم يتهموننا بالامية ـ لكن ابن السنين كذا حول وجهه عني وقال بلهجة تنم عن استهانة
ـ لينين الذي قال أن

صحت في وجهه مغيظاً
ـ حاصله حاصله كلكلم تشبهون بعضكم مثل الصينين والزنوج لينين ماركس لا فرق ألم يقل احد شيوخكم أن الفلاحين رجعيون ؟

ولم انتظر رده خوفاً من اكتشاف غلطة جديدة في حديثي ، وهذا لا يليق بالمقام خاصة وأن السجانين يقفون خلفي ولعنت وزير الثقافة والاعلام في سري

المدنيون والمثقفون بالتحديد لا بيضات لهم اسألوني أنا انهم مترددون ومعجبون في اعماقهم بأمثالي لكن اعجابهم هذا يدفعهم إلى مهاجمتنا ونقدنا لكن كما قلت سابقاً إذا كان الضابط متخصصاً بالتعامل مع الالغام والمتفجرات ثم تخصص بالتعامل مع النماريد والحمر والرجعيين واعداء الوحدة من زاوية أمنية فإنه يتحول إلى كائن يكاد يماس حدود الكمال

انني ازدري وزير الثقافة والاعلام إذ انه يجلس على كرسيه الذي يراه عرشاً وأراه مرحاضاً افرنجياً بفضل مدافعنا لا بفضل علمه الغزير أو شهادته الجامعية ان هذا الاحمق خدعني وقال ان ماركس هو الذي تحدث عن الفلاحين سود وجهي أمام السجناء والحرس خرجت من مكتبي وتوجه من فوري إلى مكتبه فقال لي سكرتيره ذو الوجه الذي ينطق بالغباء انه في الاذاعة رمقت السكرتير بنظرة شزراء وشتمته

ـ بيروقراطي قذر ياقات بيض مثل قيء الطفل وشهادات لا تصلح إلا ورق مراحيض. حين بلغت الاذاعة كنت انفخ كثور وهناك صرخت في وجه الوزير

ـ كيف تسمح لنفسك أن تذيع اغاني عبد الحليم وفريد سواد الليل وبياض النهار . نحن في زمن الوحدة يا أستاذ في زمن الفرح ، لا البكاء والنواح والتشكي ألا تعجبك فايدة كامل ، وماذا عن المغنية الوطنية التي أرسلتها لمقابلتك منذ اسبوع . .

فغر الوزير فاه فبدا كفرج مومس ترتوي امتقع وجهه وتطلع إلى وجوه الموظفين الذين يحيطون به لكنه لم ينطق كان على وشك ان يرمي المغنية الوطنية

بالدعارة لكنه لم يتجرأ فهي صديقتي استفزني جبنه فخرجت عن طوري وصحت في وجهه

ـ وماذا عن قصيدة عناد الشاهد كيف تتجرأ وتنبئه بأنها غير صالحة للنشر ورحت أصفعه بقوارص الكلام فاذا به ينتفض فجأة ويقول بصوت متهدج وقد سارع الانهدام إلى وجهه وجسده

ـ الذي اعترض على القصيدة موظف في قسم الرقابة مستنبتاً حجته من المنطق الذي تحدثت فيه عن عبد الحليم وفريد انها قصيدة حزينة مريرة

رمقته بنظرة شزراء ، وقد غمرني شعور عارم مبهم بالقوة والمنعة والاعتداد قبل أن أغادر مبنى الاذاعة قلت له محذراً

ـ سوف أبلغ النقيب قائد القوة التي تحمي الاذاعة بأن يهب ويصفع كل من هو مسؤول عن أغاني فريد وعبد الحليم العاطفية سيسمح طبعاً بالاغاني الوطنية

الناس ألغام عناد الشاهد لغم بل وسوزي لغم ايضاً وأنا الرجل الرابع بعد الريس والمشير وعبد الحميد أتعامل معهم بخبث ، أداور وألفّ ثم أدور وأنطلق كالسهم الخاطف نحو مرادي علي أن أروض عناد واسيطر على سوزي . سوزي تزدريني تقول عيناها انني لست مثقفاً ، لكنها تتعشق رجولتي لست مثقفاً ؟ طز في الثقافة ماذا تسمي اجتيازي لأربعة اجيال في عمر واحد ؟ حكيت لها حكاية

في صغري كنت عضواً في كشافة المدرسة ذات يوم دعتنا اللجنة المركزية للكشاف العربي إلى زيارة العاصمة فهبطنا إلى العاصمة وعلى رأسنا معلم من القرية صعقتنا العاصمة شاهدنا فيها الاعاجيب السبعة سيارات وباصات وشوارع اسفلت ودور من الحجر ونساء غير محجبات يكشفن عن صدورهن النافرة كالبيارق والكهرباء آه من الكهرباء وصلنا العاصمة في المساء وقد هدنا التعب اقترحت علينا اللجنة التي استقبلتنا أن نذهب من فورنا إلى احدى المدارس المقفرة لنرتاح ثم ننام فيها أما استاذنا فقد اصطحبنا هو واللجنة إلى المدرسة ثم ودعنا بحجة أنه سيقضي الليلة عند ابن عمه الساكن في المدينة وحين اوينا إلى بطانياتنا نلتمس النوم ، حال المصباح الكهربائي اللعين الباهر دوننا والنوم جعلنا ننفخ عليه لنطفئه بلا جدوى فنهض أطولنا ووقف على مقعد ثم دس المصباح في حذائه فشح الضوء صفقنا له ونمنا في اليوم التالي عثرنا على الحذاء محروقاً. أول مرة في حياتي أرى الكهرباء وها أنا اليوم خبير في شؤون سلاح الهندسة ، خبير في حقول الالغام

المعقدة خبير في الات التعذيب الكهربائية على مختلف أنواعها الدليقة والبسيطة وهكذا قطعت الشوط الفاصل بين عصر ما قبل الكهرباء وعصر الكهرباء المعقدة في عشرين سنة فقط في جيل واحد ويقولون اننا لم ننجز النهضة

النهار في بيروت عجول ونحن نلهث ، النهار ينهار ولم نمر بالبحر بعد تقلنا الشوارع إلى قاعة في الجامعة الامريكية حيث نسمع « عزة » تنشد مصر ياما يابهية الشارع ينتظرنا عند بوابة الجامعة يلتقط أنفاسه نصفق نغني نغادر فتنطلق صهوة الاسفلت وتهرع الينا قصائد الملتقى تنحني الافكار وترتفع الصور

وجه مريم مضرج بشعر ينهمر ولا ينكسر تمضي بنا الشوارع وبنا تعود اتخذنا مجلسيناً في مقهى مودكا بانتظار انطوني كوين

غابت في كنوزها أحداقي وهي تراقب المارة قلت مرة أخرى بعد تردد

ـ أقرأ في هذه الايام عن المادية الجدلية

سرت الوحشة في عينيها كاشاعة حطت نظرتها على عيني بقعة دم تتفتح وردة قالت

ـ لا داعي للاعتذار .

لمحت في وجهي وداعة تحدودب ضلت عيناها بين الذئب فيَّ والناسك بين يدها النائمة على الطاولة ويدي المنحنية على فنجان القهوة خيط دم ومرارة وألسنة تلوك الاسماء وتتلمظ نفيت تهمة الاعتذار . غمزت شفتيها بضحكة وضيئة وقالت

ـ لنمش لا أرغب في رؤية انطوني كوين

تنتشلنا الأرض وتهرول إلى البحر عنَّ لها أن تحتسي نبيذاً قالت وهي ترشف من كأسها

ـ اغفر لنفسك فالله يغفر لمن يشاء الذي فات مات ومحجوب فات

لم تحتس النبيذ بأناقة احتسته كما لو كانت تحتسي الشاي لمحت ناقوساً دامياً يرمي رنينه فينام الحاضر وينهض الماضي كصنوبرة انحنت للريح اجلالاً ثم قامت منتصبة

الخمرة تحكي تجوس بعينيها ادغال وجهي المخيفة سألت تباغت شرودي

ـ ألا تشتهيني ؟

عيناها قبائل همجية صاخبة تنهب مناعتي فأتعري ، أصبح قابلاً للهتك ، معرَّضاً للرعب والحصار .

لذت من الصدمة بالسؤال وتناولت الكأس التمس الوقت قلت
ـ وأنت اتشتهيني ؟

استعر الخمر في وقارنا واضرم النار في المداورة وذوي المجاز . انقبض وجهها ثم انبسط أقدمت يدي ثم أحجمت قالت تتنهد وترشف من كأسها

ـ كلانا يرغب في الانصهار والماضي شرطي من شرطة الأداب

محجوب قيدي والسجن لجامها

تقرأ افكاري ممارسة الحب معي اغتيال آخر لمحجوب الجنس يكسر جناح كبّر الفتاة هل اكسر جناح كبرها بعدما رأيت الرائد يحمل رأس محجوب محتزاً في يده ؟

وقرأت افكارها بعد السجن ما عدت أطيق غريباً يلمس جسدي ولا الهواء والثياب لو استطعت تطويه وتئده تواريه كأنما هو قميص اقترضه منها مريض بالسفلس وحين أعاده القته جانباً عزلته ردمته

الكتب هنا وهناك ، تحت وفوق واوراق مسودة روايتي على ظهر الخزانة وتحت السرير ، تتكوم مع مجموعة من الكتب على كنبة في الصالحة وفي الحمام صحف عتيقة بليلة وكتب سياسية قريبة من سخان المياه مهيأة للاشتعال اذا ما سعى رجال النقيب إلى مصادرتها وفي المطبخ بين الصراصير والصحون وفوق الثلاجة وفي بيروت كتبي تنثر وفي العواصم والموانىء والواحات تنتظرني كالنساء ، أقيم معهن علاقة ثم أرحل وأتركها علي أرجع يوماً ودائماً أرحل على صهوة أحذية الجنود الثقيلة حين أركب الركلة وأحياناً أهرب قبل الركلات مجنباً مؤخرتي طعم الاحذية الثقيلة وأقرأ حين اكتب بالعرض حتى لا أتأثر . . لكني أتأثر . وكنت اكتب فصلاً من روايتي «أعراب» وأقرأ الابواب التي تحكي عن رجل غريب يمشي ولا يمشي ثم أنقلب إلى المجموعات الشعرية الخمس وسرعان ما انفتل نحو طه حسين فما اكاد أجوب بضع صفحات حتى أنتقل إلى اليكساندرا كولونيتا فأضرب في عالمها ثم لا أستقر لكنني اضطرب واتشرد فوق السطح ثم استقر في الباطن تختلط

كلمات طه حسين بكلمات التوحيدي بكلماتي لكني لا أعرف طه حسين بل واقرأ عن هارون الرشيد فاذا بي أشاركه جواريه أو اتقمصه وقال المنفلوطي ان ذاكرته ضعيفة فهو يقرأ ولا يتذكر فلا يحاكي لكن العقل الباطن مستودع خبيث كقمقم فيه عملاق في العملاق عمالقة في العمالقة كلمات ماضية وثرثرة ومثقال يصف طريقة مطالعاتي قائلاً انني أقرأ بالعرض كأنما أنشر عشرات الكتب جنباً إلى جنب على طاولة ثم أبدأ من اليمين إلى الشمال فاقرأ في كل كتاب صفحات وصفحات ثم ارحل الى الكتاب المجاور . قلت أفعل ذلك حتى لا يركبني أسلوب معين ويفرض نفسه على قلمي لكني أحاكي احياناً ، فاللا شعور مخادع وخبيث كالرائد

وتختلط الكلمات كأوراق اللعب ، وتنبثق الوجوه من الكتب فتجاورني كأنما تترك قمقمها لتحاور عيني ايفان كرامازوف مثلاً عاش معي فترة طويلة ينام ويأكل ويشرب معي وشخصيات روايتي اعراب تأتيني في الصحو وفي المنام ونتناقش

وكنت أسحب نفساً عميقاً من لفافة الحشيشة وأحبسه في صدري ، فاذا أطلقته قبضت على زجاجة الخمر . والقرص الجهنمي ينشر عجائبه في دمي راقصات زنجيات ثلاث في لوحة على الجدار ، لا أدري من نفخ في الصور ، فمسهن طائف الحياة الخرافي فاذا بهن يرقصن على انغام موسيقى بعثها مذياع الجيران والجدار أمامي بات شاشة ابصر فيها الاشكال تتقدمني ادغال تحمل اقنعة ثم تحاصرني

هذا هو الجبل ، ورأيت خطوط كفي انهاراً تفيض دماء وتفيض وبيروت تخف الي حاملة كمشة من الوجوه بلا حقائب وقال اديب ان المكان هو التشرد لكن ذاكرتي تتجزأ وجاء رجل عظيم الهامة يدور جسده ويرتفع عماده قادني دون أن ينبس ، إلى نصل حاد يصل الجنة بجهنم اومأ لي أن أمشي عليه . أنكرت موتي بشدة قلت انني لا أزال شاباً وان لكن لساني ويدي ورجلي تشهد بما كانوا يعلمون حين انتهت اصابعي من الادلاء بشهادتها قلت ان المحال لا يتميز عن الصحيح ثم ظهر شيخ له لحية مديدة تكنس الغيم واتهمني بقتل محجوب عبد الساتر . فتلفت يائساً واذا والد مثقال يرعى الماشية في الصحراء وطيارة اسرائيلية تحترق في الفضاء والمظلي يهبط لكن والد مثقال ما كان يتطلع إلى السماء ، بل تطلع لكن لم ير ولم يسأل لأن الصحراء جرداء لا تنبت فيها الاسئلة ولما هبط الطيار جحظت عينا والد مثقال الراعي وفغر فاه وسأله هل أنت جن أم انس ؟ قال الآخر هبطت من السماء إذن انت جني . ابني مثلاً لا يهبط إلا في الأقبية السوداء رأيتك تهبط من الطير الذي كان يدخن غليوناً هائلاً لكنني أنا لا أهبط هبط

قلبي أنت من الجان هيه؟؟ لكن والد مثقال حدق إلى السماء فطال جسمه وامتد شخصه وتوسعت الأقبية لكن القبور ضاقت والهواء وكنت أنا أمتطي صهوة موجة وأحرث البحر هذه مهنتي الأزلية العمل ليس عيباً أنا أحترم الزبال والزبال يحترم حارث البحر ، إذن أنا صهيل

وكانت الكلمات والوجوه تدخلني مثل هواء وماء فأنزفها دماً وأنزفها عرقاً

مضيت إلى مكتب المجلة قبلت زوجتي النائمة وشعرها ينتثر على الوسادة ويدور ويدور وكان ولدي على صدرها وأسميته مهدي لأنه سيخلص ولأنه سيلبي النداء وكان الصبح صافياً مثل نبع والهواء نقياً مثل شاعر طريف وولجت المجلة وكانت المجلة بعيدة ، وأمشي وأركب وأمشي وأركب ثم ولجت المجلة ثم غادرت المجلة وعدت في مساء أحمر اجتزت الشوارع كمن مسه طائف الجنون وتخطيت جدار الصوت وجبال اللهاث وسدود البصر ولكني لم أجد منزلي ولا زوجتي ولا ولدي

قيل أتت عليه قذيفة من السماء فاختفى في الأرض ، وقفت فاغراً فاهي ووضعت يدي على خاصرتي وقلت انني مقطوع من شجرة بلا زوجة ولا ولد ولا مطبخ سألتني صحفية لها رموش تنتصب وتميل نحو الشمال وتنحني قالت في صوت إعلامي

ـ عناد الشاهد من أنت ؟

شرحت لها أنني المقطوع من شجرة وانني ابن شوارع وابلط البحر والأمواج هذه آثار محراثي وستنبت أشجار الملح وسأكون غصناً سقط عنها فتخطفه البحر الضيق الخانق

ونظرت فاذا أنقاض بناية ، صوبت بصري ثم صعدته فاذا الانقاض وجهي وحسبت فتات البناية مرأة صقيلة

وقال الجنيد الماء من لون الاناء وقلت الاناء مكان والماء زمان وكنت في اناء بلا ماء ولا رحابة وما رحلت من الوطن لكنه رحل مني قال الغزاوي وقالت مريم لا وقالت ما يقال وما لا يقال فانتهت في زنزانة بلا ماء وهناك هاجر جسدها بعيداً واغترب نائياً وبقيت هي قابعة بجسد مستعمل فأنكرته وأشاحت وأعرضت وتفززت. ما كانت ترغب في اعارة قمصانها لاخواتها وزميلاتها فكيف

بالجسد خلعوا البزات الكاكية والمدنية ولبسوه وكان جسدها لكنهم صادروه وأعموه ثم رفعوا الحراسة عنه فعاد اليها غريباً مضمناً بالسفلس مجللاً بدمائها ودماء خدوشهم وتكسرت أظافرها مثل أغصان تتقصف في الرعد ، فزرعتها في جدار الزنزانة وكتبت وسقط جسدها في الذهول

كنا جماعة أنا وهي ومثقال وعناصر الحياة وكنا نمشي على كورنيش المنارة وثمة احتمال بأننا لا نمشي على كورنيش المنارة ولكن على شاطىء السان بلاش وكنت ممكناً لكنها واجبة الوجود قالت انها تحب البحر والنار وقال مثقال انك لا تنزلين النار الواحدة مرتين لهذا تحبينها قالت ترمقه بنظرة فيها ضحك وفيها دهشة لا يا شيخ والتفت وجهها يستدير نحوي ونحو الغروب سألتني ان كان يتكلم هكذا دائماً مكبوت قلت لها ارتبك مثقال أرسل ضحكة عصبية لكنها لم تصل أشاح

أخبىء هولي في صدرها يسكن ، يتوارى شعرها يمشي فوق الموج لا يغرق ولا ينثني عن زهوه كركرت في عبها فكرجت ضحكتها على النهدين الذاهلين وكانت مخيلتي تتكىء على حافتيها كما تتكىء امرأة من لحم ودم وعزلة ووحشة على حافة نافذة وترسل بصرها إلى البعيد ولا يصل حدثتها عن ديوان شوقي ابو شقرا الاخير ورحنا في البحر

صاح مثقال

ـ هل قرأت قصائد أراغون ؟

وبددت الريح صوته بات مثقال أمياً ويقرأ الترجمات الرديئة ويلح على الحديث باستفاضة عن الاجانب وكان يلفظ اسم الكاتب الانجليزي سوومررست موغام ومرة قرأ يافطة الفليبرز فقال

ـ ماذا يعني فليبرز . . بمعنى برز يبرز مثل بزغ يبزغ وضحكنا فبوغت اولاً ثم ضحك

طرنا في سماء البحر وشعرها المديد ينتشر فوق الأزرق ذهبياً كشعشعة الشمس المندحرة لكن شعرها تحول حالكاً وانفرش فوق الماء مقدمة لليل الآتي وطربت لموسيقاه

بقي مثقال على الشاطىء قال لا أعرف السباحة ولن أتعرى امام العالم

والخلق وجلس على الرمل مبوزاً كالحردان ثم وقف قائماً وهبط حتى كاحله وانحنى فاقتعد الماء

قلت لها انني ومثقال لا نعرف الطبخ دعوتها إلى شقتنا قلت

ـ تعدين لنا وليمة

ضحكت ومثقال لم تضحك امتقع وجه مثقال قالت عيناه تخطينا الخط الأحمر لكن الختيار قال الخط الاحمر هو دمنا الأحمر

شرح لي الرائد كالمعتذر . لم تطق العيش في هذه الفيلا قال ماذا قال ترغب في العودة إلى البلدة حيث العشيرة ونساؤ ها من صاحباتها . تنتحب بياض النهار وسواد الليل وكانت تجلس وتثرثر مع الخادمات تصور . مرة كادت أن تضع جواربي في الثلاجة ظناً منها أنها دولاب ملابس صحيح ان ام مصطفى زوجتي وابنة عمي لكن الحياة معها باتت لا تطاق

قاطعته مستنكراً ورميته بالمبالغة فلوح ذراعيه في الهواء مغيظاً وصرخ ـ لا أدري لماذا أقف هنا كمتهم أبله يدافع عن نفسه هل أنت قاضي ؟ لا أنت تشبه أخي الذي قتل في سبيل القائد المعلم قبل الوحدة هذا كل ما في الأمر ومن حقي بالتالي أن أتلقّى التعويض عن شهادة أخي قد تمتن أنت حين يكرمك المشير . لكنني أشعر أنه يعوض لي عن حقي دفعت أخي شهيداً في سبيل الوحدة نعم والمسألة ليست مسألة زواج مصلحة احببت سوزي منذ صغري منذ ايام الفقر والتشرد والسجون لكنها كانت الأمنية المستحيلة ثم صارت احتمالاً فلماذا أتردد

واكتشف مثقال حين خرجنا من سينما كليمنصو المركز الثقافي السوفيتي صدفة فطار من الفرح ، واشتعلت عيناه كطفل يلحس البوظة وهب كالاعصار ليشترك ويأتي على غوغول وغوركي وتشيخوف رأيته بأم عيني يتحسس بأطراف أصابعه كتاباً لـ « اليكساندرا كولونتيا » ويغمض عينيه منتشياً كأن رعشة جنسية خضت كيانه على نحو مفاجيء ، إلا أنني لمحت دمعة تومض ثم تختفي حين عاد وفتح عينيه وثب في الشارع كمن أصابه مس وبعدها اكتشف كينيدي سنتر فسجل نفسه ايضاً وكان يصيح في السيارات المزدحمة حين يتعطل السير :

ـ هيه هالو . ياعمي انا مستعجل ليس لديكم قلوب موقوته ولم تنشأوا في

قفر تلكأوا كما تريدون لكن افتحوا لنا طريق لنسبق الزمن انا رجل في عجلة من أمره لكن صوته يضيع في متاهة الابواق والزعيق

ويركض من الجامعة الامريكية إلى المركز الثقافي السوفيتي ثم يتفتل نحو المعارض ويستدمع حين يفتح كتب كينيدي سنتر فيكتشف أنها جميعاً باللغة الانكليزية

لا حد لمخلوقات اللغة

اثناء الحفلة المشؤومة جاءت أم مصطفى رأت عشرات السيارات الفارهة تقف أمام بوابة الفيلا القصر وعشرات من رجال الامن صرخ أحد رجال الأمن

ـ هيه أنت ياست. إلى أين ؟

غير أن سائق الرائد عرفها من فوره خفَّ إليها ورحب فاجأه وجهها شفتاها ملطختان بحمرة قانية أشبه بالدماء ووجهها مغموس بمساحيق البودرة شديدة البياض ، وعلى وجنتيهارسمت تفاحتين بلون الدم كانت ترتدي ثوباً مزركشاً بالفضة تنم الوانه عن ذوق مبتذل سوقي ينفتح عند الصدر فيكشف عن نهدين ضامرين متهدلين متعبين ، ويكشف من فتحته الخلفية الواسعة عن ظهر محدودب

الرائد يسعى صوب القمة خطواته تمشي في السدى

وقالت سوزي لسعيد حزوم الحامل وجهي

ـ لن تفتكرني إذن ؟

ـ حتى لا أفقدك

ـ انت تخافني

ـ انت امرأة

ـ وانت رجل

وكانت عيناي تركبان بحر حنامينة. وتغوصان ، ومن الاعماق السحيقة تطفو الجثث والاطياف والكنوز وكنت اختنق تحت الماء ، ثم ضربت القاع فانساب جسمي كالسهم ، فتنشقت الشمس ولكن قبضة شدتني بعنف إلى القاع فتحت عيني في الماء وقد انطويت إلى نصفين فاذا مثقال يفتح فمه كالسمكة ويقول

ـ تعال ساعدني في تبليط البحر

انه بليط انه يبلط البحر .

ولما رفعت رأسي وتأملته راعني انه ما كان انسانا ولا إلهاً ولا جلجامش كان لا يشبهه شيء. قلت: ليس كمثله شيء في اليقظة والمنام

وقلت لابن عمي المقاول انه كان لي في بيروت شقة وطقم أسنان ثم خرجت الى الحمراء فبزغت الطائرات وابتلعت الشقة وطقم الاسنان وحين عدت لم أر شقة ولا طقم أسناني وانني بحثت ونبشت بين الانقاض ولكني لم اجد طقم اسناني ولا دفتر مذكراتي لا ولاألبوم الصور فارسل ابن عمي ضحكة عريضة وتطلع بوجوه أصحابه وقال

ـ ابن خالي طريف ها ؟

سألني أحدهم وكان ملتحياً ويدخن غليوناً وبدا وجهه كفنان انبجس لتوه من العصور الحجرية

ـ لا شك أنك متأثر بكافكا وهذا الامريكي ما اسمه آه ادجار الن بو . والسوريالية والاستاذ جوني ووكر

صرخت بصوت اختنق

ـ والله العظيم

ولوحت ذراعي ثم صوبتها نحو الشمال وقلت بغيظ وحرقة

ـ هناك والله انا اقول منزلي عاد جاري فلم يعثر على منزله ولا اسرته فانتحر

علق ابن عمتي متضاحكاً

ـ لبسوا طاقية اخفاء ؟

ضربت الطاولة بقبضتي فرقصت الكؤوس وتدحرجت النظرات المستريبة قلت :

ـ الفانتوم والـ إف

هتف ابن صفي

ـ هوه هوه عدنا للسياسة صلي على النبي يارجل سياسة سياسة سياسة سياسة ماهذا ؟

جحظت عيناي

ـ لكن هذا ليس سياسة

قلت حلمت بالنساء قال مثقال سوف احلم بالنساء لكن مثقال لا يحلم بالنساء ولا أنا الغزاوي فقط كان يحلم بالنساء وظل يحلم بالنساء وسوف يحلم بالنساء والمدن العاصفة

انني وحيد والليل بعد الانفصال هبت سوزي نحوي كزوبعة وناولتني أوراقاً ورسائل كتبها الرائد لكنها كانت امام اضطرابي طروباً لا تكاد الارض تتسع لفرحتها ولما حدجتها سائلاً قالت

ـ الذين قاموا بالانقلاب اصحاب والدي واحدهم ابن عمي

ولم يكن الحائط سميكاً بما فيه الكفاية لانطحه فتتكسر جمجمتي

قالت

ـ احرق الاوراق خبئها افعل بها ما شئت لكن خلصني منها ولكن لم أحرق الاوراق وارتها ام مصطفى في عبها ثم أرسلت لي الرزمة الى بيروت حيث كنت أختفي وانهار محفوفاً بالليل الطويل ، وبلا نهار .

قال مثقال انه مسافر إلى موسكو وليس راحلاً قال مصححاً ومنبهاً أن الفارق بين السفر والرحيل كبير . انا شخصياً احترم مثقال ، لكنه يلعب على الكلمات كما يلعب بيتهوفن الاطرش على البيانو .

أقف في الشرفة أرسل بصري الى الجبل الناهض هناك احصي السيارات والدنيا مساء مائه ، مائه وواحد مائه و . في هذه اللحظة بالذات يقف الغزاوي خلف مدفعه في الرشيدية ويفكر بقلق وانقباض ويطيل التفكير :

ـ ماذا لو كانت زوجتي في الحمام او عند الجارة بينما طفلتي راقدة على ظهرها نائمة وتقيأت ستختنق كان علي أن أنبهها الى ضرورة رقود الطفلة على بطنها ماذا لو تقيأت وهي على ظهرها ستختنق وانا بعيد وراء مدفع مشرع للبحر الاسود الابيض المتوسط وماذا لو قصفوا صور وانا هنا وماذا لو استمر الاستنفار سنة ألن تحلم زوجتي بفارس لا يغادر فراشها الى الليل ويضطجع على الرمل ويطلق ؟ وماذا لو كانت الطفلة ترقد على ظهرها وامها عند الجيران وتقيأت ؟

حين انتقد مثقال مسودات بعض فصول روايتي « عرب » أو « أعراب » ـ لم

استقر على رأي بعد ـ استشاط دمي ، فأنا أبغض النقد السلبي وبالتحديد حين يتعلق بعمل قمت به رغم ديموقراطيتي المعهودة هتفت بحدة

ـ تقول مجزأة ؟ طبعاً مجزأة اليس الوطن اليس الانسان اليست انا الست انت مجزأين ؟ السنا

غير أنني امسكت ولم أنبس قلت لنفسي مصير هذه الرواية وقوداً في حمام قديم في اية حال وهززت منكبي لا ابالي ، وقلبت شفتي السفلى غير مكترث

وكان هو يجوس الحطام والحطام ينقب عن زوجته ، عثر على خنصر يشبه خنصرها لكن الشك هوى على اليقين فشطره لعلها وربما لا

وكنت وتيسير نقتعد طاولة في الـ « ثيرد سيركل إن » نحتسي البيرة تحت شلال الشمس الناعس وكان صاحبي ما زال منذ حزيران ينقب عن حبة فستق صالحة بين الحبات العفنة في الصحن بلا جدوى

وتأخذ الريح شعر مريم ، والريح تلعب كطفل عفريت وشعر مريم أرجوحة تتمايل بين المطر والجزع . لكنها تنسى جسدها الغريب وتحاكي الهواء بضحكة والروشة صهوة والموج صهيل

ومسقط رأسي بلا حراك بلا رياح ولا ساعة هواء مكيفات الهواء اختناق قال مثقال الذي يمقت المنطق الصوري ويؤمن بالجدل :
ـ نحن نشغل في الزمان حيزاً أهم بكثير من الفسحة الضيقة التي نحتلها في المكان هكذا تكلم بروست

ولم أفهم فضرب لي مثل الاقامة الجبرية والرحيل عبر الهاتف الداعي والخيال والذاكرة الرحيل العامودي ، الهجرة الداخلية أسماها

ووجه كفى يابس في مسقط رأسي

ووجه مريم رغم الهول مطر وماء.

ومع انهيار الوحدة والانفصال هربت وتواريت ثم انبثقت ومن مطار إلى مطار ، هبطت الطائرة وكنت أدرك تماماً أنني أهبط طبقياً فقدت امتيازاتي. وحطت الطائرة على المدرج وأعرف أنني انحط من قصر الى غرفة صغيرة في فندق مترنح ، أو غرفة على سطح تتخطفها الريح ومسمار في الحائط أعلق عليه قميصي

الوحيد ويأسي

لاول مرة تأتيني مريم دون دعوة مثقال في المركز الثقافي السوفيتي وانا وحيد

سألت مرحباً كيف جرى ؟

وقلت في نفسي مريم سر وليس أقبل للسر من الفرار . كالخطرة

وكان يدرك انها أشد النساء امتناعاً مثل الحصون

قالت مرتبكة

ـ جئت اطمئن بعد القذائف

وتساقطت قذائف عشوائية
وانهمر شعرها تلقائياً
وهطل المطر عفوياً

بحذر شديد وخفقات قلبي تهز الاوراس رفعت يدي كبيرق ومررتها على شعرها ، فانتفضت نفضة الحمى وانثنت تصوب في النظر وتصعده ، جهمة المحيا رفعت ذراعي وفردت أصابعي دلالة الاعتذار والاستسلام كانت تحاول ولكن الزنزانة وكنت أغالب ولكن محجوب

وبناء على ما تقدم انبجس مثقال في واحة بين قفر وعراء من الرمال ، وكر على بيروت كأنما يكر على الحياة بنهم وشراهة أتاها عاصفاً جائعاً يتلظى في نفسه الظمأ ويكويها وناداها فاستجابت وهزته بعنف فولج رعود النشوة ورحابة الانجاز . وها هو الآن لا يكتفي بالمكتبات والحوار والفنون ، فيمم وجهه صوب مدى فتح له جهاته الأربع ودعاه فلبى من الرشيدية الى صبرا يطير . وينطوي بين بحر صور وقمم صنين ثم ينهض مستقيماً فوق في عيون السيمان ويختطف ساعة ، ليختلس نظرة الى كتاب في مكتبة الجامعة ويلهث لكن لا تنقطع أنفاسه يدنو من الفعل فيلاصقه ثم يصيره وأنا أتآى عارفت بين الغزاوي وابو الموت من جهة ومثقال من جهة أخرى بين الغزاوي وابو الموت ومثقال وبين مريم فتوغلوا في الخطر واتحدوا وانا انفصلت نائياً أقف أراقب ، أشارك أحياناً ، مشاركتي سكر خفيف واغتربت بينهم أحس أنني جندي فقد كتيبته وضاع . ثم عاد بعد غياب في المتاهة فأطلوا وأطل حياهم من بعد ، وحيوه وهم يلتفتون إلى البحر

والسماء حذرين حيوه ولم يلتفتوا ، حيوه خطفاً وعيونهم معلقة في البحر والسماء تنقب بين الموج عن زوارق حربية وبين الغمام عن الفانتوم لا وقت لي وقتهم شحيح والزمن في بيروت لا يعرف فائضاً يعار أو يقرض يخوضون في البحر المتلاطم ويذهبون في البعيد واكتفي بالهبوط في الماء حتى كاحلي وأفرد اليوت فيأخذني

ثم أنشر بيتس فيخطفني منهم أرسل بصري حين تقتحم شعشعة الشمس عيني وتنهبها الوضوح فالمح مثقال يسبح هنا ويغطس هناك وينقلب على ظهره ثم ينزلق عامودياً مفتوح العينين ينهب الكنز الدفين والخطر ويذهب بالموت ويقرأ الاعماق

بهظني الخطر وحاصرني الموت في المكتبة وانا بعيد ناء مع فيرجينياوولف قبل ان تنتحر

غمرني الرعب كطوفان عارم وسقط رأسي الشامخ بين الضباب والغيوم على صدري منهكاً وقلت أعود الى مسقط رأسي ما دام سقط حيث المناشير السرية وثرثرة الغرف الموصدة الأبواب وانفجار مظاهرة يتيمة تمتد وتتقدم ثم تكبو بين عصر من الجزر . وآخر

مثقال كان في بيروت دهشة تمشي على قدمين وبات رياحاً تهب وتعصف فلا تترك خطرة او خطراً إلا وتحتويه

وهكذا جاءت مريم علقت جسدها عند الباب ثم دخلت دخلت ثوباً بلا جسد ودخلت عارية بلا صدر ولا ساقين قلت أين ؟ واومأت فاشارت إلى الباب كان جسدها معلقاً كمعطف تزنره اسلاك كهربائية تتوهج قائلة احذر . . خطر. الموت

الح أحياناً ، أرغب في تفاصيل الماضي أداور والتف ثم اقتحم لكن ماضيها مردوم في أعماق الارض كجثة تسورها نظرات من الضواري المستنفرة وكانت هي أيضاً تلتف وتدور فلا تطلق ضواريها في وجهي أهم غير مرة بالسؤال فتردني رداً رقيقاً مريراً غير أني أمتطي الفضول والوجد المبهم واندفع متقدماً ، فتدور حول ماضيها ما شاء لها الدوران بخفة ورشاقة، فاكر راجعاً والمح نظرة منهكة حزينة في عينيها فأقمع رغبتي في تعرية ماضي حبيبتي السري قلت لنفسي أحب فتاة ليس لها عنوان

وكانت تفطن الى غرضي لكنها لا تردع مباشرة فتتكلف الغباء وانثناء مقصدي عن فهمها

وذات مرة ردتني بذكاء جارح ويأس اضطراري آذاني في اعماق نفسي فامتنعت بعد ذلك عن محاولات توغلي اليائسة في ادغال ماضيها المعتمة

قالت مباشرة هذه المرة وهي تتنهد

ـ هل تعذب ابن خالي محجوب عبد الساتر كثيراً قبل أن يسلم الروح ؟ واضطربت نفسي كلها وغالبت رعشة سرت في جسدي فهزته كانت تنظر في عيني بجرأة جمدت في مكاني لا أنبس ولا اتنحنح أي صوت هذا الذي عوى في داخلي ؟

وفهمتها.. قرأت المكتوب من عنوانه تفتحت كلماتها أمام بصيرتي فأدركت الطلع ، وتعرى سؤالها في بالي من أقنعته وسواتره قالت لو فتحت لك باب الغرفة السابعة المستحيلة في قصري الغامض ، ولو أطلعتك على الجرح الذي امتصت دماءه وأسموه جسداً لو فعلت هذا فمن أين تستنبت الجرأة للمسي ؟؟ وأنت الذي تعتذر ليل نهار عما فعله أصحابك بمحجوب دون أن أسألك الاعتذار . وانت الذي تتجنب النطق باسمه ندماً وانت الذي ترى في ممارسة الحب اذلالاً للمرأة وتكسيراً لجناح الكبْر فيها ألا يرعبك جسدي ؟

هذا ما قالته لا هذا ما لم تقله ولكنها قالته لا ولكن هذا ما سوف تقوله أو قالته في عصر سحيق أو لـم تقله الآن كيف تحكي دون أن تفتح فمها ؟ كيف تزرع كل هذه الالغام في كلمتين تجللهما ثياب الحشمة والبراءة ؟

ونتيجة لكل ذلك

ناديت على مثقال ، فأطل وجه والده المتغضن فبدا منحوتاً من القسوة والصخر ، ثم تبعه وجه شاب بدوي ينفرد فوق شفته العليا شاربان كثيفان مديدان كأنهما جناحا صقر قال ابوه بصوت قاتم

ـ تفضل . الباشا مضى يتسكع حول المصنع حاملاً السلم بالعرض تفضل. أهلاً وسهلاً بالاستاذ الكريم نورت الدار . اهلاً

ما عرفت أيسخر مني أم يبالغ في اختزام لم اتبين له تفسيراً ترددت ثم دلفت الى الصالة ـ وهي صالة في النهار وغرفة نوم في الليل ـ اقتعدت الفراش على الأرض

واستندت بمرفقي الى الوسادة صعدت النظر في الرجل ذي الشاربين الكثيفين كان عملاقاً قد ارتفعت قامته في السماء وامتد جسمه في الفضاء كما قال طه استخرج علبة دخانه ثم انطوى فوضعها أمامي اقتعد كجبل على الفراش المنبسط على الارض مقابلي قال بصوت خشن

ـ حلت البركة انا ابن عم مثقال شرطي.

ـ أهلاً وسهلاً عناد الشاهد عاطل عن السفر والعمل ، والجنس

أضاءت أساريره ، مد لسانه ولحس شفتيه وابتسم قال

ـ اهلاً اهلاً سمعت عنك الكثير . . نحن نرفع رؤوسنا بماضيك البطولي استاذ. نحن

قلت له ان ليس في ماضيً بطولة وانني لست استاذاً

غاضت الابتسامة عن شفتيه لكنه عاد يلح

ـ سمعت استاذ عن السجن السجن للرجال قال لي مثقال انك تكتب كتاباً

وعادالأب الذي كان قد اختفى في الغرفة الثانية وعاود ترحيبه ثم اقتعد الفراش الى جواري شبك أصابعه الغليظة وانحنى وقال

ـ ألا تقول يا استاذ كلمة او كلمتين لحضرة الباشا ليكف عن محاولته اقامة الدين في مالطا

رمقته بنظرة خابية سرعان ما استرددتها ودفنتها في الأرض ولم أنبس قال يمسح على شاربه ويهز جذعه إلى امام وإلى وراء بحركة رتيبة

ـ بالله عليك استحلفك بضميرك ان تحكي الصواب ألا تعتقد أن حمل مثقال للسلم بالعرض مثل صيحة في واد ؟

لم أرفع رأسي لكني قلت بصوت خفيض اني لا أعتقد لاأعتقد بأي شيء لا أعتقد ولا لاأعتقد فنكش ابو مثقال منخريه بعصبيه ثم تجهم قال

ـ اسمح لي أن اتحدث معك بصراحة فانت مثل مثقال وانت مثقف وتفهم

ولم اكن أفهم شيئاً ، غير أني لم اعترض سألني لماذا انصرفت انا عن السياسة بينما تركت مثقال متورطاً فيها مذكراً بأنني من ورطه

رمقت الشرطي العملاق بنظرة مستريبة ، وضاق نفسي أطلت أم مثقال تحمل صينية القهوة رحبت ثم انثنت تناولني الفنجان فتستقيم وجهها شامخ وعيناها تعشان بومض قوي قالت بلهجة حازمة

ـ لا تلتفت الى كلام العجوز . خرفان الولد طالع لجده والدي شهم وعنيد والختيار يريد أن يكسر جناحه

التفت العجوز اليها وقال بنزق
ـ أنت أفسدتي الولد خليك جائعة ، خلي اولادك من غير مورد حتى ينبسط حبيب قلبك مثقال ويظل يتسكع يشم الهواء ويقطف الورد واقرانه دكاترة ومحامين ومهندسين

ثم التفت الي وقال كمن يتشكى :
ـ النساء قليلات عقل صرفت دم قلبي عليه حتى يدرس في الجامعة فاذا بالباشا يفصل من الجامعة وبينه وبين الشهادة سنة واحدة ولماذا؟؟ لان نظام الكون الذي اقامه سبحانه وتعالى لا يعجبه

احتقن وجهه ونفرت شرايينه فاضاف
ـ الخرا

اعتذر الشرطي العملاق فقال ان ابو مثقال يحكي هكذا من قهره وحسرته على مثقال

ضرب العجوز كفاً بكف يريد أن ينشيء نقابة للعمال قال حمار . المصنع مقفل منذ أسبوع بسبب قتل عامل صعلوك من عشيرة المسعداوي لعامل من عشيرتنا والباشا مثقال افندي يتسكع هنا وهناك قال ماذا يريد نقابة للعمال من العشيرتين والعشائر الاخرى والثار!؟ ودم القتيل لم يجف ولماذا النقابة وانت تركت السياسة عاقل لماذا لا تحكي معه كلمتين عله يحط عقله في رأسه كلمتان يكتبهما في الجريدة استنكر كذا وكذا ويركض الشغل اليه ويصبح موظف لكنه عنيد كبغل

اعترضت الام المنتصبة كرمح
ـ عنيد مثل والدي رجل ولا كل الرجال

قال العجوز دون أن يلتفت اليها

ـ كله منك انت والدك كان ثائراً . انظري ماذا يقول الناس عنه اليوم يقولون كان عميلاً للانجليز لانه ثار ضد الاتراك عجبك استاذ . ومثقال دجاجة حفرت على رأسها عفرت يحرث البحر يثرثر عن الشعب ، والشعب يقول إن مثقال عطال بطال لا شغله ولا عمله حتى والد خطيبته البقال يفكر في فسخ الخطبة وخطيبته قال ماذا تحبه علي الطلاق انها اما مجنونة او عميلة للمخابرات دستها المخابرات عليه وإلا كيف تحبه وهو لا شغل ولا عمل يقترض من عمه ليدخن السجائر

ودافعت الام بشراسة وصمت العملاق وكنت أتابع العجوز وهو ينكش منخريه كأنه ينقب عن ذهب والذباب يدور والشمس تمد لسانها الينا وتنتشر في الغرفة واحكي لمثقال كلمتين عله يعقل ولم احك

وقالت كفى مالك ساكت شارد بماذا تفكر . وانا لا أفكر . . انا اتذكر . الشعب الشعب الشعب

وقال البقال ان مثقال يذكره بذلك الجندي الياباني الذي ظل يجوب الأدغال باحثاً عن الاعداء بينما الحرب وضعت أوزارها منذ ثلاثين عاماً وامبراطور اليابان يضاجع ملكة الانكليز ما اسمه كيوتو ؟ يوكوي ؟ كل اسمائهم تشابه بعضها مثل وجوههم احرقوا تمثال زعيمهم تونغ الاحمر بعدما كانوا يلحسون مؤخرته السياسة يا عمي مالها دين

ويطرد صاحب المقهى الذباب عن عينيه والمناضد ورايح على الحج يا مثقال والنارس راجعة بلا نقابة بلا بطيخ كلمتا استنكار في الصحيفة وتصبح موظفاً قد الدنيا ربما مدير المدرسة الله ينجينا يا عمي والدك عجوز والاسرة كبيرة والمصنع مقفل وافواه اخوتك مفتوحة مثل عيون لا تنام ومن سيعلمهم حط عقلك في راسك يلعن ابو السياسة ويومها

ويبصق على ارض المقهى ويمسح فمه بكمه وينحني ليعبث باصابع قدمه اليمنى ثم ينتصب وانا ومثقال نصطاد الذباب في هذا الوهج الحارق وقال بماذا تفكر قلت لا أفكر أنا ومر الشرطي العملاق فمال وغمز بعينه وشد على ذراعي وهو يودعني ثم همس

ـ بل انا احترم ماضيك انت رجل ومثقال اعرف انك لم تترك السياسة العجوز خرفان ولا يهمك الله ينصركم هكذا الرجال وإلا فلا

فهرع الرائد إلى الخارج واخذ زوجته الاولى ام مصطفى من ذراعها وقد جحظت عيناه وقال لها كالمنهار

ـ أي مس أصابك ماذا فعلت بوجهك ما هذا الثوب لماذا أنت تريدين فلوس خذي

لا تريد فلوس تريد أن تتشبه بسوزي وانا التي احتملتك يا ابو مصطفى ايام السجون والفقر والتشرد وانا التي خبأت المناشير في صدري يوم داهمت الشرطة البيت ومصطفى يعلمني عربي وانكليزي وسأحكي انجليزي احسن من هذه القحبة نسيت يا ابو مصطفى نسيت يا ابن عمي مناهضتي لايام الشدائد حين حلت ايام العسل والسكر وانا التي ثبت للألام وصبرت عليها وانقطع صوتها وحاولت امساك دمعها لكنه تفلت وخلط أصباغ وجهها وكحلها فبدا وجهها الخرب كوجه مهرج في سيرك وانا التي راضت نفسها مع الايام على مكروهها في الزمن الصعب وتأتي هذه القحبة فتأخذك مني .على حظ الحزينة سكرت المدينة !؟

واضطرب الرائد وترامى إليه صوت سوزي تناديه ثم تبعه صوت سيادة المشير فانتحى بأم مصطفى جانباً وهو يرتعد همس يكاتم غضبه ما استطاع :

ـ حسن حسن اذهبي الآن وأمر بك غداً

أثبتت أم مصطفى قدميها في الأرض، فهي لا تزول ولا تميل وقالت ناحبة

ـ أريد ان أرى المشير . . أن اشتكي له هذه الأفعى الـ .

هاج ساكن الرائد فصفعها بكل قوته وقد انفجر غضبه فغاب وجهها في ذهول صامت ثم بكى الرائد ودفن رأسه في صدرهاوتوسلها. قبل يديها وكاد ينحني على قدميها فاستدارت واختفت في الليل

وكنت ومثقال نكش الذباب لا كنت انا فقط اكش الذباب وكنا في المقهى انا اكش الذباب وهو يفكر . ولم يكن الشاي حلواً

وتلهث كفى تحتي لهاث وعرق له طعم ماء البحر الميت ماء البحر الميت مالح. قالت كفى أن نصف الألف خمسمائة وما كانت تعلمني الحساب. وكنت أعرف إلا أني ما كنت هناك لا ولا كنت الهث

وكنت افكر برائحة العرق تحت ابطي حين قالت نصف الالف لا كنت افكر في علاقتها المبهمة بالنقيب لا كنت افكر بالوحدة لا . . ما كنت افكر

كنت أحدق إلى الوسادة ولا أفكر .

وبالتالي رأى صديق مثقال أن عمر خورشيد عميل للنظام وأن موسيقاه جزء من المؤسسة الرسمية وانه كرس قيم المؤسسة بموسيقاه من موقع طبقي مستغل لأذان الجماهير المضللة وسألني عن رأيي في عبد المطلب رفعت منكبي وقلبت شفتي السفلى وقلت إن لا رأي لي في عبد المطلب ثم قال مثقال ان صوت عبد الباسط حال مرة دونه ودون نهب النشوة من جسد مومس

وكنت اكش الذباب كان والدي يقول اني تنبل ومجرم في حق اخوتي وانني لا اقوم بأي عمل إلا كش الذباب

وما كان مثقال يكش الذباب ، لكنه قول يقال قال مثقال حرام الضرب بالميت وعمر خورشيد مات لكنه والنظام

وكان البحر الميت يخنق العواصم.. ومثقال يقرأ في المرحاض، وأنا هنا ونتنفس. إلا أن شلة أيام الدراسة الثانوية دعتني الى سهرة في «البريفيه». سألني عريف الصف أيام الدراسة عن رأيي في فوز ماكنرو على بورغ قلت إني لم أسمع بهذا الاسم من قبل. تهامسوا جميعاً في عجب وفضول. وسألني الطالب العفريت سابقاً المحامي حاضراً ان كنت قد شهدت المباراة على التلفزيون. فشلت رأسي سلباً ضرب كفاً بكف وطرح رأسه إلى وراء وفي حسرة تنهد ثم قال:

ـ نت.. نت. نت خسارة راح عليك نصف عمرك

وغنى سكير في ركن الحانة أنا من ضيع في الأوهام عمره

وكنت أعلم ولا أعلم. لكن لا داعي للشماتة وقال أحدهم أن الاعمار بيد الله وضحك فعبست لكنني أعلم على اليقين أن للمدن أعماراً

وطلب العريف جولة اخرى من الكؤوس واحتسينا ودارت الكؤوس ودارت الرؤوس ودارت الحانة والمدينة والدنيا

والجهات الاربع سدت منافذها

غير أن أبواب جهنم انفتحت من الجهات الأربع بحراً وجواً وبراً ومن وراء وما عاد الغزاوي يفكر في وضع ابنته اثناء النوم واندلع ابو الموت في الليل وتقدم الليل ونصبنا له الكمائن ، وتقدموا وكتمنا أنفاسنا ، ثم بانوا أشباحاً تتقدم ونحن في حضن الأرض عيوننا سوداء وأعصابنا تتوهج وتنبض وتقدموا في منطقة

الفنار ، وكنا مزروعين في الأرض حتى العيون ، وحسسنا الأنفاس ثم مالت أغصان البنادق وفتحنا النار دفعة واحدة مقاتل أطلق انفاسه قبلنا بلحظة فأمسى اشارة صمت ومالت ثم تكسرت . وفي مصيلح قرب الزهراني تهدل شنب ديفيد مهناشي فوقع أسيراً والتحمت الأجساد والأيدي والحراب والليل وارتفعت أعمدة الدخان والصرخات وأصوات الرصاص ثم ارتفع سعر الذهب في نيويورك

من اعترافات القائد الرائد

صحيح انني لم أصبح قائداً بعد ولكنني رائد في اية حال ورائد على جانب كبير من الخطورة منذ صغري وذلك الاحساس الغامض بأني رجل قدر ومصير يلح على نفسي ويستولي على كياني دون أن أتبين له مصدراً بيناً أو علة علمية وهنا بالتحديد كان يكمن خطأي فمثل هذا الاحساس لا يرصد بالدلائل العقلية والبراهين المنطقية فهو ينتمي إلى عالم النداء الروحي الذي لا يبلغه الباحث المتوسل إلا بالمعرفة المباشرة شأنه شأن الوحي والالهام والنداء القدري لكن القدر يلقي في قلب اللبيب المصطفى إشارات خفية ورموزاً تستغلق على العامة فلا يدركها إلا الذي يصطفيه النداء حتى انني كنت استحم مرة ، ثم غادرت « البانيو » ووقفت عارياً امام المرآة اتأمل عضلاتي المفتولة وصدري العريض الأشعر الذي يفتن النساء ويغوي الصبايا فاذا بي أنتبه لاول مرة وفي لحظة مباغته أن الشامات المرسومة على صدري تتخذ شكل هلال تأملتها للحظات ثم قلت في نفسي هذه إشارة وتأكدت من فرضيتي حين قفزت إلى هذا المنصب الحساس بين ليلة وضحاها بعد الوحدة

اعترف أنني كنت أحمق مثل صاحبي عناد الشاهد قبل سنوات صحيح أن صيت شجاعتي وقدرتي على الحسم ذاع منذ زمن على الملأ إلا أنني كنت أخفي ارتباكاً وخجلاً وبالتحديد اذا ما قابلت شخصية هامة جليلة ـ ما كنت انا مهماً خطيراً وقت ذاك ـ وأنا أرجع تلك الثغرة التي لا تليق بي إلى عقدتي وشعوري بالنقص ازاء المثقفين والنافذين قبل الوحدة أعد صديق لقاء سرياً بيني وبين أقرب المقربين إلى الريس وهو ذو ثقافة واسعة ، يعرف تفاصيل حياة شو إن لاي ويقابل خروتشوف بل ويصحبه في رحلات على يخت خاص في النيل أو البحر الاسود في طريقنا اليه ـ كم تضحكني هذه الذكرى الآن كلما ألممْتُ ببالي ـ كنت أتصبب عرقاً

رغم أن المطر ينهمر بغزارة كنت أرتدي سترة صاحبي الانيقة ، وطوال الطريق كنت أراقب حذائي الذي حرصت على مسحه بيدي حتى صار يلمع كوجه نجمات هوليود وطوال الطريق وصاحبي يحذرني احرص ألا تثرثر كثيراً تذكر أنه لا يحب أن يقاطع في منتصف الحديث ، ولم يفته أن ينبهني أن المفكر الخطير يتحدث بطريقة يستعصي على السامع معرفة ما اذا كان قد انتهى من حديثه أم لا ورأى أنه من الحكمة أن لا أدخن خلال الجلسة إلا إذا دخن الاستاذ وضيفني سيجارة ولفت نظري إلى ضرورة الانتفاض وقوفاً اذا ما غادر المفكر المقرب للريس والذي يقابل خروتشوف الصالة ليقضي غرضاً في الحمام وضرورة الانتفاض وقوفاً واجلالاً حين يعود من الحمام وأشار علي بأن لا أشبك ساقاً على ساق في حضور المفكر الكبير ومنظّر الريس كما وصفه الصديق وضاعفت هذه التعليمات من اضطرابي حتى انني فكرت في العدول عن الزيارة وتذكرت ابي الصارم الذي كنت اخشى أن ادخن امامه رغم انني تزوجت فكنت افزع الى المرحاض كلما عنّ لي تدخين سيجارة وشعرت بأنني ذاهب إلى امتحان عسير . وحين قرعنا الجرس هبط قلبي وارتعشت أصابعي وتمنيت أن يقول لنا رجل الامن ان المفكر غير موجود بل كدت انكفىء وأطلق ساقي للريح حين تنبهت في اللحظة الاخيرة أن الوحل منتثر على حذائي وطرف بنطالي من الاسفل غير أني تماسكت وقلت في نفس تماسك فانت تدخل التاريخ من بابه العريض في هذه اللحظة بالذات

وبزغ وجه المنظّر فخيل الي أن وجهه مضاء بنور خارق لا يشع إلا من وجوه الاولياء والقديسين ارتعشت أصابعي وانا أمد يدي لمصافحته غير أنني استرددتها فجأة حين اكتشفت انها مبللة بالعرق مسحتها بحركة سريعة مضطربة بسترتي رغم أن المفكر كان قد مد يده منذ اللحظة الأولى وكدت اتساقط ارتباكاً صافحته فتبسم واذا بي افاجىء المفكر وصاحبي ونفسي بارسال ضحكة عصبية هستيرية لم أدر أي شيطان متوار في أعماقي اطلقها كنت مرتبكاً وفرحاً في آن

المهم كان اللقاء خيبة هائلة من جهة لكنه كشف لي أنني عبقري مختار من جهة أخرى وبما أنني ضابط في سلاح الهندسة في الاصل ـ وهذا بيت القصيد ـ فانني تعلمت كيف أتعامل مع الناس تعاملي مع الالغام في حذر وخبث ومداورة وهذا ما يسميه علماء النفس بالذكاء الاجتماعي ـ ويتضح هنا أنني رجل مطلع مثقف ، كم أرغب في مناقشة مسألة الذكاء الاجتماعي وعرض ثقافتي الواسعة لكن إحدى أخطر نقاط ضعفي هي الاسهاب والتشعب ـ والاعتراف بالنقص فضيلة ـ وانا

بشهادة الجميع شخص فاضل صادق مع نفسه حاصله ابن كنا اه دلفنا إلى الصالة ووقفنا في وسطها بانتظار المفكر وكان المفكر بدوره يقف بانتظار جلوسنا وفي إيماءة منه تحثنا على الجلوس قبل أن يجلس هو مد يده ولمردها مشيراً الى المقاعد وفي غمرة اضطرابي وارتباكي عثرت على يدي تمتد في حركة تلقائية سريعة لتصافح يده مرة أخرى ظناً مني أن يد المفكر ممدودة للمصافحة صافحني الرجل مجاملة وابتسم بامتعاض ثم استسلم يائساً وجلس فجلسنا قلت في نفسي أن المفكر لا بد قائل في نفسه انني حمار . . ولعله يقول أعوذ بالله وهكذا احتقن وجهي وغضضت بصري ، وتكتفت كتلميذ مؤدب قال المفكر مرحباً

ـ أهلاً وسهلاً

قال الصديق باجلال

ـ اهلاً بك استاذ

انتظرنا جلوس الاستاذ ثم جلسنا وبينما أنشأ الاستاذ يسأل صاحبي عن أحوال قطرنا ، رحت أسارق النظر اليه مسارقة وراعني أن وجهه وعيناه وكلماته عادية تشبه ملامحنا وعيوننا وكلماتنا باستثناء اللهجة كان يتكلم ببطء ولا يلتفت الينا إلا بين العبارة والعبارة ما كنت أصغي لما يقول لانشغالي بدراسة حركات يده وعضلات وجهه ، متى تتقلص ومتى تنبسط ، وانتبه الى ايقاع صوته وكانت الصدمة هائلة فحيث كنت اتوقع اعتداداً وخيلاءَ ، وجدت تواضعاً وتهذيباً شديداً توقعت ان يتحدث الينا وهو يحدجنا بعينين ثابتتين قويتين ويستمع منا وقد أشاح ببصره واعرض بوجهه علامة الكبْر والهيبة فاذا بي افاجأ بوجه تلوح في عينيه نظرة خجلى لا تخلو من زهد وبساطة ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد فاذا به يتبسط في الحديث ويلقي النكات بين الحين والآخر ، ويضحك من أعماقه كطفل سعيد كنت مشدوهاً ، أين الهيبة التي كنت أتخيلها فيه ، وأين الوقار والرزانة التي تميز شخصية القائد صحيح أن المفكر ليس القائد الأول لكنه من قياديي الصف الأول في هرم السلطة وصحيح ان الريس نفسه بشوش مشرق الوجه ، إلا أنني أعتقد أن هذه البشاشة قد تجرىء بعض السفهاء وتطمع الانتهازيين فيه وفي أية حال فان الريس استثناء وليس قاعدة ثم انني اكتشفت من خلال متابعتي لصوره في الصحف والمجلات نظرة قوية تبسط سلطانها على من تحلق حوله ـ لطالما حاولت تقليد هذه النظرة أمام المرآة ولكن دون جدوى ـ وسرعان ما قارنت بين المفكر والمشير الذي قابلته منذ زمن غير بعيد لاحظت أنه يتحدث دون أن ينظر الى السامع وادركت أن هذا

الاسلوب يضفي على المشير مسحة من الهيبة والاعتداد يبث الاضطراب في قلب السامع وبالتحديد حين يباغته المشير فجأة بنظرة مباشرة ثاقبة وكأنه يضبطه ساهياً شارداً فيرتبك السامع ويتضاءل ولم يفتني أنه يخفض صوته أحياناً ـ عن قصد ـ فلا يكاد جليسه يسمع كلماته ويضطر المسكين إلى بذل جهد لارهاف السمع وفجأة ، بعد حفيفه الخفيض وبعد تيقنه من انك لم تعد تسمع كلمة واحدة وانك على الرغم من ذلك تتكلف الاصغاء والفهم فتهز رأسك كالموافق وتبسم مسايرة كأنما تتصنّع السمع . . اقول فجأة يرميك بضربة تزلزل كيانك يسأل هه ما رأيك بما قلت ؟

وراعني أيضاً أن الاستاذ المفكر عمد الى العصور الوسطى للتدليل على فرضياته فهو يستشهد ببسمارك حيناً ، ويحكي قصة عن غاريبالدي حيناً أخر وشارلمان وهارون الرشيد وقائمة طويلة من الاسماء والحوادث التي لم أسمع بها قط

وهالني أنه يجيب على اغلب اسئلة صديقي ـ

الحقيقة انني لا أدري ـ لا أعرف ـ لم أقرأه ـ ليس لدي معلومات حول هذا الأمر ـ الوضع غامض ومعقد ولا أكاد أعرف رأسه من رجليه ـ

كيف ؟ كيف يسمح لنفسه أن لا يعرف بل كيف يسمح لنفسه أن يعترف بأنه لا يعرف أمام شخص ليس من جماعتنا ـ أي صاحبي ـ ولهذا السبب بالتحديد عدلت عن دراسة حركاته وايماءاته لأحفظها غيباً وأقلد بعضها ـ كما أفعل مع أغلب الشخصيات الخطيرة التي أقابلها ـ ولا أخفي انني شعرت بالتفوق عليه فما عاد فنجان القهوة يضطرب في يدي الراعشة هيبة وارتباكاً امام هذا القائد ، ولا أدري من أين دهمني احساس بأن المفكر يشبه البابا وأنه خليق بأن يكون ناسكاً في دير لا قائداً من المقربين للريس والمشير . وبعد أن كنت قامعاً رغبتي في التبول ، سألته عن الحمام وقمت وحين عدت شبكت ساقاً على ساق وانشأت أدخن ومما زاد في تقزمه في عيني أنه قال يتبسم في حياء

ـ لقد سمعنا بمشاركتك وعبد الحميد في العصيان وانا فخور بك ومعجب بجرأتك لو كان لدينا مائة مناضل مثلك في الوطن العربي لأنجزنا الوحدة منذ زمن

التزمت الصمت وقد غمرني احساس بالمباهاة والاعتداد وبالاستهانة

بالمفكر قال معجب بي قال لو قال انه معجب بعبد الناصر أوماوتسي تونغ لهان الأمر اما أن يعجب بي فهذا يعني أنني أستحق الاعجاب وانه معجب والمسافة بين المعجب والمعجب به هائلة ، ولم يفتني أن الاحظ انه يعقب على كل ما أتفوه به من حماقات بكلمات الاستحسان صحيح أو بالضبط حتماً

حين قام هذه المرة وغادر الصالة قائلاً بتهذيبه الذي ينم عن ضعف فيه لحظة عن اذنكم لم انهض احتراماً رغم أن صديقي انتفض واقفاً باجلال وحين عاد نهض صديقي وبقيت جالساً على قفاي
حين ودعناه وخرجنا سألني صديقي بلهفة
ـ ها كيف وجدته ما هو انطباعك عنه ؟ .

قلت له بامتعاض دون أن التفت
ـ اولئك المثقفون الثرثارون خليقون بالثرثرة كالنساء في المقاهي لا المشاركة في قيادة الامة فنحن الذين نصنع التاريخ لاننا نتمتع بالحسم والحزم اما هؤلاء فما عليهم سوى تدوينه

يكتبون التاريخ والفارق كبير بين من يصنع التاريخ مثل الريس وبين من يدونه مثله هو .

واليوم ، بعد الوحدة ، وبعدما أمسيت في هذا الموقع الحساس تعمقت قناعتي بتلك الكلمات فعناد الشاهد رغم كل سلبيته ومثاليته يغبطني لانني حاسم وحازم فهل أغبطه انا ثقافته ؟ لا أعتقد ألست زعيم التيار الذي يطالب برؤوس المثقفين اولئك البورجوازيون ذوو النظارات الطبية وعشرات الكتب المعروضة للمباهاة والزينة لا للقراءة . لو قرأ عناد الشاهد كل الكتب التي تزخر بها مكتبته لكان عليه ان يكون أهم من ماوتسي تونغ أو الفيلسوف الامريكي همنغواي . لكن الثقافة تخصي الرجل فاذا به يتفلسف بدل أن يعمل . فرج الله مثلاً راح يحكي كلاماً منطقياً يثير الاعجاب ولكنني سألته سؤالاً واحداً أفحمه من الذي يقرر مصير البلاد وقدرها مدفعي ام نظريتك وقلمك ؟ فلاذ بالصمت ولم ينبس المثقفون معقدون يثرثرون عن الاشتراكية بياض النهار وسواد الليل ماهي الاشتراكية كمشة اجراءات تأميم ببساطة والوحدة بلا تنظير بلا بطيخ توفرت القوة فانجزناها

لكن عناد الشاهد رغم أنني أحب هذا المنحوس لانه يشبه اخي الصغير

رحمه الله ليس جديراً بالقيادة القيادة يلزمها حسم فقبل أن أقابل المفكر كنت أظن أن القيادة متطلبات صعبة عسيرة لكنني ادركت منذ المقابلة الأولى أنني اكثر جدارة منهم جميعاً سألت عناد الشاهد سؤالاً واحداً فأفحمته قلت له

ـ لو تآمرت عليك وكنت انت مكان الريس فهل تعدمني ؟

قال بصدق الاطفال وحماقتهم

ـ لا.. طبعاً انت صديقي العيش والملح و..

قلت له من فوري

ـ اغرب عن وجهي فانت لا تصلح رجل دولة

غير أنني أحب هذا الولد المنحوس الذي يشبه أخي ويذكرني بشبابي حذرته اكثر من مرة أن يضب لسانه الطالع النازل المنطلق في المقامات العليا وجهاز الأمن ، غير أنه عنيد لا يرتدع بسهولة حتى انني اسريت له بأن إخبارته عندي أمست بحجم دليل الهاتف بلا جدوى قال نقدي بناء قال قال انه انما يجتهد قال الحمار . لكنني اهتديت أمس الى حل ينقله من العقلية السلبية الى الايجابية سوف أقذف به في بحر السلطة. فيغرق صحيح انه جزء من النظام ، فجماعتنا يحكمون. وهو منا وفينا في النهاية لكنه لم يلمس السلطة لمس اليد بعد لا يزال ينشط بين المنظمات الجماهيرية التابعة لنا سأعمل على تعيينه في منصب لم يحلم به في يوم من الايام سيكون له رجال حماية وسيارة فخمة وسائق سأنقله من شقته التي لا تكاد تصلح لسكن طلاب الى فيلا فخمة لعله يكتب يوماً رواية يذكرني فيها بل لعله ينظم فيَّ قصيدة عصماء وفي أية حال سوف أتخلص من نقده الذي يطاردني كضمير صارخ مولول

كركرت مرتاحاً للفكرة وقلت في نفسي مباهياً ضابط الهندسة المختص بالتعامل مع الالغام الخبيثة المفخخة يصبح داهية يبز عمرو بن العاص اذا جمع الى خبرته هذه خبرة ضابط الامن

كالعادة أطوف بالبيت ، أتحسس جدرانه المحدودبة ونوافذه المسدودة وأتطلع على الوجه الخرب في المرآة . وكالعادة أفتح صنبور المياه ولاأغتسل وكالعادة أرنو إلى الخارج فأرى أسواراً وسدوداً وأنقاضاً. وأدلف الى المطبخ أضع إبريق الشاي على النار ، أسكب فيه الماء ثم الشاي وأنتظر فأفأته. السكر أضعه في الكوب أشبك يدي وراء ظهري وأدور حول نفسي بانتظار الشاي وتدور عيناي في أدوات

المطبخ ثلاثة دواوين شعرية قرب وعاء المخلل واحد مائل إلى اليمين والآخر مستقيم فارداً غلافيه كالقتيل وآخر مبتل بالخمر ملاعق صدئة وصحون لم تغسل منذ عصر الديناصور . . وطحلب وطفيليات في كوب شاي شرعت في احتسائه قبل أيام ثم تركته وعفن ينهش قطعة جبن أخرجتها من الثلاجة قبل أيام فلم تعد وقار وجهي في زجاج النافذة المحطم بهياً

وكالعادة حملت كأس الشاي ثم زجاجة من الحليب تنشقت الحليب ، فكانت رائحته رائحة حليب ولم تكن ثم قصدت الصالة رغم أنني لم أغسل أسناني وكنت سكبت الحليب على الشاي وأقعيت على البساط العربي على الأرض غير أنني لم أطوِ ساقي تحتي وضعت كأس الشاي الحليبي إلى جانبي وتناولت قرصاً من الأقراص الجهنمية وكنت أرتدي دشداشة إذا ما هبت ريح هفهفت وكشفت. اتكأت على دواوين للوركا وناظم حكمت وعزرا باوند وأنسي الحاج. وإلى جواري نامت أغاني الاصفهاني وكتب أخرى وأحاط بي المستطرف من كل فن مستظرف، وصحف ومجلات قديمة وقصائد حاصرتني كجثث تسد عليَّ منافذ الخروج منها وتفتح لي منافذ الدخول فيها. . وكالعادة كنت أدخل.

وطغت علي رغبة في الذهاب بعيداً في عوالم الأسرار وساحات الأنوار وفي ولوج الكهوف الخرافية وفتح الباب السابع المستحيل والوقوف على حقائق الاسراح المدهشة فأشعل الحواس وأمزجها وأعانق الذهول واتكىء على سراب المعجزة

أشعلت سيجارة من الحشيشة وتطاولت يدي فتناولت زجاجة خمر عتيقة إنه مهرجان الطيش الخرافي وفي حجري رقد الحلاج ما في حجري إلا الحلاج

وطالعت وكان الصمت في العالم الخارجي لا يزول ولا يميل ولا يومىء ولا ينطق ولا ينبس ولا يقوم ولا يقعد كالمنزه عن الصفات والحركة.

وكانت السكينة لا تفر ثم لا تكر ثم أقرأ لكن صهيل خيل المخيلة حلق فجأة في الأبعاد وكنت أسكن السكينة ولم أعد

أيقظتني كفى ، ناولتني فنجاناً من القهوة وكوباً من الحليب هل تعرف ماذا جرى أمس هل تذكر ما فعلت ما كنت أعرف ما جرى فلا شيء يجري في هذه المدينة الخالية من الأنهار وما تذكرت ما فعلت لا اتذكر ولا اتذكر لا . .ورأسي كان يدور في فلك الدهشة

قالت تعاتب وتنهر باشفاق ونزق هذا سم الهاري الذي تتعاطاه

ما يغلق علينا في عالم اليقظة نكتشفه في عالم المنام في كابوس قاتم كنت أهرول في الشوارع . . مستشاط الدماء ، أبحث عن الوغد الذي صادر جسد مريم فجعلها تخلعه وترميه في الغربة وولجت غابات من الثكنات وفصولاً من الزنازن ، نبشت وجوه الوزراء والمقاولين والضباط والمعلمين ، تفحصت اظافر تميل نحو القبلة وفردت أيدي مضمومة على اعناق الفحولة واكف مضمخة باحلام وأعصاب وجلود ودموع مؤممة وبعدما تواريت خلف انقباضي وانطويت لأحيط بالمنافذ رأيته ، هويت بسيفي على ظله فقطعت الشك باليقين كان جسده يلتف وينهض عالياً مستقيماً ألفيت نفسي أغير عليه وكنت أسرع من الطير الجارحة ، خاطفاً كالومض خفيفاً كطير الأبابيل ورأيت أنني سأهوي عليه واحتز رأسه وأضرب عنقه وأقطف منه كل بنان ، ومن بعد رأيت وجهه مضرجاً بدمائه وقلت انني سأحمل رأسه الى مريم وأجتث شجرة عائلته فلما تدانيت منه والتففت منفتلاً منخفض الجسد مراوغاً على صهوة الريح عصفت بعمامته الحاجبة فاذا بي أراني

يتداخل اليقين بالشك ويختلطان كأوراق اللعب. أراقب جدران المقبرة المهدمة الخربة أتابع صرصاراً يزحف على الأنقاض قال مثقال فرحاً

ـ بن بللا خرج من السجن حياً

هززت كتفي تأملت حطام العابرين الأفق جدار قلعة هائلة من الحديد والاسمنت كنت أدرك أن السجن لا يزال حياً كذلك قال بلهفة

ـ أعتقد اننا سننجح في تشكيل نقابة خلال أسبوع .

رفعت منكبي استهانة وأنا أتابع مسارعة الانحناء إلى ظهر النهار رسمت باصبعي على التراب دائرة مفرغة ومنعت الصرصار من مغادرتها بعود يابس قلت دون أن التفت :

ـ لا ترش على الموت سكراً

سأل قلقاً

ـ والحلم ؟

قلت

البقية في حياتك ثم سحقت الصرصار

موجة مقطوعة من شجرة تلوذ بالهاوية تتعهد بالرمال من البحر تطهرها اليابسة فتندحر . موجة منبوذة عنزة سوداء بين قطيع أبيض تلاطمها فتعاود على وجهي وانحنيت خشوعاً ثم انتصبت

شعر مريم سرب عصافير رقيقة الأجنحة ترفرف تطير تهيب وراء عينيها ثم تعود .

ومثقال في بيروت دهشة تفغر فاها وتمشي على قدمين. يزود عينيه وأذنيه ويديه بمئات الأصوات والكلمات والأوراق.. قبل أن يخطفه الموت. نبض قلبه يتدارك.. ويجهل ساعة الصفر.

الهواجر صهرت الرمل عينا مثقال جمرتان يتقد فيهما وهج وبريق هاجرة تشوي الوجوه . لم ألتفت كنت أنكت التراب باصبعي تقدم شعاع الشمس الناري فاندحرت الى فيء شجرة السرو . عن يميني هناك سجن البلدة الحجري وعن شمالي مقبرة البلدة المحطومة وتذكرت ان تيسير سبول كان يحلو له أن يسمي بلدته « هجير ». مال مثقال كتلميذ يغشش زميله في قاعة امتحان وهمس
ـ أمس نجحنا في جمع بعض شباب العشيرتين واتفقنا ثمة أمل يلوح في الافق تابعت طابور النمل الاشقر وهو يسعى بالاتجاه المضاد للمقبرة لست ادري اضحكت ام بكيت وانا اقول
ـ الافق خط وهمي كلما اقتربت منه ابتعد عنك

لاحظت نملة سوداء تضطرب في طابور النمل الأشقر . راعني إحساس باني إياها

كان أبو الموت من الذين اقتحموا البناية الباذخة تأمل اثاثها مشدوهاً ، وحسب نفسه للوهلة الاولى يحلم حلماً أسطورياً لم يعصف بالمبنى ليصادر ويؤمم بقرارات ذاتية طاف بالغرف الواسعة الفخمة بعض الشباب يحملون كتبات وثيرة ، أحدهم يحمل أقفاص دجاج وحمام ، آخر يحمل باباً ، لمح شاباً ـ لم يشترك في الهجوم ـ يقص قطعة من سجادة عجمية فاخرة لم يلتفت لكنه جلس الى البيانو وراح يضرب باصبعه على مفاتيحه فبدا كطفل صغير يلعب بآلة والده الكاتبة عبره شاب يحمل علبة مخملية فرغها من المعالق والسكاكين الفضية وهام بها ورأى امرأة تقلع بلاط الصالة بشاكوش قام عن البيانو بعد أن عزف سمفونية الفوضى والصخب المنفرة ذات الانغام النشاز ثم طاف بالطابق العلوي في غرفة النوم

الاسطورية وقع بصره على بندقية اثرية مطعمة بالصدف ، انتزعها عن الجدار ثم أطل من النافذة فرأى مقاتلاً يصوب فوهة بندقيته نحو كلب بدا وكأنه ينتمي إلى سلالة عريقة هتف ابو الموت

هيه لا تقتله انه لي

وترامى إلى مسمعه صوت الغزاوي غاضباً ساخطاً ينهر الناهبين ويندفع هنا وهناك كالذي مسه طائف من الجنون على نحو مفاجىء محاولاً أن ينتزع من الناهبين ما نهبوا ، وأن يضع حداً لهذا التأميم العجيب

اصطحب أبو الموت الكلب العريق النبيل الى المخيم تجمع الاطفال حوله ، بعضهم تجرأ وداعبه وبعضهم رماه بالحصى وبعضهم اكتفى برميه بنظرات حاقدة في اليوم السادس توفي الكلب العريق بعد اضراب متواصل عن تناول فتات طعام المخيم

توهجت عيناه قال

ـ لكننا سنبني دولة الوحدة والاشتراكية في يوم ما

ـ لتحجزوا لي فيها زنزانة

ولاحظت أن سجن البلدة يبدو شبيهاً بسجن الرمل في بيروت نطل من الجامعة فاذا السجن يضيق عن شمالنا والبحر المترامي الرائق عن يميننا راقبت صرصاراً يسعى في الارض.

ماتت بسمتي الواهنة على شفتي تأملت البيوت الطينية الغبراء الكئيبة بدت وكأن الانحناء قد سارع إلى جدرانها مثقال لا يكف عن الكلام وانا أراقب الصرصار . كان يتحدث عن الحلم الماضي ثم ينثني نحو بيروت وينطوي بين جامعة لومومبا والنقابة ، ويهرول نحو النقيب المحقق وانا في مكاني لا اتزحزح ولا أزول

مر طابور النمل الاشقر لمحت النملة سوداء مرة اخرى ، بحثت بفضول عن اخرى بلا جدوى هي السوداء الوحيدة بين قطيع أشقر وراعني أن ارى فيها ملامحي مرة اخرى لكنني لم اومىء ولم أقل

باغتني مثقال قائلاً

ـ هيه الاتعتقد ذلك ؟

ما عرفت ما هو ذلك ما كنت أصغي برمت شفتي ، هززت كتفي ثم

رأسي كالموافق لكنني لم أسأله ما هو « ذلك » فالنمل بلغ العود

فجأة توقفت النملة السوداء ، غادرت قبيلتها الشقراء ، وانكفأت تسعى نحو المقبرة

قال يلح ويعزي نفسه
ـ لكن الحلم سيبزغ يوماً

عنَّ لي أن اتناول النملة السوداء واعيدها الى قبيلتها ثم فكرت لعلها طارئة مقطوعة من شجرة لعلها لا تنتمي لعل التعب أدركها تركتها

قلت وانا أشيعها بنظري
ـ أنت تهرب من الواقع لتحيا المستقبل

فز قائماً نفض التراب عن بنطاله وقال بحدة
ـ وانت تهرب من الحاضر لتحيا الماضي

مشى مبتعداً مغضباً مطرقاً ثم توقف ، التفت وقال بنزق
ـ سلبي سلبي سلبي

أطلقت ضحكة يائسة وقلت
ـ مثلنا كمثل مريض يضاجع ميتاً فلا الميت يتغنج ، ولا المريض ينتشي

كان الغزاوي اول من اقتحم البناء الاسطوري واول من خرج منه بخفي حنين وجرح في الساق .

أين الحدود الدقيقة الفاصلة بين اليقظة والكابوس ، بين الوهم والواقع ، بين الواقع والحلم بين الحلم والغفلة ، بين الرؤيا والهلوسة

حين انقضت علي المدينة دفعة واحدة باغتتني بالعداء دفعة واحدة نبذتني الشوارع ولفظتني المقاهي وأعرضت النوافذ وأوصدت الابواب ولاحقتني كلاب العيون المسعورة وطاردتني الهاجرة ترسل ورائي السنة النار انه موقف قلت في نفسي فزعت الى دار زميل قديم من ايام الدراسة عاش من رآك ياشيخ وكيف جرى وأين هذه الغيبة عارف بيني وبين اصدقائه وهل تشاركنا لعب الورق ؟فأرفع حاجبي لاهثاً وأقول بصوت مخنوق يتساقط على شفتي انني لا أجيد لعب الورق

تلعب بلياردو ؟ ايضاً لا تعرف ! شطرنج ؟ ماذا تعرف إذن ؟

عنَّ لي أن اقول له انني لا أجيد إلا اللعب بما يتدلى بين فخذي لكنني امسكت حين تذكرت انني ما عدت جديراً بهذه اللعبة أيضاً

ماذا عن الطاولة ؟ أيضاً! لا لا. راح عليك نصف عمرك وفتحت فمي وهممت بأن أشير له أن عمري كله ضاع لا نصفه فقط ، لكنني جلست في الكنبة أختنق ولا أنبس سنذهب إلى المدينة الرياضية نلعب سكواش أتأتي ؟. أتعرف الى أي حد وصل سعر دونم الارض قرب المدينة الرياضية

ماذا لو كانوا يعرفون عن علاقة كفى بالنقيب لا يعرفون ؟ إذن كيف أفسر هذه النظرات الهازئة الساخرة الخبيثة التي يسترقونها الي ؟ لعل قصة خيبتي المتكررة معها قد ذاعت على الملأ

أحسست أنني رجل محشو بالخطر كبندقية ولاحظت تصدع جدران الصالة وبدت لي أنها تميل علي لكنني لم أطلق الصوت ولم أنبه الجلوس اكتفيت بالاحساس بعرقي وهو ينزف مني

الجمبو أفضل من الكونكورد لا.. نعم لكل ايجابياتها وسلبياتها ما رأيك اخ عناد ؟ أتعلم انهم يعالجون أوجاع الظهر في الفلبين بعشب خاص ، زوجتي سافرت الى الفلبين السنة الماضية لعلاج أوجاع الظهر فعادت بخادمة عبدة سوداء احياناً تتحدث الى نفسها بلغتها فاخالها تعطس وتسعل وتطلق ريحاً من مؤخرتها

مثقال يلهث ، لن ينتظر المصعد سيرتقي الدرج الى المكتبة هتفت
ـ لن تهرب المكتبة منك ليس ثمة من يلحقك بعصا
صاح مثقال وهو يرتقي الدرج بسرعة
ـ العمر الموقت يلحقني ببندقية قنص

يتخطى درجتين ويطأ الثالثة أخشى على قلبه الواهن فمكتبة الجامعة العربية في الطابق الرابع لكنه مفتون ببيروت المسارح والكتب والمجلات وأمسيات الشعر والموسيقى ومهرجانات الخطابة ومعارض الرسوم والنحت والبحر وحرية اطلاق الشتائم السياسية على انصاف الآلهة ووو. مذ جاء إلى بيروت وهو يتعاطى الدهشة ، يدهشه احتساء العرق في جلسة مختلطة ، يدهشه مشاركة الصبايا شرب

العرق والشتائم في بيروت توقف عن التدخين حين اكتشف مئات الكتب التي يحلم بقراءتها بات يرغب في الحياة يمطرني بوابل من الاسئلة ، يضحك بجذل طفل انظر امرأة تدخن النارجيلة في عروس البحر . اسمع امرأة تغني بالفرنسي مجلة شهرية جديدة ديوان جديد لشوقي ابو شقرا انظر . . لماذا لم نسمع بالياس مرقص في مسقط رأسينا ممنوع ؟

ندلف الى المكتبة أشده من ذراعه وأقول بحسم

ـ نشتري هذه المجلة فقط ونخرج اسمع نتقاسم ثمنها هذه المجلة فقط

يهز رأسه بالايجاب يمرر بصره على الكتب والمجلات يتحلب ريقه كما يتحلب ريق جائع يبصر وليمة يهتف وكأنه يرى امرأة تتعرى :

ـ انظر مختارات لينين

انفخ بامتعاض . اقول

ـ نشتريها الشهر القادم

يلتفت بعينين متوسلتين يشع منهما بريق نشوة عارمة كأنه يبصر السماء وقد انشقت في ليلة القدر . يتصفح مجلة أخرى يهتف

ـ انظر مقال للعفيف الاخضر ممنوع في مسقط رأسينا

يدس المجلة تحت ابطه بحركة خاطفة تسبق اعتراضي يلهث وهو يقلب كتاباً عن الماركسية والمسألة القومية يسترق الي نظرة مذنبة يتردد

يدس الكتاب تحت أبطه . أرمقه بنظرة ممتعضة . يهتف كأنما يتوسلني ألا أحول دونه وبلوغ ذروة النشوة:

ـ طيب . . سأقلع عن الفطور والعشاء طوال اسبوع ولن أقص شعري هذا الشهر يعني سأوفر اكثر من ثلاثين ليرة

تغيب احداقه في الكتب

ندلف انا ومريم الى مكتبة الجامعة أشير الى مثقال بيدي على الطاولة أمامه كومة من الكتب : فلسفة وسياسة وتاريخ واجتماع وأدب .

مالت مريم نحوه وهمست متبسمة

ـ اتقرأ بالعرض ؟

توردت وجنتاه وفزع بعينيه نحوي مستجيراً لم يعتد محادثة فتاة عن هذا القرب غمغم بكلمات مخنوقة وغض بصره

بل هو مطارد يلاحقه الزمن يتربص به الموت وأحلامه الصغيرة كثيرة يقول في نفسه علي أن اجد نفسي قبل أن ينفجر هذا القلب ـ القنبلة الموقوتة ، قبل أن تباغتني الفانتوم في عقر داري . أو رصاصة كاتم صوت طائشة علي أن أختزل رغباتي عناد الشاهد يقول ساخراً أنني أحمل خمسين بطيخة بيد واحدة ، يقول ترغب في أن تكون فيلسوفاً ومنظراً سياسياً واديباً وفناناً ومقاتلاً ! يتجنى علي ولا يفهمني صحيح انني أطرق هذه الابواب جميعاً ولكن لاكتشف أيها باب دربي الخاص

بيروت صبية اسمها جازية عمره قبلها خاو كالربع الخالي كان يسأل عناد الشاهد عنها قبل أن يبلغها فيعانقها وتحضنه يقول له عناد « بيروت وحدة اضداد الحمراء باريس وصبرا هانوي المسافة بين الحمراء وصبرا تجتازها السيارة بخمس دقائق

يقاطعه مثقال
ـ لكنك لم تر هانوي وباريس ؟

ويستأنف عناد نبش الذاكرة ، فيصف الجامعة الامريكية مكتبتها ، نشاطاتها الثقافية ، النادي الثقافي العربي المسرحية التي شاهدها في سينما اورلي المسرحية التي شاهدها في البيكادللي مسرحية انتغون ونضال الاشقر دور السينما المركز الثقافي السوفياتي مقاهي الارصفة البارات والكريزي هورس وربما شارع المتنبي المتفرع عن ساحة الشهداء ثم صبرا ، مكتبة الجامعة العربية ، مكاتب المقاومة المسلحون المعدلة الاجتماعات اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين ابو شاكر من فوق ابو شاكر من تحت

وعلى صهوات خيل المخيلة المجنحة يطير مثقال الى المستقبل يحط في الجامعة الامريكية ، ويتسكع في شارع الحمراء ثم ينفتل نحو صبرا وفي الطريق يصادف فتاة تدعوه لتناول فنجان من القهوة وقلبه اللعين المزروع في صدره لغماً لا يمهل كان مثقال يعرف ذلك. وعناد يعرف أيضاً وكم خفق قلب مثقال حين وقع بصره على قصيدة لانسي الحاج وهو يقلب احد أعداد مجلة « شعر » التي اكتشفها اكتشافاً في مكتبة الجامعة العربية قال لعناد ان اعدادها ما كانت تصل الى البلدة في مسقط

الرأس وقال أنسي
اعيروني حياتكم لانتظر حبيبي / اعيروني حياتكم لاحب حبيبي / من يسعفني بالوقت / من يوسع الامكنة

كلمات كان يبحث عنها منذ كانت الصحراء وكان قلقه حيال جني الموت قاطع الطريق هذا الذي سوف يخطفه وهو في منتصف درب الوقوف على اسرار الذات ، قبل أن يصل حبيبه ، قبل أن يحب حبيبه

في تلك الليلة عاد إلى الشقة المجاورة للجامعة مرهقاً فالفى عناد نائماً جلس على مقعد في الشرفة وأسند ظهره الى الحائط ، أجهش في البكاء ، ونام في مكانه بعد أن هدأت نفسه وسكنت نوبة كآبته العارمة

وكان عناد يرسل شخيراً مرتفعاً فيغمغم بكلمات غير مفهومة ثم يتقلب ويعاوده الشخير . . فيرد مثقال المتعب بارسال شخير يصاحبه صغير خافت

القاهرة ، دمشق ، عمان ، بيروت ، القدس ، اريحا مدن تجتزىء ذاكرته تتوزع عمره رأى أنه ولد مديناً للزنازن والبنادق افواه فاغرة تنتظر ابتلاع لحظات عمره

وما بين اعتقال اللحظة وابتكارها تهتف مريم ولكن عناد لم ينته من روايته بعد ولم ينجز مثقال مطالعة المختارات وصرخ هو : « يا عمي أهيب بكم إرجاء الحرب سنة أو ثلاثاً اكون قد شبعت ».

قاطعه صوت من الجهة المقابلة « شهيتك هائلة لن تشبع ». ابو الموت على ابو . . وكان صوت بجواره يسأل « أي وجه حبيب تركت في تلك المدينة ؟ أية علاقة رهيفة صادرتها كوكبة من الأشباح عند الحدود ؟ أية عاصمة جعلتني أخلع حسراتي الخفيفة وأحلامي الصغيرة وكلماتي البسيطة مثل معطف أو حذاء ؟ في مسقط رأسنا نتناول المخدرات يقول غاب عصر الاجوبة هذا أوان السؤال واصيب في رأسه تكومت مريم تقتعد الأرض لا تطرف ولا تنبس كان علي أن أبكي لكن الدموع عصية حدقت الى المصباح المشع دمعت عيناي كذباً كنت حزيناً وبلا سؤال العتمة من خارج وفي أغواري ضياء الظلام يتقدم يحرق الكلمات دفنت رأسي في صدر مريم أصغيت لصخب البحر في قلبها كنت مزوراً اجاري ينبغي أن أبكي لكنني بلا سؤال تكلفت قناعاً كنت سواي

استيقظ عناد وقام الى الشرفة ، لكز مثقال في كتفه قال مثقال كنت أحلم
قال عناد كنت أحلم

الجبل ينحدر نحو البحر ، السنديان يزحف الى القمة ، الصنوبر ينهض نحو الفضاء الضباب يتقدم. الجبل جمل ذو سنام محدودب تمطيه الغيوم ، يتحاور الهواء واوراق الشجر والسكون ويسمع المدى والكل يتنفس بملء رئتيه في حلقة صوفية تسكر الاشياء روحياً السنديان يتمايل الله الله واوراق التينة ترفرف والصنوبر يترنح ياعين ياعين والجبل جد كهل طروب يحمل كل هؤلاء بين ذراعيه ويحيي الضباب المارق والبحر يناديه فيطل من وراء الضباب ويصغي من عليائه على أسطح البيوت غسيل يتأرجح على الحبل ثياب قرويين تنتصب الى جانبها أعمدة تلفزيونات معقدة

أقف ومريم خاشعين أمام الطبيعة الطروب اذا مشت الاشجار المغبرة اليابسة في مسقط رأسي استثناء ففي جنازة وصمت الهواء وموت الشوارع وجثث الاشجار وانقاض الجبال المحنطة هي القاعدة

محمود يلقي قصيدة في كلية الحقوق في الجامعة اللبنانية معين في النادي الثقافي العربي روجيه عساف وآخرون يتحدثون عن المسرح في النادي نفسه عزة تنشد أغاني امام ونجم في قاعة جمال عبد الناصر ابو عمار يتحدث في قاعة جمال عبد الناصر في الويست هول ـ الجامعة الامريكية ـ مناظرة حول الشعر الملتزم وغير الملتزم ، يستشهد أحدهم بعزرا باوند والآخر بناظم حكمت. وفي قاعة أخرى نستمع الى عزف مقطوعات شرقية وفي اخرى مسرحية لاوسكار وايلد. وفي اخرى كونسرتو ثم معرض رسم. كولن ويلسن يحاضر بدعوة من اتحاد الادباء اللبنانيين. . تقوم القيامة لماذا كولن ويلسن بالذات ؟

الشباب يحملون أسلحتهم ويهرعون الى الشياح آخرون يزرعون ملصقات لبعض الشهداء على الجدران تقول مريم نحتاجكم في برج أبو حيدر . أبو الموت يعارض نحتاجهم في معركة الفنادق يرد الغزاوي اننا لا نجيد القتال ليسوا مدربين ليستنفروا في منطقة ابو شاكر إن شاؤ وا حنا يتصل بأهله في الاشرفية يشتموا « جماعته » قصف مدافعكم ياباشا ينهال علينا بحقد كأننا صهاينة لماذا لا تقصفون الصهاينة ام حنا تقول لحنا بلهجة نزقة عصبية حنا يصرخ متوسلاً ان ترفع صوتها قال ان القذائف تنهال حول بيته في المزرعة كالمطر . قولي لابنك الاحمق

بطرس ان قذائفه تتساقط حول الباحة التي يلعب فيها أولاد أخيه أولادي كادت قذائفه أول من أمس أن تقتل البنت البنت مشتاقة اليك تعالي وزوريها تقول امه تعال انت رد بصوت متهدج هل تضمنين حياتي أجابت باقتضاب لا مسرحية زياد الرحباني تعرض للشهر الخامس في سينما مونت كارلو . مسرحية دريد لحام في البيكادللي ثم مسرحية عادل امام وينفجر الضحك والقذائف والاجساد والسيارات صدرت أوامر بوقف اطلاق النار وصدرت مجلة الكرمل وصدرت مجلة مواقف مرة أخرى صدر مريم يعلو وينخفض ونهداها قنبلتان ضاع مسمار أمانها الملصقات على الجدران معرض شهداء ، ومعرض الكتاب السنوي في وزارة السياحة والمطر ينهمر والقذائف أيضاً وشعر مريم حين تركض من متراس إلى آخر تلهث بين القذائف وتلهث بين ذراعي ، ومثقال ذهول ، يضطرب بين الحمراء وصبرا والشياح يقلب الكتب والجثث ولا يقلب أجساد المومسات لانهم أقفلوا السوق

وتتقلب اطواره يريد أن يبقى هنا صامداً لا يتزحزح ويرغب في العودة الى مسقط الرأس كي لا يسقط رأسه هنا وتراودني نفس الأحاسيس وأبو الموت يراود ابنة الجيران عن نفسها وتتمنع للوهلة الأولى فقط بعض رفاق الغزاوي وابو الموت ومريم وحنا يزعجون مؤيديهم بالتجاوزات واخرين يتجاوزن الحدود ويحملون على العدو . تنهار عشرات الاعصاب والبنايات لتنهض مئات البنايات والجرحى نهبط من الشياح إلى أرنون نعود الى بيروت ، نمضي الى البيك ويك نحتسي كؤوساً من البيرة ، نختلف الى سينما كونكورد نشاهد فيلماً من بطولة بيتر سيلرز ننفجر ضحكاً نتمشى في شارع الحمراء نناقش دلالات الفيلم نهبط الى صبرا نحضر اجتماع اللجنة الاعلامية نحتسي الشاي نعود الى الشقة ، نستحم ، يلبس كل منا « دشداشته » نعد الشاي نحتسيه أقرأ مایاکوفسكي ومثقال يقرأ كتاباً عن اليسار الفرويدي ثم ينقلب الى ثلاثة كتب اخرى يلتهم بعض فصولها التهاماً يقرأ بالعرض نستنزف نغفو ، مثقال يقاوم النوم يواصل قراءته ـ الآن يقرأ كتاباً عن مشروع رؤية جديدة للتراث ـ عيناه نصف مغمضتين يعد ركوة قهوة يحتسي أربعة فناجين ويسألني ان كنت أعرف حبوباً منبهة يناهض بها النوم أنهض فاتحاً عيني وأهرع نحو الطاولة والقلم مثقال يتابعني بنظرة دهشة . هبط علي الوحي الروائي أقول له أقيد الفكرة على الورق قبل أن تطير مثل نسر قلق أعود الى السرير يترامى الى مسامعنا جرس الباب . يبادر مثقال فيفتحه أسمع صوته يرحب ثم ينادي

ـ جاءت مريم يا أستاذ تنبل انهض

الحر شديد ، المروحة تئن وانا أحتسي بيرة ساخنة واراقب الهاتف بنظرة مغيظة بليدة أتضرج بالعرق أحدق الى الهاتف ثم أنهض وأطل من النافذة ؛ المدينة قبر كبير . العابرون جثث تمشي مدفونون في التفاصيل أسعار الاراضي ، اكسفورد ستريت ، الفارق بين السيارات اليابانية والامريكية السماءتنخفض ، الارض ترتفع والجهات الأربع تتقدم نحوي كنت أختنق طفت بالبيت مرة أخرى فتحت المذياع . . نشرة أخبار . استقبل السيد الوزير . سافر السيد الـ . . زار السيد الـ . . اجتمع مع فخامة الـ . ودولة الـ . والموجة تجري ورا الموجه عايزة اطولها وركن المرأة وأقفلت المذياع في الحمام عثرت على صحيفة قديمة طالعت صفحة الوفيات وقرأت برجي وعن لي حل الكلمات المتقاطعة غير أنني تذكرت تجزئتي عزمت بحسم أن أغادر البيت ، وأضرب في شوارع المدينة العجوز

كنت أرنو الى الهاتف الرابض بوقاحة وعدم مبالاة على طاولة في ركن الصالة تذكرت تهريبه لي حين كنت في الاقامة الجبرية منعوني من مغادرة البيت غير انني غادرته عمودياً كنت أرفع السماعة وأتصل بمريم أو الغزاوي في بيروت وأتصل بلندن فاتبادل الحديث مع تلك الفتاة التي تعرفت اليها حين زارت مسقط رأسي سائحة

أيعقل أن يكون المرء في مكان واحد وزمنين مختلفين ؟ ايعقل أن يعيش زمناً واحداً في مكانين متباعدين ؟

نعم كنت أتصل بمريم فما إن يأتيني صوتها حتى أتنشق رائحتها ورائحة البحر يرتج كياني حين يداهمني إحساس طاغٍ ويحملني على بساط ريح الذاكرة والمخيلة الى مريم هاهي تقف في صالة دارهم الصغيرة تتحدث إلي أمها تطل من النافذة تسألها من المتكلم وراءها الصالة المتواضعة ذات الأريكة الكبيرة حيث كنا نتعانق بعنف متأجج ونتبادل القبل الشرهة أسألها عن الأريكة ، ألا تزال في مكانها ؟ عظيم أما زالت نافذة الصالة بلا ستائر ؟ وأطوف مع مريم بغرف بيت أهلها القائم في الشياح . يغمرني فرح طفولي تهتف

ـ آلو . . آلو. الانزال معي على الخط ياعناد

أسمع صوت تراشق متقطع ، ثم انفجار هائل أهم بالانبطاح أرضاً أرى

الشباب يحملون أسلحتهم ويتراكضون الى المتاريس والبنايات الامامية المقفرة أتنشق رائحة بارود انها تقف تحت صورة والدها المتوفي أكاد أتنشق رائحة غرفتها على أصابعي ينمنم ملمس جسدها الناعم قالت انها مشتاقة سألتني عن حالي قلت إنني أجلس طوال اليوم على قفاي أمضي الى الماضي عبر الذاكرة ثم أضفت بمرارة أنني بليط نعم ؟ بليط بليط ؟ نعم ، أبلط البحر اطلقت ضحكتها العذبة ذهب صوتي الى بيروت وبقي هنا في آن كذلك أنا إنها تجلس على الكنبة المجاورة للنافذة لا انها تقف بجوار النافذة دائماً تقف حين تتحدث بالهاتف انها تحرك يديها وهي تحادثني ، أراها تهز رأسها أن نعم حين أسألها لعلها هي أيضاً تمتد مع صوتها الى هنا تتوهمني منشغلاً بكتابة منشور سياسي تقول لنفسها لا بد وأن عناد قد انتهى لتوه من كتابة منشور سياسي ، وانه كان يعقد اجتماعاً سرياً قبل أن يتصل بي اكاد أراه يحمل المناشير في يده اليسرى وهو يتحدث الي وكان عناد يحمل زجاجة بيرة ساخنة وانقباض ثقيل أقسم انني أحس بحاسة عجيبة ان الدموع تحار في عينيها حين تسمع صوتي ها هي تقف على الطرف الآخر من الخط وتذرف الدموع في صمت

كان الغزاوي يطوق مريم بذراعه القوية وهي تتحدث مع عناد يتناول يدها اليسرى ويشد عليها قال عناد في نفسه انها تحمل قطتها الصغيرة بيدها اليسرى

ـ آلو . آلو . ألن تأتي الى بيروت ؟
ـ اسمع اصوات انفجارات أيقصفون الشياح ؟
ـ لا يحتفلون بزواج ابن الجيران أو فوز نادي النجمة
ـ الطقس عندنا نار متأججة
ـ وعندنا حر ورطوبة
ـ الن تمري الى هنا ولو زيارة اشتقت اليك
ـ مللت الحرب والاضطراب
ـ مللت السلام والاستقرار .

ويتعالى صوت الانفجارات ، فألوذ عبر مخيلتي بالمتراس المجاور لدار مريم ويتحول حواري معها عبر الهاتف الى حوار رفيقين يقفان وراء متراس واحد

أما صديقتي الانجليزية فتعمل مضيفة في شركة الطيران البريطانية كنت أعرف عاداتها وأحفظ عن ظهر قلب حركاتها وهي تتحدث وأمزجتها الاحقها

بالهاتف ، تسافر الى واشنطن أتصل بها أو تتصل بي تقول لي الشمس هنا قوية والظهيرة باهرة ولا يفوتها أن تنبئني بلهجة من يسر بنبأ خطير أنها تعد وجبة الغداء « سباغتي ». فأقول إن الليل هنا طويل وانني أعد وجبة العشاء مقلوبة واعرف انها بعد ساعة ستستحم ـ تستحم كل يوم قبل الغداء ان كانت على الأرض ـ وأقول في نفسي اذا ما أرسل الهاتف رنيناً دون أن يقطعه جواب أنها ذهبت مع كلبها تتمشى ـ تتمشى مع كلبها كل يوم في تمام السادسة مساء بعد (التي تايم) حين تكون على الأرض وأتمشى معها في خيالي خيالي بساط ريح وطاقية اخفاء ومدى بلا حدود ولا أسلاك ولا رجال جمارك

لكنني لم أفزع الى الهاتف هذه المرة وحزمت أمري فارتديت ملابسي وغادرت الدار . استقبلتني الشوارع بامتعاض

جال بصري في الشوارع والدور والجبال بريبة وحذر . داخلني شعور مبهم بأن الشوارع قد سئمتني ، ونبذتني المقاهي ، ولفظتني الحانات ، وأوصدت الدور أبوابها دوني قلت في نفسي ؛ لعلي مصاب بمرض الاحساس بالاضطهاد. وتذكرت أن الاطباء يسمونه بارانويا

يممت وجهي صوب بيت عمتي العجوز ثم انفتلت باتجاه بيروت

● الرائد يزدري الندم من حيث المبدأ فالحياة في عينيه حقل الغام ومصائد مغفلين إما أن تزرعها أنت فيقع غيرك ضحيتها وتنجو . أو يزرعها الآخر فلا منجى

● عناد وتيسير يفتشان في الصحن عن حبة فستق جيدة ، عبثاً والاديب لايني يحدثهما عن الديموقراطية ومثقال يحرث البحر الميت فتنبت أدغال السكر والحلوى .

● لم يكن عناد يتعاطى المخدرات كما كان. وبات يحلم واستفاق مرة فسارع بمغادرة الحلم للكتابة عنه قال لنفسه هيا سجل قبل أن يتبخر الحلم ، إشهد ولكن الحلم يتبخر فعناد يرتدي بنطاله والحلم يتبخر يهرع الشاهد الى الأوراق لكن الحلم يطير : الحقه لكني لا ألحقه يسقط رأس الحلم كما بحيرة من اللهاث الحار في غابات استوائية أرمه من مخيلتي من عوالم الهلوسة من ذاكرة متداعية

● أرى فيما يراه النائم ، بل فيما يراه المهلوس ، بل في الشارع المزدحم والظهيرة

تشوي الرؤوس . . رأس المشير يطل . يستوقفني ، أنكس رأسي وأشيح مضطرباً كطفل بول على عقبيه يقول معاتباً

ـ قرأت ياشاهد « احياء في البحر الميت » لماذا أنطقتني بما لم أقل ، وحملتني ما لم أفعل وأنا الميت الذي ما كان خليقاً إلا بالرحمة قلت دون أن أنبس

ـ انه الرعب

ومشيت فانتصب امام عيني عبد الحميد استوقفني وقال

ـ قرأتك يا شاهد لماذا تزور ملامحي وتزيف الأزمنة وتتلاعب بالامكنة وتدفعني كبش فداء ؟

اختنق صوتي فلم أقل:

ـ انت بعيد ناء وشرك لا يطالني فاستوطيت حائطك

ولم يقل

ـ انما أنت متواطىء

فقد كان بعيداً نائياً والأشباح قريبة حميمة

● لا لا كل هذا لم يحدث انما أنا أحاول اعادة بناء الحلم المشظى وأحجاري انتثار وفتات ومثقال يحرث البحر الميت فينبت زعتراً

● في خمس سنوات رأيت بأم عيني الهول بلحمه ودمه أبصرت خروباً أهلية قذرة وحروباً خارجية دامية وحروباً صغيرة صغيرة بشعة وما كنت متفرجاً أبداً كنت مسدد الفوهات تارة والمسدد نحوه تارة اخرى

هكذا تكلم الشاهد

* * * *

ملاحظة من مثقال لو كنت مكان الشاهد لاختزلت كثيراً واختصرت حسب قانون الاقتصاد في اللغة ولحذفت كل النعوت الزائدة والصور المكررة ولتجنبت الاسهاب ورغم أن الشاهد منحني الحق كي أفعل في هذه الأوراق ما أشاء إلا أنني لم أحذف كلمة واحدة اذ خفت أن يكون المشهد الذي أرى فيه تكراراً هو انتقال صورة من عالم اليقظة الى الهلوسة أو المنام وبالتالي لا يكون المشهد مكرراً

وإنما انتقل من عالم لآخر وعلينا أن نتذكر أن الشاهد كتب هذه الاوراق في عواصم مختلفة كان يعتبر أنها تحدد شعوره بالزمان وتصوغ شكله ومن هنا ترددت خوفاً من أن يكون للمشهد المكرر حين يقع في مدينة أخرى معنى آخر ضمن السياق النفسي ولهذا لم أعمد إلى الحذف أو الاختزال رغم ضرورته

عماد حليم

أحياء في البحر الميت

كنت أفضل لو أن مؤنس الرزاز صورني شخصاً سوياً أليفاً. لكنه أصر على أن يجعلني نتاج هذا الزمن المجيد وهذا الوطن السعيد. لا بل جعلني أكتب رواية مفتوحة تتداخل مع روايته وتختلط بها شأنها شأن كوكتيل الأزمنة والأمكنة التي صورها.

وقائع هذه الرواية المفتوحة تجري في عوالم متباينة متداخلة: عالم الوهم وعالم الواقع وعالم الحلم. ونحن - أي أبطال الرواية - نضطرب أيضاً في مدن مختلفة ذات أزمنة ذاتية. فمؤلف «أحياء في البحر الميت» يفسر قول المتصوف: «الماء من لون الاناء» على أن الماء زمان والاناء مكان. وهكذا تنتج كل مدينة زمانها الخاص المتميز بل المناقض لإيقاع زمان مدينة أخرى من حيث ان الزمان ايقاع ذاتي ينبض في أعماق الذات. وبالتالي فان لغة الشخص ذاته تختلف من مكان الى آخر. فطبيعة المكان تحدد طبيعة الزمان وهذه تحدد طبيعة اللغة بما هو تعبير عن وضع أو شرط انساني معين.

تحذير: هذه الرواية ليست قرصاً من الڤاليوم يستحضر النوم للقارىء الأرِق. إنها قرص منبه لا بل هي الأرق الصعب عينه.

عناد الشاهد

(أحد شخصيات الرواية)

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

الثمن ١٤ ل. ل.